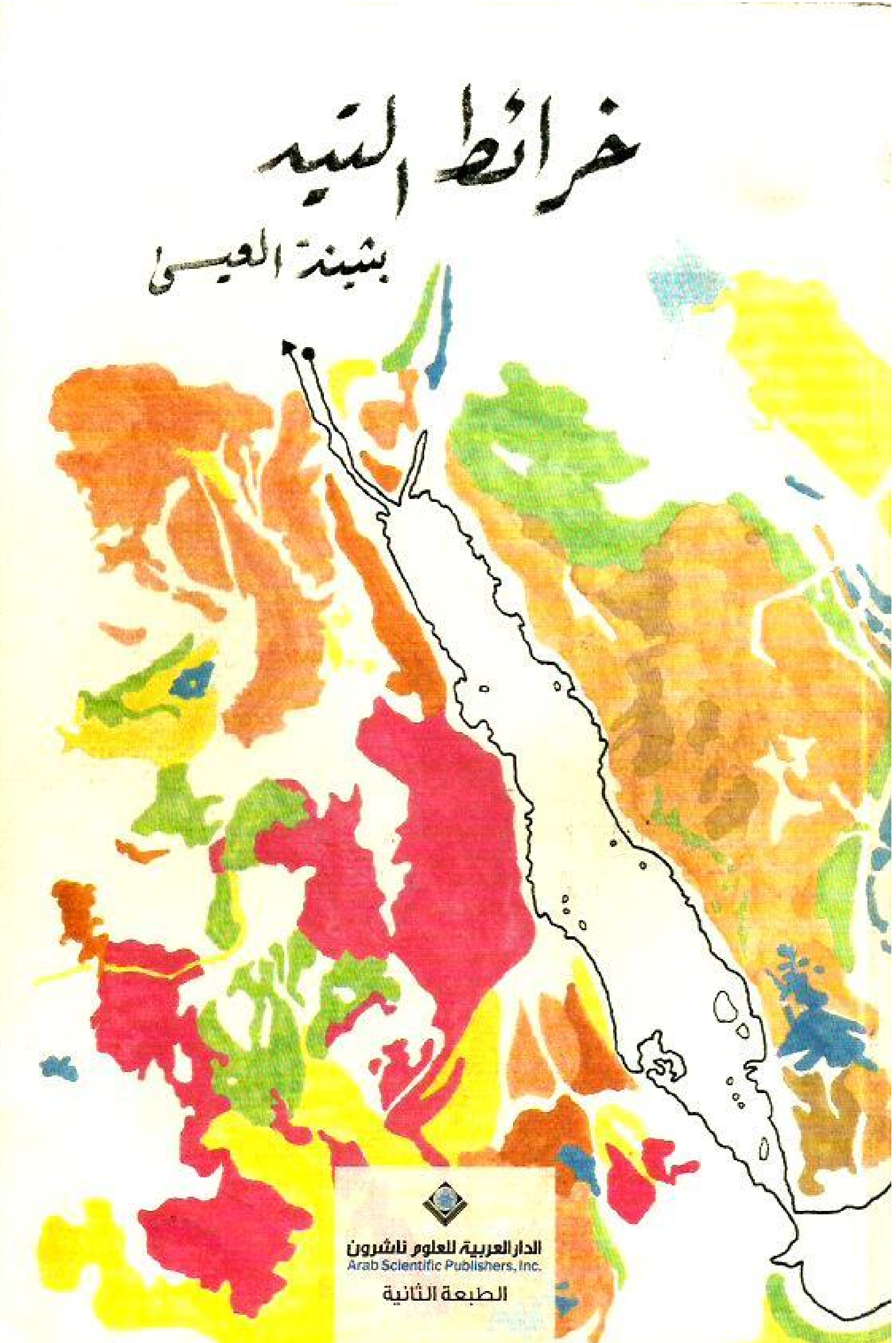

خرائط التيه
بثينة العيسى
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
الطبعة الثانية

خرائط التيه

خرائط التيه

رواية

بثينة العيسى



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2015 م - 1436 هـ

الطبعة الثانية: آب/أغسطس 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1631-3



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **ديمة الغنيم (الكويت)**

التجهيز وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

تاهَتْ على صُورةِ الأشياء صُورَتُه

حتّى إِذا كَمُلت تاهَتْ على التّيهِ

أبو تمام

هذه الرواية هي مـن وحـيِ الخيـال، وأيُّ تشـابهٍ، أو تطابقٍ، بينها وبين الواقع.. فهُوَ من قبيلِ سوءِ الحـظِّ، ليس لكاتبتِها وحسب، بل للعالمِ كلّه.

الفصل الأول

نَفير

يومٌ أوّل

مكة. الحرم الشريف

7 ذي الحجة، 1431

12:16 ظهرًا

قبل تلك اللحظة، كان كلُّ شيءٍ على ما يُرام.

كانت سُميَّة قد أَوْشَكَت على إتمام شوطها الرّابــع، تطــوفُ، مأخوذةً بجلال اللحظةِ، بين مئات الآلاف من الحجّــاج؛ شــفتاها تلهجان، غارقة في العرق.

كانت زائغة، نظراتُها معلّقة فوق مئات آلاف الرؤوس التي تعبّــئ المكان. العالَمُ حلقة تدور؛ لبّيك، لبّيك. كانت تهمس. ترسل عينيها إلى اليمينِ، تلمحُ قفاه؛ فيصل يسبقها ببضعِ خطوات. بين كــلّ الــرؤوس الحسيرة، الحليقة، الصلعاء، المحتجبة، السوداء، الرمادية، البيضاء، المتعرّقة، كانت تستطيعُ رؤيته. تنظرُ يسارًا؛ الكعبة مُحرِمة، مشــمّرة الأســتار، أحجارِها مرصوصة في قاعدتها، يعلوها قماشٌ أبيض، ينتهي بالكســوة السوداء المذهّبة. أحسّت بتعرّق يد الصغيرِ في يدِها، نظرت إليه، يحــثّ خطوه لكي يواكب. ها مشاري.. تعبت؟ يهز رأسه نفيًا.

صار مشيُهما أبطأ مع اقترابهما من الــرّكن اليمــاني، احــتقن المكان. عندما وطأت بقدميها الحافيتين على الخطّ الرخامي الــبنيّ،

رفعتْ يُمناها صوب الكعبة المتربعة في صدرِ العالم؛ اللهُ أكبر. كانت تمسكُهُ بيسراها.

اصطدمَ بهما وفدٌ آسيوي يسير متماسك الأيدي، انفكّتْ يدهُ من يدِها. شعرتْ سميّة بكتفها تكادُ تنخلع، وبجسدها ينقذفُ إلى الأمام خطوتين، تعثرت بطرفِ عباءها. عندما استعادت توازنها، واستقامت واقفة، لم ترَه. تلفتّت حولها؛ كان قد اختفى.

نظرت سُميّة حولها، كان الطوفانُ البشريُّ يجيشُ ويجرفها في أمواجه. صارت تصرخُ: مشاري! لا تتحرّك! لا تتحرّك! ابقَ مكانَك! ثم، حين تذكّرت أنه يمكنُ أن يُدهس حتى الموت، صارت تردّد: مشاري! امْش! امْش! امْش!

أرسلتْ عينيها تبحثُ في الفُرَج، بين الأجساد؛ صبيٌّ ضئيلٌ مثله يمكن أن يكون في أيّ مكان. تيبّست ساقاها، خفق قلبها بجنون. ارتطمت بكتفٍ عارية، أحسّت برطوبة على خدّها. دهست قدمها عجلة كرسيٍ متحركٍ، وتشكّل احتقانٌ مروريٌ من آلاف الأجساد المتسربلةِ بالإحرامات البيضاء والعباءات السود. في تلك اللحظة صارت تنادي: فيصل! فيصل! بين مئات آلاف الرؤوس، كان بوسعها أن تراه.

التفتَ فيصل في تلك اللحظة. رأى سمية تصرخ، بوجهٍ شاحب وعينين حمراوين. هَرَعَ إليها، يشقّ طريقهُ بين الأَجساد، كمن يسبحُ ضدَّ التيّار، حاصدًا عشرات اللطماتِ والصّفعاتِ على وجهه وكتفيْه. عندما صار أمامها راحتْ تشدّهُ من إحرامه، نظرت إليهِ بعينين ذاهلتين، مشرّعتين على الرعب كلّه. ورغم أنها كانت عاجزة عن تركيبِ جملة مفهومة واحدة، إلا أنه فهم كل شيء؛ لقد اختفى مشاري.

تدافع فوجٌ من الأفارقة بين الاثنين. تباعدا قسْرًا، وصارت سميّة تخرج، دون إرادة منها، عن حلقة الطواف. رفع فيصل يدهُ في الهواء، مثل صارية، صاح بأعلى صوته: سميّة! سميّة! جدَّفَ كلاهما باتجاهِ الآخر، تلاقت أيديهما، أمسك بمعصمها وسحبَها ناحيته. غادرا حلقة الطواف؛ لا تقلقي، سنجده، ابحثي عنهُ في الصّحن، أنا سأبحثُ خارجه.

فكّر فيصل بأن عليه أن يتبعَ التيّار، لا شكّ وأنه جرف ولده. مشاري الهزيل، الصغير، الهش! ما أسهل أن يجرفه نهرٌ بشريّ. أخذَ يعدو، بين الجموع، يعدو ويصرخ. سُميّة أيضًا، مثله، صارت تعدو وتصرخ. اصطدما بعشراتِ الأظهر والأذرع. حصدا اللطمات والصفعات على وجهيهما، وواصلا الرّكض..

ركضا من قلبيهما، أطلقا صرخاتٍ مذعورة، وكأنهما يهويانِ في جهنّم.

مكة. الحَرم الشريف

7 ذي الحجة، 1431

1:36 ظهرًا

بعد مضي ساعة، شعر فيصل بأن عليهِ أن يفعل ما هو أكثر من هذا الرّكض الملتاع. الأجسادُ التي يموجُ بها العالم؛ بياض، سواد، أمواجٌ تتعاقب في حلقةٍ مركزها الكعبة وهامشها خوفه، الدائرة تدورُ إلى الأبد. دردورٌ بشريٌّ يرقص حول نفسهِ، لو يكفّ الجميع عن الطواف لخمسِ دقائق فقط؟ الدائرة لا تكفُّ عن الدوران، وأنت نفسك، في أقصى قطرها، يجرفك الذُّعر.

جال بعينيه في المكان؛ يمكنُ أن يكون الصغير على مبعدةِ مترينِ منه، دون أن يتمكّن من رؤيته. قرّب كفّيهِ من فمهِ وصرخ؛ مشاري! مشاري! هرع ناحية الاختناق البشريّ عند مقام إبراهيم، ماذا لو سقط، لو دَهَسَهُ الحشد الغفير، وحطّم عظامه؟ لماذا لم يتّصل وهو يحفظ أرقامنا؟ أدار ظهره للكعبة وركض، بقدرِ ما يمكن للمرءِ أن يركض في الزحام، إلى أقرب بوابةٍ للحرم. رجالٌ ببزّات عسكرية، على صدورهم شارة كتب عليها "قوّات الطوارئ الخاصة"، يقفون أمام البوّابة. انفجر أمامهم: مشاري ضاع! ضاع! كان يلهث، العرقُ يرشحُ من جبينه، عيناه جزعتان. نظروا إليه مقطّبين، لم يفهموا كلمةً مما قال: ايش فيك يا حاج؟ أخرج جهاز الآيفون من جيب الحزام الجلديّ الذي يثبّتُ فيه إحرامه. عرض صورة ابنهِ على العساكرِ

واحدًا بعد الآخر؛ ضاع! كرّرها، وكأنه يتلو الفجيعة على نفسه، واقفًا بين آلافٍ من أزواج النِّعال، مصطدمًا بآلافِ القادمين، رافعًا هاتفه عاليًا؛ يستسلم لحقيقةٍ قاهرة.

على الشاشة المستطيلة للهاتف، ظهرت صورة مشاري؛ مرتديًا بيجاما سوداء، على صدرهِ شعار الرجل الوطواط. أخذ فيصل يصفُ ابنه للضابط، كأن الصورة لا تكفيه: شعرٌ أسود غزير، غرة كثيفة، بشرة فاتحة. هزيلٌ بإفراط، يبدو في الخامسة ولكنه في السابعة. يرتدي بلوزة برتقالية وبنطلون بيج. عنده شامة بُنيّة في رقبته. وفراغ في أسنانه الأمامية.

متى ضاع؟ من ساعة. وين كان؟ في الصَّحن. كويتي؟ إيه. قبض الضابط على جهازه اللاسلكي وأطلق خبر ضياع مشاري. شعر فيصل بأن الخبر يرتجعُ داخل صدرهِ ويتردّد بلا انتهاء؛ طفلٌ كويتي عُمره سبع سنوات يرتدي بلوزة برتقالية لديه شامة على رقبته. لم يذكر الغمازة، ولا لون البنطلون، ولا السن الناقصة. والأهمّ أنه لم يُشِر إلى ضآلة ابنه الذي يحسبه الناظر في خامستِه. لقد غيّب الكثير من التفاصيل التي تجعلُ مشاري على ما هو عليهِ. البنطلون بيج! قال فيصل مؤكدًا. إن شاء الله خير. خير؟ الله يعين، رجالنا على جميع المنافذ، إذا رآه أحد سنبلغك، أعطني رقمك وعُدْ إلى المكان الذي فقدته فيه. لا تضيّع وقتك هنا، واصِل البحث. تلكأ قبل أن يسأل؛ ألن تشكّلوا فرق بحث؟ نظر إليه الضابط يكتم ابتسامته؛ فرق بحث؟ أصر فيصل؛ ولدي ضاع! رفع الرجل كتفيه. لدينا أكثر من ثلاثة ملايين حاج يا حاج.. لم يكمل الرّجل. كيف يسعكَ أن تسألَ المحيط عن قطرة؟ ثلاثة ملايين حاج وطفلٌ ضائع.

إنهم يضيعون طوال الوقت، أطفال وشيوخٌ ونساء. ما الذي يجعله مختلفًا؟ ما الذي يريده؟ أن يكفَّ الطّوفان عن الطَّواف؟

تسمّر فيصل في مكانه، عيناه ذاهلتان، يكاد لا يصدّق ما يسمع. وولدي؟ هزّ الضابط رأسه آسفًا:

دوّر عليه. لا تضيّع وقت زيادة. إذا شافه واحد من رجالنا حنبلّغك على طول.

أعطى فيصل للضابط رقمه الهاتفي، ثم استدار يركض بعيدًا، ركض غير مصدّق، أنَّ عليهِ أن يجابه كل هذا الجحيم وحده.

مكة. الحرم الشريف

7 ذي الحجة، 1431

5:02 مساءً

أثناء عَدْوه، سَقَط الإحرامُ عن كتفهِ. تركهُ على الأرضِ وواصل الركض، عاري الصدر. يلسعه باطن فخذيه مع كل خطوة، العـــرقُ يتصبّبُ من جبينه وراحتيه. جهاز الآيفون في يدِه، مشـــاري علـــى خلفية الشاشة، في زيّ الرّجل الوطواط، يقحمُ وجهـــه في وجـــوه الحجّاج؛ ولدي ضاع! هل رأيت ولدي؟

في تلك الأثناء كانت سُميّة قد أتّمت طواف سبعة عشر شـــوطًا، وبدأت تشعر بأن ساقيها ستنفصلانِ عن جسدها وتواصلان الطَّـــوافَ إلى الأبد. سميّة تمشي في دوائر سرمدية تبحث عن مشاري الـــذي ذاب في الزحام. تأمل أن تعثر عليهِ في المكان الذي فقدتــه فيـــهِ؛ أن تجـــده يطوفُ، بوفاء، حول النقطة ذاتها. رفعت يـــديها إلى السّـــماء عاليًـــا وصاحت: يا رب! أَسحبُ كل ما قلته، فقط أعِد لي ولدي! تضـــمّخ وجهها بالدمع والعرق. الصحة، والمال، وترقية ترجوها لفيصل، وطفـــلٌ ثانٍ بعد أربعة إجهاضات.. ما عادت تريد شيئًا. بين لحظـــةٍ وأخـــرى كانت تتفحّصُ الهاتف في يدها، تأمل أن يرن، أن تسمع صوته يناديها؛ ماما؟ أن يدلّها على المكان الذي ينتظرها فيه، وينتهي كلّ هذا الرُّعب.

بعد خمس ساعاتٍ أصبح الخوف أكثر توحّشًا؛ لماذا لم يتّصل؟ مشاري يعرف أرقامنا. ماذا حلّ بولدي؟ تهاوت علـــى ركبتيهـــا،

كادت تدهسُها الحشود؛ مئات الآلاف من الطائفين العابدين السائحين السابحين الذاهلين السادرين في غياهبِ المجد الإلهي. جثمت على الأرض، غطّت رأسها بساعديها، أحسّت بالرخام البارد يلامس جبينها؛ *أنخنا مطايانا ببابك*.. حطّت قدمٌ ثقيلةٌ على فخذها وداست أخرى كتفها الأيمن. أغمضت عينين مليئتين بالدّمع: يا رب! شعرت بيدين ترفعاها من أسفل إبطيها وتسحباها إلى خارج الزحام.

أجهشت سمية عندما وجدت نفسها جاثية على الدرج الرخامي الأبيض، وثمة امرأة مصرية متينة الجذعِ تهزّها من كتفيها وتوجّه لخديْها ضرباتٍ خفيفة. لم يتصل. ما الذي حدث له لكيلا يتّصل؟ صاحت بها المرأة: مالك يا حاجة؟ صارت تلهجُ: مشاري، يا رب، ولدي! السيِّدة تهزّ سمية من كتفيها، سمية تتداعى في متوالية انهيارات. إنتي جاية مع حد؟ مع زوجي. ولم تستطع أن تضيف: وولدي.

عضّت سمية على شفتيها واعتصرت وجهها نوبة بكاء. فينه جوزك؟ سمية لا ترد، ترفعُ المرأة صوتها: فينه جوزك؟! سمية تريحُ جبينها على الدّرَجِ الرّخامي وتنتحب؛ هل سيضيع ولدي في بيتك يا الله؟ كانت تدفنُ وجهها في حقيبتها وتنتحب. ارتبكت السيدة. فهذه المرأة المليئة بالهذيان لا تسمعها ولا تراها. هرولت إلى برّادة زمزم القريبة وعادت تحمل الماء في كأس بلاستيكي، غسلت به وجه سمية وهي تُبسملُ. تحوّلت سمية من البكاء إلى الجؤار. عندما انتبه فيصل إلى مكان زوجه، وجدَ أن بضعة رجال يتحلّقون حولها. رجلٌ بلحية حمراء وعصًا كان يهش عليها مردّدًا "لعن الله المرأة النائحة! لعن الله المرأة النائحة!". كانت سميّة ترفس بقدميها، مثل ذبيحة.

عندما نتأ وجه فيصل بين الوجوه التي تراكم بعضها فوق بعضٍ للتفرج على المرأة النائحة، وقرأت سمية في ملامحهِ ألا أثر للولد، بعد مرور أكثر من خمس ساعات، صارت تلطمُ وجهها، تعض يدها، وتضربُ فخذيها وهي تردّد: راح مشاري! راح! ولدي راح!
اخترق فيصل الأجساد وقبض على ذراع امرأته ينهضُها.

خلاص سمّية! هدّي نفسك، مو وقته تبكين!

سالت الدموع على خدّيها المكتنزين، المتعرّقين. رفعت إليه عينين حمراوين، واسعتين:

ليش ما اتّصل فيصل؟ مشاري يعرف أرقامنا..

قال يؤمّلُ نفسه:

يمكن نسى!

مشاري ينسى؟ ما تعرف ولدك؟

يمكن رجع الفندق.

مستحيل!

يمكن طاح غشيان وأخذته الإسعاف!

هزَّت رأسها وكفكفت دموعها؛ كلامٌ معقول! نهضت فورًا لتكمل البحث وقد امتلأ قلبها بأملٍ مباغت. أدهشها أنّها لم تفكّر بالأمرِ قبل اللحظة؛ أن الصَّغير فاقد الوعي في غرفةِ إسعافاتٍ أوليّة. لا يمكن أن يكون في الحرم، فلو كان هنا لاستعار هاتفًا من أحدهم واتّصل. مشاري غائبٌ على الوعي في مستشفى، وبمجرد أن يستيقظ، سوف يطلب من المسعفين الاتصال بوالده.

مشاري يحفظ الرّقم جيّدًا، مشاري يجيد التصرّف.

مكة. الحرم الشريف

7 ذي الحجة، 1431

6:11 مساءً

"ربّنا يدخّلك الجنة، ربّنا يدخّلك من أبواب الجنّة"

طفلة سوداء بذراعٍ واحدة، تمدُّ يدها نحو سميّة، تحمل كأساً بلاستيكية بيضاء. أحسَّ فيصل بقلبِه ينقبض، وهو يرى طرف الذراعِ المبتورة؛ نصف ذراع سوداء هزيلة، مدببة، تخترقُه مثل نصل. بدت في السادسة، ترتدي نعلاً مطاطية زرقاء وبلوزة ورديّة كابية، نتأت من رأسها عشرات الضفائر الصغيرة. كانت تحملقُ فيه بعينين كحيلتين، كبيرتين، عميقتيِ السواد. "ربنا يدخلك من أبواب الجنّة!" صوتُها نحيل، إلحاحها يجرحه، تحدّق في الحقيبة المعلقة على كتفِ سميّة. "أعطيني ريال يا خالة"، فتحت سميّة حقيبتها، أخرجت سجادة صلاتها الخضراء، مصحفها المغلف بمخملٍ بنفسجي، وكيس نايلون يحوي حذاءها ونعل مشاري؛ نعل "كروكس" سوداء بعلامة صفراء تحمل شعار الرجل الوطواط. ارتجف ذقنها وزمّت شفتيها. أدخلت يدها في قاعِ الحقيبة واستخرجت عشرة ريالات، وضعتها في الكأس بيدٍ ترتجف. قبض على ساعدِ امرأته وسحبها بعيدًا عن سطوةِ الطفلة السوداء وذراعها المبتورة وعينيها السوداوين، كأنّما يحاول إخراجها من جملة الهواجس التي دبّت في رأسِهِ وهو يرى الريالات العشرة تستقرُّ في قاعِ الكأس. سارا صامتينِ، باتجاهِ بوابة الملك فهد. كان

الظلام قد خيّم على المكان. رفع فيصل عينيه ورأى رحيل آخر خيوط الضوء. الشمس غابت ومشاري، أيضًا، غائب. توقف أمام رهطٍ من العساكر، أخرج هاتفه من حزامه الجلدي وعرض، مرة ثانية، صورة مشاري.

الله يرضى عليك. ما فيه أخبار عن ولدي؟

نظرَ إليه الضابط وكأنه لا يفهم.

لسّه ما لقيتوه؟

شعر بقواهُ تخور، اختنق بغصّته: لا والله ما لقيناه. أدار الضابط ظهره لفيصل، وشوش في جهازه اللاسلكي، عاد بوجهٍ فارغ: ما في شي والله يا بو مشاري. الوجوه تغيمُ، العالم يغيبُ في غبشٍ قهريّ، انكسرت عيناه في عينيّ الضابط يسأله: طيب والعمل؟ كانت ركبتاه بالكادِ تحملانه. أردف الضابط: شكّل مجاميع بحث، انشر صورته بالإنترنت، راجع المستشفيات، بلّغ السفارة.. صمت لحظة ثم استدرك: إنت جاي مع حملة؟

أنا مسجّل مع حملة بس جاي لحالي.

عقد الضابط حاجبيه مشفقًا.

تحتاج ناس تساعدك يا أبو مشاري.

التفت فيصل إلى سميّة، تتردّد نظراتها بين الرّجل وبينه: أم مشاري! ازدردَ ريقه يخبرها:

- راح أبلّغ أهلنا في الكويت.

ترقرق الدّمع في عينيها.

فيصل أنا خايفة..

- وأنا خايف.

تبادلا النظر. وأيقنا بأن ما حدث لهما، ما يحدث لهما، هو أمرٌ أكبر وأعظم من يتغلبا عليه وحيديْن. كانا كـالغريقينِ في طوفـانِ الأجساد البشرية الذي ماجت بهِ مكّة. كانا بحاجةٍ إلى إنقاذ.

أخرج فيصل هاتفه من جيبه، وشرعت أصابعه تتصل بالشخص الوحيد الذي خطر بباله؛ الشخص الوحيد الممكن. بمجرّد أن أتـاه صوت شقيقه حتى فقد قوته جميعها. خرّ على ركبتيهِ ينتحبَ:

سعود! إلحق أخوك يا سعود. إلحق أخوك..

مكة. مستشفى أجياد لحالات الطوارئ

7 ذي الحجة، 1431

6:50 مساءً

كابدَ الاثنان أمواجًا من الحجّاج وهما يغـادرانِ الحـرم. عنـد اقترابهما من مغاسل حمّام الرجال في السّاحة، علقا بين آلاف الأجساد المتسمّرة وقوفًا. سمية تردّد؛ الله يرضى عليك! الله يرضى عليك! احتنـا مستعجلين. سميّة تريدُ العبور. ينظرون إليها مندهشين؛ العبور إلى أين؟ على ماذا؟ لم تعد هناك أرضٌ للمشي. شدّها فيصل من يدها محـاولا النفاذَ بها خارج الزحام. دفع الرجال عن يمينه وشمالِه، سقط العشرات، تعالى صراخٌ وصياح. لحقت به شتيمة. يا ويلَكم مـن رب العـالمين! أحدهم يتوعّده. واصل السّير، بعنادٍ، قابضًا علـى امرأتـه، دون أن يلتفت للفوضى التي تسببّها. سار الاثنان بمحاذاةِ الأبراج، وساعة البرجِ تشعّ خضراء، تشيرُ إلى السادسة والخمسين دقيقة.

انعطفا يمينًا، وجدا ممرًّا يهبط بهما إلى سوق سُفلي. على الجدار لافتةٌ كتب عليها "مدخل أسواق أبراج الصفوة" و"مستشفى أجيـاد لحالات الطوارئ" توقفا عند أقرب متجرٍ للثياب، أشار فيصـل إلى القمصان المعلقة على واجهة المتجر

عطني قميص وبنطلون.

رمقهُ البائع:

أيّ قميص يا حاج؟

ردّ بنفادِ صبر:

أيّ قميص!

ناوله البائع قميصًا أبيض وبنطلونًا رماديًا، وبكلّ الدهشة راقبه يباعد ما بين ساقيه ليرتدي البنطلون أسفل إحرامِه. كان الجلد في باطنِ فخذيه قد تسلّخ. فكّ الكلاليب المثبّتة على وسطِه وكوّم الإحرام عند الجدار القريب. حوْقل البائع؛ لا يجوز يا حاج. أطبقَ فيصل أزرار قميصه دون أن يرفع عينيهِ، ثمّ أخرج من جيبهِ ورقة مئة ريال وسلّمها للرجل. رفع البائع يديهِ في الهواء: أعوذ بالله! ما تبي فلوسك؟ لوّح البائع بسبابته في وجهِ فيصل: "وأتمّوا الحجَّ والعُمرة لله" أشاح فيصل بوجهه. لا أستطيع.

لحظات وصدحت المآذن بأذانِ العشاء، تردّد النّداءُ في السماء وأرجعته عشراتُ الأصداء؛ حي على الصلاة. أُغلقت المتاجر، هرعت الجموعُ باتجاه الحرم. نظر إلى ساعةِ معصمه، السابعة وعشر دقائق. كل لحظةٍ تمرُّ تفاقم رعبه. فاتتنا الصلوات! همست سميّة بقلق. شعر بأن ملاحظتها بلا معنى. باغته ألمٌ في أحشائهِ، وفي لحظةٍ سقطَ على ركبتيهِ وتدفق السائل الكاوي من أعماقِه، لزجًا وأصفر.

شفيك فيصل؟ إنت مريض؟

لا

رفع رأسهُ ومسحَ فمه بطرف قميصه. تعالي. سارا بين صفّيْنِ من المتاجر تزاحمت على طاولاتها أقلام الكحل وقلامات الأظافر والمقصّات، سبحات ملوّنة، مسكٌ جاف، ملاقط معدنية، سلال فضة مدلاة في نهاياتها قلوب زجاجية خضراء، خواتم فضية. كانت رائحة الحنّاء تتضوّع في الهواء.

في نهاية السوق انتهيا إلى بوابةٍ زجاجيّة كُتب على واجهتها: مستشفى أجياد لحالات الطوارئ. كان رجل الأمن يقف عند البوابة؛ رجل أسود، هزيل، منفوش الشعر، يرتدي كمّامة بيضاء. همّ فيصل بالدخول، اعترضه الرجل: عندكم حالة طوارئ؟ أبعد فيصل ذراع الرجل عنه: ولدي مفقود. أزاح الرجل جسدهُ عن الطريق.

دخلا إلى بهوٍ رخاميّ، طاولة استقبال دائرية يجلس خلفها ثلاثة رجال، كراسٍ معدنية لصيقة بالجدرانِ تزاحم عليها الناس. غص المكان بمئاتٍ ومئاتٍ من الحجّاج، ضحايا ضربات الشمس، وإصابات التدافع. نقّالات الإسعاف تقطعُ الممراتِ ذهابًا وإيابًا. بصعوبةٍ اخترق الاثنان كتلة الأجساد في البهو، رفع فيصل يده عاليًا بجهاز الآيفون، وصورة مشاري على واجهته. ولدي ضاع! ولدي ضاع! دفع الرّجلين عن يمينه حتى وصل إلى المنصّة، لاهثًا، وقد تزاحم العرق على جبينه.

الله يرضى عليك! هذا ولدي، ضيّعناه في الحرم.. يمكن أغمى عليه، وعيال الحلال جابوه عندكم.

طقطق موظف الاستقبال بأصابعه على لوحةِ المفاتيح. هزّ رأسه نفيًا. عندنا طفل مجهول، عمره ثلاث سنوات. الإسعاف تصل بعد قليل وفيها مريض مغمى عليه في الحرم. البلاغ يقول بأنه في العاشرة. هز فيصل رأسه؛ لا يمكن. ولدي يبدو في السادسة أو الخامسة. أشار بيده إلى منتصف فخذه؛ "مشاري قصير.. ما فيه طول زايد" وشعر بأن ضآلة حجم ولده تزيد من فداحةِ المأساة. هل توجد مستشفيات أخرى؟ طبعًا، مستشفى النور التخصّصي، ومستشفى الملك عبد

العزيز.. توجد مستشفيات كثيرة ولكنّ حالات الطوارئ من الحرم تردنا هنا. تحشرج صوته:

أخوي. الله يرضى عليك. أكيد فيه طريقة تتصل بالمستشفيات وتستفسر عن الموضوع.

اختنق بدموعِه، بلع ريقه بصعوبة:

ساعدنا الله يساعدك.

نظرَ الرّجل إلى عيني فيصل الحمراوين، زفرَ، أشار له كي ينتظر لبعض الوقت: استريح شويّه. شكر فيصل الرجل، ثم ابتعد عن طاولة الاستقبال، جلس على الأرض مستندًا إلى الجدار، على يمينه امرأته، ينتظران أن يجري موظف الاستقبال جميع الاتصالات الممكنة للبحث عن طفل كويتي عمره سبع سنوات، لديه شامة في عنقه وثغرة في أسنانه الأمامية، فُقد في الحرم منذ أكثر من سبع ساعات.

رنَّ هاتفُ فيصل؛ زملاؤه في العمل يتّصلون به، أبناء عمومته، ابنة خاله، جاره المحامي، خالته، مدير الإدارة، الوكيل المساعد، صديقه الصُّحفي، مدرّسة ولده الأمريكية، أمّه، أمّه، أمّه.

ماني رادّ على أحد.

قال بحسم.

إذا مو رقم مجهول.. ماني راد.

كان ينتظرُ اتصالاً من رقمٍ مجهول، سعودي على الأرجح، يسمع منه صوت ولده يناديه؛ بابا؟ ليعود كلّ شيءٍ على ما يرام. لم يكن مستعدًّا لتلقي اتصالات المتعاطفين والقلقين والفضوليين.

هزت سميّة رأسها موافقة. أسندت رأسها إلى الجدار تبتهل؛ اللهم يا جامعَ النّاس.. ساد صمتٌ مليء بالضجيج. صياحُ المراجعين

في هو المستشفى، صراخ رضَّع، بكاء أطفال، نداءات رجال، صرير عجلات نقّالات المرضى، سعال، عشراتُ الرسائل النصية والتنبيهات من مواقع التواصل الاجتماعي؛ أقارب، أصدقاء، زملاء عمل، مجهولين متعاطفين على تويتر وفيسبوك؛ موجة دعاء طوفانية تجتاح الانترنت. انتشرت صورة الصغير في الهواتف، صورة من هاتفِ سعود، حيث مشاري يرتدي بلوزته الحمراء الفيراري، واقفًا في حوشِ البيت، على بساطِ الثيّل، أمام السور المعدني الأخضر الذي تتسلّقه شجيرات الجهنّمية فاقعة الحُمرة. اختنقت سميّة بغصّتها؛ يا حبيبي! كتب في أسفل الصورة اسمه الكامل وهاتفِ سعود. مشاري فيصل السّفار، طفل كويتي عمره سبع سنوات مفقود في الحرم، على من يجده أن يتّصل على هذا الرّقم، انشر تؤجر. كان الناس يتداولون الصورة فيما بينهم مردّدين. كثفوا الدّعاء! ساعة استجابة! الله يعين أهله، الله يصبّر أمّيمته.. اغرورقت عينا سميّة بالدموع وهي ترى طوفان الأدعية ينهمر في هاتفها. همست فجأة:

لازم نصلّي.

نظر إليها فيصل رافعًا حاجبيه:

نصلّي؟

إي! نصلّي وندعي، بدال النَّطْرَة، چود ربّك يستجيب، وإحنا بشهر فضيل..

أشاح بوجهه. خرج صوته باردًا:

صلّي.

وإنت؟

- أنا شنو؟

ما راح تصلّي؟

لم يكد يفتح فمه حتى جاشت معدته، وتدفقت السوائل الكاوية من داخله إلى أرضية المستشفى. انحنى بجذعه على أسطوانة القمامة القريبة وتقيّأ كمن يلفظ أمعاءه، هرع عامل النظافة يمده بالمناديل..

علامك فيصل؟ إنت مريض؟

مسح فمه بالمنديل وهو يردّ بضيق:

لا

أعادَ رأسه إلى الوراء متكئا على الجدار، ترى ما الذي يحصلُ له؟ إنها المرّة الثانية.

متأكد إنك زين؟

أومأ.

أسندت راحتها على كتفهِ ونهضت من مكانها. ذهبت تبحث عن مصلّى النساء. رآها تختفي في نهايةِ الممر وغمره غثيانٌ غير مفهوم.

مكة. مستشفى أجياد لحالات الطوارئ

7 ذي الحجة، 1431

8:32 ليلاً

كانت ركبتُها تهتزّ، وشفتاها تلهجان بدعاء مهموس؛ اللّهم يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لما تريد.. وضع فيصل يدُه على ركبتها يثبتها؛ لو سمحتِ سميّة! كانت تُفقده صوابه. تلك الاهتزازات، والأدعية المهموسة التي تبدّدها في الهواء؛ أسألك اللهم باسمك الأعظم، الذي إذا دعيت بهِ أجبت، وإذا سئلتَ بهِ أعطيتْ.. كلّ شيءٍ كان يخنقه.

تبرّمت:

أنا مو مرتاحة فيصل، أخاف إنه ليلحين في الحرم.

إذا ليلحين في الحرم وينه ما اتّصل؟

يمكن الاتصالات ما توصل، ضغط على الشّبكات، زحمة!

بس التليفون ما وقّف سميّة.. الشّبكة شغّالة!

صمتت لحظةً ثم قالت:

طيّب أنا أدوره في الحرم، وإنت دوره في المستشفى..

نهضت من فورِها، متجهة صوب البوابة، مغادِرة. شعر بالخفّة وهو يراها تختفي. تذهب وتأخذ معها جيوش ابتهالاتها؛ يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.. بحث في داخِله عن ذلك الشيء الذي طالما افترض

وجوده، الشيء الذي يجعل سميّة تلهج وتلحّ في الدعاء. لم يجده، لم يجد شيئا.

نظر إلى ساعةِ معصمِه؛ تجاوزت الثامنة والنصف. رسالة نصيّة من سعود:

"وصلت الرياض

كتب يسأله:

"متى رِحلة جدة؟"

"بعد ساعتين"

رأى الاهتزاز ينتابُ ركبتيهِ هذه المرّة، والرّعشة تزحفُ إلى أطرافِ أصابعه. لا يدري لماذا يفكر باليد السوداء المبتورة، تخترقُ صدرهُ مثل مُدية. لمح موظّف الاستقبال يومئ لهُ للاقتراب. هرعَ إليه: بشّر ياخوي؟ طمّني! بدا على الرجل الإعياء وهو يعطيه الإجابة التي انتظرها طويلاً؛ يا حاج، اتصلنا على الكل، ما فيه طفل بمواصفات ولدك. أحس بقلبهِ يهوي، وبركبتيه تخوران. ماذا الآن؟ الموقفُ يغلبه. يحتاجُ معطيات، أدلة، شيء يتصدّى به لكلّ هذا التّيه. رأى الرجل يستدرك بحذر؛ لكن.. سكت برهة. نظر إليه يستحثه على القول:

لكن؟

فيه جثمان.

جثمان؟

طفل مجهول، عمره سبع أو ثمان سنوات، مدهوس في الحرم..

أعاد السؤال كأنّه لا يفهم:

جثمان؟

مكة. مستشفى أجياد لحالات الطوارئ

7 ذي الحجة، 1431

9:10 ليلاً

أخبرهُ موظّف الاستقبال بأنّ أحد الأولاد عبث بسيّارة النظافة مستغلاً غفلة العُمّال. قاد السيّارة متسبّبًا في دَهس امرأتين وطفل. وحدهُ الطفل توفي؛ صبي في السابعة أو الثامنة من عُمره. كان يقفُ وحيدًا، لم يعثر أحدٌ على أهلِه.

هزّ فيصل رأسه في طريقه إلى ثلاجة الموتى. مستحيل! مشاري ضئيل! تداعت في رأسِ صنوف الألقاب التي حازها ولده بفضل ضآلته؛ جدّته تسمّيه "الدّقمة"، خالاته يسمّونه "زبّوط النقعة"، سعود يسمّيه "النّتفة"، مشاري ضئيل، لا يمكن أن يبدو في السابعة، حتى لو كان هذا عمُره الحقيقي. لا يمكن.

أحس فيصل بالبردِ يخترقُ مسامه، نافذًا إلى قلبه، وهو يدلفُ ثلاجة الموتى. ثلاجة معدنية عملاقة ذات جوارير. سحب الرّجل أحدها فامتدّ اللسان المعدني، وعلى سطحِهِ كان الجسد الضئيل ملفوفًا بالبياض. أحس فيصل بألمٍ ينغز قلبه، اقترب خطوة، قلبهُ يخبطُ بجنون. لاحظ أن الجثمان داخل الكيس أطول من ولده بشبرٍ تقريبًا، تنفس الصعداء؛ ليس ولدي.

راقب الرجل يقتربُ من جهة الرأس، يكشف الغطاء عن وجهِ الصغير. كانوا قد وضعوا على فمِه وأنفهِ قطعة من القطنِ الأبيض.

رفع الرّجل القطن عن نصفِ الوجه؛ كـان مسـحوقًا بالكامِـل، مسطّحًا، مزرقًا، ملطّخًا بالبقع السوداء. لقـد داسـت العجـلاتُ وجهه. أوضح الطبيب. حتى لو كان ولده، لـن يعرفـه، لـولا أن لمشاري شعرًا أسود، وشعر هذا الصبي بنيٌّ مشقر، ولا أثر لشامةٍ على رقبتِه، ولا حتى نصف شامة.

زفرَ؛ هذا ليس ولدي! أشاح عن الجثمـانِ، دفـن وجهـه في ذراعِه يحاول التصدّي لدموعه. لم يكن يدري؛ هل كان يبكي ألمًـا على الصبي الذي مات بهذه القسوة، أم تراه يبكي سعيدًا لأنه لـيس ولده؟ اخترقه شعورٌ مزدوج، مزيجٌ من الكـدرِ والفـرح، شـطرهُ نصفيْن.

هَمّ الرجل بتغطية الجثمان، أحس فيصل بمعدته تتقلّص. أشـاح بوجهه. جلس على الأرضِ وأراح ظهره إلى الجدارِ يمسـح عينيـه بطرف بلوزته. راقب الرجل يغطّي وجه الصبي بالقماشِ الأبيض. غدًا يجيئون به ملفوفا بقماشٍ أخضر؛ الصلاة على الطّفل يـرحمكم الله! تتردّد التكبيرات الأربعة بصوتِ إمام الحرم، وتلهج شفاه الملايـين: اللهمّ لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده.

قال الرّجل بأن الصبي يرقد في الثلاجة منذ العصر، وأنَّ أحـدًا غيره لم يبلّغ عن اختفاء طفله. الأرجح أن أهله ما زالـوا يجوبـون ممرات وصالات الحرم بحثا عنه. يجب ألا يُترك الأطفال بلا رقيـب. غمغم الرّجل. في اللحظة التي يذهب فيها ابنك لإحضار كوب مـاء زمزم، يمكن أن يحدث له أيّ شيء، أيّ شيء! كان منفعلا؛ من حقّ الأموات أن يدفنوا بسرعة. هز رأسه آسفا. ثم التفت ناحية فيصـل وأردف؛ إن شا الله تلاقي ابنك قريب.

نهض فيصل من مكانه وهمَّ يغادر. نظر إلى ساعة يده؛ تسع ساعات على اختفائه. أحس باحتشادِ الذعر في صدره. ظلت كلمات الرّجل ترتجعُ في داخله؛ يمكن أن يحدث له أيّ شيء! ترى، ما الذي حدث له خلال تسع ساعات؟ حث خطوه للمغادرة، يريدُ أن يخرج نافرًا إلى شعابِ مكة، أن يمشّطها شبرًا بعد شبر. ولأوّل مرةٍ وجد نفسه يسأل؛ هل أَخطأنا يوم أحضرناه معنا؟ هل أخطأنا؟ خاطري مشاري يشوف الكعبة! قالت سميّة، لم يشأ ألا يطيّب خاطرها؛ هل طاب؟

مكة. مركز رعاية الأطفال التائهين

7 ذي الحجة، 1431

10:42 ليلاً

سأله الرَّجل إن كان قد بحث في مركز رعاية الأطفال التائهين. رفع فيصل حاجبيه؛ رعاية التائهين؟ أومأ الرّجل. إنه المكان الأول الذي يجدرُ بك البحث فيه. سارا متحاذيين في الممر. امتلأ قلبه بأملٍ مباغت، لماذا لم يخبره أحدٌ عن هذا المركز من قبل؟ قال الرّجل؛ يوجد أكثر من مئة طفل تائهٍ في الحرمِ يوميًا، المركز هو المكان الذي يجمعونهم فيه. وأين هو؟ ليس بعيدًا، إنه يطلٌّ على ساحةِ الحرم.

أطلق فيصل قدميهِ للرّكض، لوهلةٍ أوشك أن يبتسم، ثم ما لبث أن اخترقهُ السؤال. إذا كان مشاري في مركز مخصّص لرعاية الأطفال التائهين، فلماذا لم يتّصل؟ عرفَ بأنه لن يجده هناك أيضًا، ولكنه مع ذلك ذهَب.

عندما وصل إلى المركز، رأى فتاة عشرينية بزيّ الكشّافة تناولُ أسرة آسيوية بعض الأساورِ البلاستيكية الملوّنة، تشرح لهم؛ تدوّنون على السّوار أسماءكم وعناوينكم وتلبسونها لأطفالكم. ضاقَ قلبه. ما الجدوى؟ والورقة التي وضعها في جيب مشاري؟ دوّن فيها اسمه، رقمه، عنوان السّكن، وحتى فصيلة دمه. أين هو ولماذا لم يتّصل؟

بمجرّد أن فرغت المرأة من عملها التفتت إليه. أخبرها بأنّه أضاع ولده. قالت اتبعني. سار وراءها إلى غرفةِ انتظار الأطفال؛

مسح بعينين حزينتين وجوه عشرات الأطفال الذين ينتظرون في قاعة مليئة باللُّعب، والألوان الخشبية، وعلب العصير، وقناني اللبن. تسمّر أكثرهم أمام شاشة بلازما تعرض فيلما كرتونيا لفيلٍ يتوجّـــه لهــدمِ الكعبة. تفحّصهم فيصل، طفلاً بعد آخر. أعينهم المحمرّة ومحـــاجرهم المحتقنة من فرطِ البكاء. بعضهم نسي خوفه وانهمك في اللّعب. رفــع صوته ينادي: مشاري! مشاري! مشاري فيصل السّفار! لم يلتفــت أحد.

رافقتهُ الفتاة إلى خارج الغرفة. في الممرّ أخبرته بـــأنهم، بمجـــرد مجيء طفل جديد، يقومون بتدوين اسمه وعمره وجنسيته وإخطـــار الجهات الأمنية بشأنه. ما هي مواصفات ولدك؟ وجد نفسهُ يفـــتح فمه بشكلٍ آليّ؛ صبـــي في السابعة، شعرٌ أسود، غرة كثيفة، شـــامةٌ في الرقبة، فراغٌ في الأسنان الأمامية، يرتدي بلوزة برتقالية وبنطلـــون بيج، يبدو في الخامسة رغم أنّه في السابعة.. دوّنت المواصـــفات في ورقة؛ إذا جاء ولد بمواصفاته سنتّصل بك فورًا. أحس بنفسه يختنق. نظرت إليه مشفقة:

يا ربّ تلاقوه قريب.

غادر بعد أن تركَ اسمه ورقم هاتِفِه. وجد نفسهُ خارج المركـــز يحملقُ في المكان، كانت المآذن الشاهقة تخترقُ سواد الليل الذي أطبق بصدرهِ على وجهِ مكّة. قلّب وجهه في السماء، كان صمتها يـــدوّي في أذنيه، همس:

- وينك؟

مكة. برج هاجر

7 ذي الحجة، 1431

11:45 ليلاً

عادَ إلى غرفته الفندقيّة في برج هاجر، ركض مخترقًا بهو الفندق الرخاميّ، تغمرهُ روائح البخور والقهوة والهيل. الأيادي السّوداء تمتدّ نحوهُ بالتّمر السُّكري، يدفعهم برعونة، يهرولُ إلى السوق، باتجاه المصاعد، يدلف أقربها؛ الدور الرابع عشر، ينفتحُ الباب، يخرج لاعنًا، يلعن الهاتف الذي انطفأ، يلعن شاحن الكهرباء، يلعن التكنولوجيا وحاجتهُ المهينة إليها في ظرفهِ هذا. ماذا لو اتّصل مشاري وهاتفه مغلق؟

كيف تبحث من دون هاتف؟ وكيف تكفّ عن البحث بسبب هاتف؟ وولدك مفقودٌ في أرضٍ غريبة؛ بين ثلاثة ملايين حاج. الرسائل النصية التي تعاقبت طوال اليوم؛ أخوال وأعمام وجيران وأبناء عمومة، أصدقاء وزملاء عمل، صحفيون، ناشطون، نوّاب برلمان، مدوّنون، مشاهير تويتر لم تردّ إلا على اتّصالات المجهولين، وحتى هذه، خذلتكَ في النهاية. كل ما كان لديهم هو السؤال؛ لقيتوه؟ قلوبنا معاكم، أمّي تدعي لك، إذا احتجت شي.. لا تريدُ شيئا، تريد ألا ينطفئ جهازك اللّعين، ألا تضطر إلى المكوث بين جدرانِ غرفتك فيم ولدك الوحيد يزداد تعذّرًا، دقيقة بعد دقيقة، ساعة بعد ساعة.

جثا أمام الجهاز اللعين الموصّل بالكهرباء، ينتظرُ أن تدبّ فيهِ الحياة. أرخى جبينهُ على الجدار لدقيقة، أغمض، ثمّ راح يضرب رأسه بالجدار مرّةً بعد مرّةٍ. شعر بمكة تبتلعه، كأنه يخوض حتى ركبتيهِ في عصارات بطنِ التنين، عصاراتٍ كاوية تذيبهُ على مهل. العاصمة المقدّسة، الشهر الفضيل، أعظم أيّام السنة، ضيوف الرّحمن. كل شيءٍ يعرقلُ خطوه.

أضيئت شاشة الجهاز. رسالة من سعود:

"أي أخبار؟"

"لأ وينك؟"

جدّة"

ما زال صوته يملأ رأسه من مكالمتهما الأخيرة، عندما أجهش لسماعه؛ إلحق أخوك! بمجرّد أن عرف بأن الأمر يتعلّق بمشاري صار يردّد؛ أنا جايّك فيصل، أنا جايّك. رفاقه في الكويت تولّوا إدارة الموضوع في الانترنت. اتصالاتٌ تجري على قدمٍ وساق مع السّفارة في الرياض. متطوّعون من حملات كويتية وغير كويتية يشكّلون فرق بحث عن الصبي الذي.. كانت قائمة الاتصالات التي لم يُرَدّ عليها تموج بأرقامٍ كثيرة؛ مجهولة ومعلومة. سُميّة وحدها لم تتصل. كأنّه يراها، تطوف حول الكعبة، تذوبُ في طوفان الطائفين، تتمّ شوطها الأربعين، الخمسين، الـ.. النّاس تردّد؛ لبيك، لبيك. سمية تردّد؛ مشاري، مشاري.

دقائق ولمعت الشاشة برقمٍ سعوديّ يتصل به، أجاب. كان على الطرف الآخر صوت رجلٍ كويتيّ اللهجة، يسأله:

الأخ فيصل السّفار؟

إي نعم، من حضرتك؟

أنا السّكرتير الأوّل من السفارة في الرياض، استجد شي؟

خرج صوتُه مبحوحًا:

لأ. ما له أثر.

تنفرج بإذن الله، قوّ قلبك.

كيف لهُ أن..

اسمعني يا بومشاري..

صمت الرجل لحظةً ثم أردف، بعناية، كما لو أنّه يلقن فيصل كل كلمة:

أبيك تروح غرفة عمليات أمن الحرم.

غرفة عمليات؟

أردف الرّجل:

ايه. غرفة عمليات أمن الحرم، الجماعة ناطرينك.. بلغناهم إنك جاي. الحرم فيه أكثر من سبعمية كاميرا مراقبة، وأكثر من ثلاثين شاشة رصد. أكيد راح تعرف شي عن ولدك. كلّ المطلوب إنك تعطيهم آخر مكان كان فيه، والساعة والدقيقة بالضبط، والجماعة ما راح يقصرون..

اقتلع فيصل هاتفه من سلك الشاحن. خرج ركضًا.

يومٌ ثانٍ

مكة. غرفة عمليات أمن الحرم

8 ذي الحجة، 1431

12:52 بعد منتصف الليل

في شاشةِ المراقبة رأى فيصل كلّ شيء.

استغرق الأمرُ ساعتين من البحثِ في التسجيلات. أعادوا عرض التَّسجيل مرةً بعد مرة، دونما فائدة. لم يكن بالإمكانِ رؤيةُ طفلٍ في مثِل قامتِهِ بين كلِّ تلك الأجسادِ التي تُطبقُ على صدرِ المكان. بحث فيصل عن امرأتِهِ؛ امرأة بعباءة سوداء، مثل عشرات، مئاتُ الآلاف من النّساءِ اللواتي يرتدينَ العباءات السّود، يعبئن المشهد. تراقص بؤبؤاهُ يمنة ويُسرةً بحثًا عمّا يشيرُ إليه، إليها. الاختناقُ المروريُّ الذي وقعَ على مبعدةِ خطواتٍ قليلةٍ من الرّكن اليماني، المفروض أنها فقدتهُ هنا. وضع إصبعه على مكانِ تكالبِ الحجّاج، رأى فوج الأفارقة الذي ذكرته له سمية. السَّاعة الإلكترونية على الشاشة تشيرُ إلى 12:17 ظهرًا. هنا، هنا! أشارَ بيدِه. حَدَث كلّ شيءٍ هُنا. مسحَ المكانَ بعينيه، لا أثرَ للصبيّ، ولا لأمّهِ. غير ممكن! لا بدَّ وأنه هنا! مَسحَ العرق عن جبينهِ، أحس بأنفاسِهِ تتلاحق. مرّت ساعة مضنية من التحديق في الشاشة التي.. أحد الضبّاطِ يهتفُ؛ هذا ولد لابس

برتقالي! كان ذلك في شاشةٍ أخرى. نظرَ إليه الرّجل؛ مو هذا ولدك؟ نطَّ فيصل باتجاه الشاشة الثانية، رأى الصورة مثبّتة على الصبي الذي صار على الجانبِ الآخر من بقعة الاختناق. ولدي! ولدي! هتف فيصل، غير مصدّق أن ابنه قد مشى كل تلك المسافة، وحيدًا. أحس بجفافٍ في حلقهِ، طفرت الدموع من عينيه؛ الحمدُ لله! الحمد لله! أشار بإصبعه للولدِ في الشّاشة، يولّي ظهره للطائفين، يقوّس يديه حول فمِه ويصرخ. هتف بالضبّاط؛ هذا ولدي مشاري! هذا ولدي! قطّب حاجبيه؛ لماذا لم يساعده أحد؟ كان ولده هناك، يصرخ بأعلى صوته، بين ملايين الحجاج، دون أن يراه أحد. امرأة غريبة تقتربُ منه؛ متينة الجذع، سوداء القدمين، صلبة الساعدين، ترتدي قفّازين أبيضين وتغطّي وجهها بنقاب أسودٍ. امرأة ثانية اقتربت تسأله، تبادلت من الأولى كلمات، انصرفت. رأى السيدة المنقبة تحرّك يديها. رأى مشاري يبادلها الكلام. رأى المرأة تمسح على رأسه. رأى ولده يخرج ورقة من جيبهِ ويناولها إياها، رآها تمسكُ بيدهِ، وتسير بجانبه.

شعر بقلبه يدوّي، وامتلأ رأسهُ بطنينٍ غريب، وهو يلاحقُ، عبر الشاشة، المرأة التي تمسكُ بيد ابنه وتمشي معه. أحس بقلبهِ يسقط إلى تحت، تحت، في انحدارٍ كليٍّ إلى هاويةِ الرّعب. وضع يداه على رأسهِ مُبَحْلِقًا في الشاشة وهو يرى الاثنين يصعدان الدّرجات، يغادران الصّحن، يتجهان إلى الأمام، ثم ينعطفانِ تحت الدّرج. رأى ولده يشير إلى بوابة الفتح، المرأة تشيرُ إلى الدّرج.

الضباط يستبدلون الكاميرا. المكان الآن أسفل الدّرج، ورجل ذو بنجابي رمادي، ينامُ ملتحفا سجادة صلاته، لم ير شيئًا مما حدث.

لم ير المرأة تطبقُ بقفازها على وجهِ الصغير، لم ير الصغير يقاومُ، ينتفض ويرفسُ، ثم يسقطُ في النّوم، يهوي فتلتقطه يـــديّ الغريبـــة، تحمله تحت خمارها الأسود الطويل، تغطّي ربلتيَ ساقيه بجوربيـــهِ، ثمّ تخرج ببساطة، بين بضعةٍ من العساكِرِ الواقفين عند البوابة، كما أي أمٍ تحمل طفلها النائم بين ذراعيها، تنسلُّ خارج الحرم، بين ملايـــين الحجّاج، وكأنّها غير مرئية.

قبل أن يسقط فيصل على ركبتيهِ، ويـــرتطم رأســـه بـــالعمود المعدني، ويغيب عن الوعي، تدفقت الصُّورُ داخل رأسه تباعًا: جثمانٌ مزرق، جفنين سوداوين، إحرامٌ أبيض، حجرٌ أسود، أيدٍ مدمّاة، يـــدٌ مبتورة سوداء، لبّيك اللهم، قفازات بيضاء. أقـــدام ســـوداء، ربّنـــا يدخّلك الجنة، كفنٌ أبيض، قماشٌ أخضر. الصـــلاة علـــى الطفـــل يرحمكم الله، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده..

آمين.

الفصل الثاني

هَجير

مكة. قودن قدا، أو حوش بكر

7 ذي الحجة، 1431

1:32 ظهرًا

تمشي عكس الحشود، غير مرئية تقريبًا، تتغلغلُ في شعاب مكة الموغلة في المجهول؛ زقاقٌ بعد زقاق بعد زقاق. امرأةٌ منقبّة، لها كفلٌ راقص وساعدين قويين، تضمّ إلى صَدرها طفلاً نائما تحت خمارها الأسودِ الطويل، كأنّها تحميهِ من الشمسِ.

عندما بلغت السّاعة الواحدة والنّصف ظهرًا كانت روينا قد وصلت إلى سوق قودن قدا كما تسمّيه جماعتها، أو سوق حوش بكر كما يسمّيه الآخرون. سارت بمحاذاة السيارات المتجاورة والمحال المصنوعة من سطوح الخشب والمباسط وجدران الصفيح والطسوت المعبأة بالمسروقات المعروضة للبيْع. نساءٌ إفريقيات بخُمُرٍ ملوّنة تجمّعن حول البضائع، فتيانٌ بطاقيّات مطرّزة وفانيلات بيضاء وزنود عارية، صقيلة وسمراء، جلوس على العُلب والكراتين؛ قمصان رجالية وبيجامات مثبّتة على العربات، وسائد، كراسي، تلفزيونات، سجاد، هواتف، محافظ، سَكاكين سويسرية، زجاجات عطر، معلبات فول وفاصولياء، ساعات وأساور، تمر، لبن، حليبُ أطفال، بهارات، بطاقات هُويّة.. اختلطت في أَنفها رائحة شواء لحم "السيريه"، حموضةُ المراحيض، وصُنانِ الآباط. توقفت قليلاً لتتأكد بأنَّ جوربي الصَّغير يغطيان ربلتيّ ساقيه، استعادتْ شيئا من

أنفاسِها، ثمّ واصلت السير؛ مجرد امرأة مجهولة، متعبة، تحمـلُ ابنـها تحت خمارها لتحميهِ من الشَّمس.

غادرت روينا شارع المنصور، سارت عميقًا في الأزقة، توغّلت في الشرايين الهزيلة المنتشرة في جسدِ مكّة، ثم صار المشـيُ أصـعب عندما أخذت الأرض، أسفل قدميها، تصعدُ نحو الجبال. كان العرق يرشحُ من وجهها، ويبلّل نقابها، حتى تضوّعت منهُ رائحـة بحريـة، وفاحتْ من أدرانها حموضةٌ قديمة. صارت بالكادِ تتنفّس، وقد تشنّج فخذاها وتيبّست بطّتي ساقيها. وأخذ الشوكُ المنتشرُ في الأزقّة يجرح كعبيها.

بعد ساعة ونصف الساعةِ من المشيِ توقفت لتستريح. تلفّتـت يمنة ويُسرة، ولمّا تحقّقَت من خلوّ المكان من الناس بَسـطت جسـدَ الصغيرِ على التراب، استخرجت من حقيبتها سجادة صلاةٍ مخمليـة خضراء، وغطّت بها وجهه وساعديه، ثم عادت تمطُّ طرفي جوربيه إلى أعلى، وتشدّ طرفي بنطلونه إلى تحت. يجب ألا يلحـظ أحـدٌ لـون بشرته. ابتسمت، وهي تتخيّل ما سيقولهُ جرجس إذا علم بأنها قـد نفذت ما وعدت به.

أرخت نقابها وأخرجت من حقيبتها قنينة ماء زمـزم، شـربت شيئا منها وغسلت وجهها، أحسّت بملوحة شفتيْها. تملّت في الصبي النائم على الأرض، تغطّيه سجادةُ خضراء. وجدت نفسها تسـحبُ يده برفق وتتفحّص أظافره. إنها مقصوصة بشكلٍ جيّد. سرّها الأمر. لقد أخذت صبيًا مُهِمًّا، تحرصُ أمّهُ على قصِّ أظافره؛ إنـهُ جـوهرةٌ غالية. أعادت يدهُ إلى مكانها، بحرصٍ شـديد، غطّتـها بالسـجادةِ المخمليّة، كما يليق بجوهرةٍ غالية.

رفعت عينيها إلى قمةِ الجبلِ حيث ينتظرهـــا البقيّـــة. كانـــت الشمس شبه العمودية تلهبُ ظهرها. ابتسمت وهي تتذكّر نفســها؛ قبل عشرة سنوات، كانت تأخذ الأطفال من المخيّمـــات في شمـــال إثيوبيا، لتهريبهم إلى مكة وإطلاقهم للتسوّل. ثمّ أصبح الأمر أكثـــر صعوبة، عندما صارت سُلطات مكافحة التسوّل تلقي القبض علـــى الأطفال، تودعهم في ملاجئ، ثم تعيدهم إلى بلدانهم. ابتسمت؛ هـــي الآن تفعل العكس. تجلبُ الأطفال من مكّة، وتهرّبهم عبر الجنوب.

ألقت نظرة على جسدِ الصغير الممدّد تحت السجادة؛ من كـــان يصدّق أن يومًا سوف يأتي، تختطفُ فيه طفلاً كهذا؟ طفـــلاً فـــاتح اللون، بملابس زاهية وأظافر مقصوصة. دبَّ النشـــاطُ في جســـدها فجأة. رفعت السّجادة الخضراء عن جسد الصبي وطوتهـــا مـــرّتين، أعادتها إلى حقيبتها ثم انحنت على الصغيرِ تحمُله. نَم يا صـــغيري. نم يا حبيبـــي. كانت تمسحُ بيدها على مؤخرة رأسهِ، تتحسّس نعومـــة شعرهِ غير المعهودة، وتشعرُ بالانتشاء.

مكة. جبل الطّارقي

7 ذي الحجة، 1431

3:03 مساءً

على قمّة جبل الطّارقي، في ظهرِ بيتٍ مهجورٍ تقشّر الصّبغ الأبيض عن جدرانه، واحتجبت نوافذه الواسعة خلف الرّواشين الخشبية المتهالكة، كانت السَّيارة تنتظر؛ كابريس كلاسيك، طراز 1989، زرقاء واسعة.

كان عثمان يجلس شبه مضطجعٍ على الكرسيّ الأمامي، سيجارتهُ في فمِه، مُطفأة، وطاقيّة رأسِه تغطّي عينيه، وقد وجَّهَ فتحات التكييف كلّها إلى وجهه؛ وجهٌ داكنٌ، صغيرُ الأنفِ، بمنخرين كبيرين وعينين واسعتين. في المقعدِ الخلفي، جلست أدانيا وهاتي، وقد ارتخى نقابيْهما أسفل ذقنيهما، كاشفتين عن وجهين جائعين، ممصوصيْن. كان الحرُّ شديدًا، وقد اتسعت لطخات البللِ على الأظهر وتحت الآباط، وامتلأ الهواء برائحة الجلود المتعرّقة.

تأخرت روينا كثيرًا! تأفّفت أدانيا، مالت بجذعها لتلتقط علبة المناديل المرمية بين قدميها، لوّحت بها قرب وجهها. كانت حُبَيْبات العرق تندّي جبينها وأرنبة أنفها. مطَّت هاتي شفتيها؛ روينا تتأخّر دائمًا. ثمّ ابتسمت حتى بزغ اخضرار أسنانها، أدنت رأسها من صاحبتها همس؛ ليس سهلا على عجوز.. صعودُ الجبلِ مع طفل، وكلّ تلك المؤخرة! ضحكت أدانيا، كاشفة عن شفتين هما بدقّة

بحيث تختفيان بمجرّد أن تفتح فمها. ضربت كفَّها بكفٍّ الأخرى وهي تهزُّ رأسها؛ الطفل والمؤخرة! الطفل والمؤخّرة! أراحت هاتي رأسها على النافذة. مطّت ذراعيها وتثاءبت.

أحسَّت أدانيا بأنها محبوسة في فرن، عندما صوّبت الشمس أشعتها إلى نافذتها. وهذهِ العباءة! تأفّفت؛ إنها تطبخني من الدّاخل. أرادت أن تخرج من السَّيارة لكي تمشي، لولا أنَّ عثمان لا يسمح بهذه المخاطرة. أوجعها ظهرها من طول مدّة الجلوس، وغلبها العطش، ولكنها خشيت أن تمتلئ مثانتها، وتضطرّهم إلى التوقّف مرارًا، والطّريق إلى البيت يبعد سبع ساعات. كان لسانها جافًّا مثل خشبة. لقد مللتُ هذا الانتظار اليومي. أطرقت. لو أنني أتولى شئون البيت بدلاً من صالحة! الأمرُ لا يعودُ لكِ، قاطعتها هاتي. جرجس هو الذي يقرّر. برطمت. ولكن روينا.. أدنت رأسها من الأخرى همس: أقسم بأنها تتعمّد الأمر! كان بإمكانها أن تنجز الأمر منذ ساعات، ولكنها لم تفعل، إنها تنتقيهم كما تنتقي الأرز، وأنا وأنتِ نعرفُ بأن الأمر لا يستدعي كل هذا الـ.. هذا الـ.. ظلت الكلمة متعذرة. لا عليكِ. طبطبت الأخرى على كتفها. سينتهي الأمر قريبًا.

أفاق عثمان من غفوتِه، التفت إلى المرأتين: ألم تصل بعد؟ لا، لم تصل بعد. في تلك اللحظة سمعوا طرقاتٍ متتابعةٍ على سطح السيّارة. التفت الثلاثة يمينًا، كانت روينا تقف بجانب السيّارة، تتنفّسُ بالكاد، جبينها يلمعُ، وقد امتلأ نقابها ببقعٍ ملحيّة بيضاء. سألها عثمان؛ أين كنتِ روينا؟ اتسعت حدقتاها شزرًا: ما هذا السؤال؟ وأين يمكن أن أكون؟ نـزلَ ليفتح الصندوق، حيّاها بالأمهرية؛ سلام نِش. افتح

الصندوق! خبطت بيدها على سطح المركبة، تنادي المرأتين؛ انـزلا بسرعة، سينكسرُ ظهري! نـزلت المرأتان. وقفتا على يمين ويسـار روينا وعثمان لتشكيل غطاء. تلفّت عثمان حوله، ولما تحقّق من خلوّ المكان من العابرين، فتح صندوق السيّارة.

طفلتانِ سوداوان، غائبتانِ عن الوعي، تنامان في الصندوق منذ ثلاث ساعات. إحداهما بيدٍ واحدة. كان عثمان قد أحدث في سَطح الغطاء وجانبـي الصندوق ثقوبًا يتسلّل منها الهواء. نظرت روينا إلى الطفلتين، كان محجري عينيهما حمراوين، وقد تشكّلت قشرة زبـدٍ رقيقة على شفتيهما. همست؛ جهّزوا مكانًا للطفل. سحبت المرأتان الطفلتين إلى طرفي الصندوق، تاركتين فراغًا كافيًا بينـهما. برفـقٍ وضعت روينا الطفل الذي أحضرته؛ صبيٌّ أبيض، يرتـدي بلـوزة برتقالية وبنطلون بيج، له غرّةٌ كثيفة سوداء، وشامة كبيرة في عنقــه. **وي بي!** شهقت المرأتان. أسرع عثمان لإغلاق الغطاء وهو يتلفّــتُ. ماذا فعلتِ يا مجنونة! هذا طفل سعودي! لا، إنه كـويتي. نحـن لا نخطف أطفال هؤلاء. ستتسبّبين بمصيبة! لن يحدث شيء. السـلطات لن تسكت. لن يصلوا إلينا. الأفضل أن نتركه. هذا الطفل يسـاوي ثروة، ما الذي تعرفونه أنتم عن عملنا، هه؟ أنتِ مجنونة، تظـنين أن بإمكانك أن تخطفي أيَّ طفلٍ يعجبك، **زَم بُل!** أنـتِ لا تتـدخّلي! سيقتلكِ جرجس إذا علمَ بالأمر. أطلقت ضحكة رنانـة؛ سـوف يشكرني. أنتِ تخاطرين بنا. فلتتصلوا على جرجس ولنر ما يقولـه. اتسعت عينا عثمان دهشة؛ هل جننتِ؟ لماذا لا تتَّصل به، ها؟ هـل أنت خائف؟ همس؛ سوف يقتلكِ! ابتسمت روينا من تحت نقابهـا، حتى صعدت آثار ابتسامتها إلى عينيها. هزّت رأسها نفيًا؛ **آي**.

خطا عثمان بضع خطواتٍ إلى الخلف، أخرج هاتفه من جيبـــهِ وأجرى اتصالاً سريعًا، هامسًا، وهو يرمقُ روينا بطـــرفِ عينيـــه، ثم حوّل نظراته إلى صندوق السيارة.

دقائق وأغلق الخط، عاقدًا حاجبيه. كان يحبس في داخله كلامًا كثيرًا. دس الهاتف في جيبهِ وركب في المقعد الأمامي، شغَّل السيَّارة فتعالى في الفضاء هدير المحرّك. ما معنى هذا؟ اصعدن بســـرعة. أيـــن سنذهب؟ ابتسمت روينا:

إلى عسير.

الطريق إلى وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

5:02 مساءً

عندما أفاق مشاري من غيبوبته لأوّل مرة، كان في مكانٍ مُظلمٍ وضيِّق. مدَّ ذراعيهِ يتحسّس ملمس السَّطح المعدني من فوقِه، وخشونة القماشِ من تحته. فتحَ فمه، يريد أن يعبَّ من الهواء، ولكنّ الهواء كان بعيدًا. أحس باختضاضاتٍ سريعة، فعرف أنّه محتجز في صندوق سيّارة مع طفلتين أخريين، تبكيانِ وترطنان. نفذ زنخُ البول إلى رأسِه، وأحس بارتجاجات السيّارة تتغلغلُ في أحشائهِ. السواد من حوله مثقوب، يدلف النور إليه نحيلاً وشاحبًا، مثل ليلٍ منقّطٍ بالضوء.

أحس بتيارٍ نحيلٍ من الهواء يلامس وجهه، قرّب أنفه من الثقب، شهق بكلّ قوته. حاول أن يسترجع ما حدث، ولكنّه لم يتذكّر أيَّ شيء. فتحَ فمه ينادي؛ ماما! خرج صوْته ضعيفا، رفيعًا، لا يشبهُ صوته. ماما؟ كان يأمل أن تكون أمّه قريبة بما يكفي لكي تسمعه. أخذت إحدى البنتين ترفسُ السقف المعدّني، فهوت قدمُها على بطنه. التوى مختنقًا، طفرتْ دمعة من عينِه. عادَ يهمس؛ ماما؟ كوّر يديه قرب فمِه؛ ماما؟! تذكّر وقوفهُ في الحرم، وسط الزّحام، يقوّس راحتيهِ حول فمه ينادي أمّه التي، لا يدري كيف، أفلتتْ يده واختفت. ابتلعها الطواف. سمع صوتها يأتيهِ من مكانٍ بعيد؛ امش!

امش! واصل المشي، بين الجموع، وهو يتلفّت حوله. لا يعرفُ كيف وصل إلى هنا. اغرورقت عيناهُ وتحجّرت غصّة في حلقِه. يعرفُ بأنها أوصته، في حال ضياعه، بأن يطلب هاتفًا ويتّصل، ولكن الحجَّ أخذهُ بعيدًا، وعندما خرج من حلقة الطواف وأخذ ينادي؛ ماما! ماما! لم يسمعه أحد. تقوّست شفتاهُ إلى أسفل، طفرت دموعه، أوشك أن يجهش لولا أن رأى امرأة منقّبة تقتربُ منه، ترتدي خمارًا أسود وقفّازين أبيضين. سألته؛ أنتَ تائه؟ امرأة أخرى تقتربُ منهما، سألته؛ أنت تائه؟ أخبرها الأولى بأنها ستتكفّل بإيصالك إلى أهلك، دعت لها الثانية بالأجر، غادرت. تذكّر طية الورق في جيبه، استخرجها ومدّها ناحيتها. سعودي؟ تسأل المرأة. يهز رأسه؛ كويتي. لا تبكِ يا حبيبي. تقولُ المرأة وهي تمسح على رأسه بيدها. شمَّ في قفازها رائحة غريبة. طلب منها أن تتَّصل بأبيه. قالت ليس عندي هاتف، لكن سأساعدك، لا تقلق. مدَّت إليه يدها؛ سوف آخذك إلى البوابة، العسكر سيساعدونك. أمسك بيدِ المرأة وسارا معًا. الكعبة من وراءه والمخرجُ من أمامه. لا يذكرُ شيئا بعدها. استيقظ ليرى الخوف، ويتنشّق الصُّراخ ويسمع الظلام. سالَ سائلٌ دافئ بين فخذيهِ، وأطلق من فمِه صرخته الأولى.

اشتبكت صرخاتُ الأطفال وهم يدقّون جدران الصندوق. حاول أن يرفس السّقف ليكسره، دفعهُ بقدميهِ الحافيتين. جرحَ كاحله، فتذكّر أنه ترك نعله الكروكس في حقيبةِ أمّه. تواترت نداءاتُ الثلاثة، ماما، **إماي آي**. بابا، **آهباي آي**. توقّفت السيّارة فجأة. تدحرجوا إلى العمق، اختلطت أذرعهم وسيقانهم. أحس بقدمٍ تضغط على خدّه وبيدِهِ تجثمُ على أنفٍ لزج. تنشّق درنًا حامضًا.

رفع الثلاثة رؤوسهم يتساءلون عما حدث، سمعوا يدًا تخبط على الصندوق، ثم تفتحه.

تدفَّقَ إلى صدورهم هواء نظيف. رأوا سماءً بنفسجية كابية، سحبًا موشاةً بالبرتقاليّ، وجبالًا. رجلٌ داكن اللون، واسع العينين، يمدّ يده بمنشفةٍ بيضاء. يضعها على وجهِ الطفلة عن يمينه. الطفلة تنام. انكمش على نفسهِ، لوّح بيديه وقدميهِ، قاوم. المنشفة تحطُّ الآن على أنفهِ وفمه. لقد تذكّر ما حدث؛ في الحرم، أسفل الدَّرج، على يسار البوابة، حيث وقف رهطٌ من العساكر.. إنّها الرائحة نفسها.

كان هناك رجل نائم، ملتفٌ بسجادة صلاته، وطاقيّة رأسهِ تغطّي عينيه. لم ير شيئًا مما حدث له، و لم يسمع الغريبة همسُ في أذنه؛ هششششش. كانت تقبض عليه بذراعها، وتجثم بكفّها على أنفهِ وفمه.

تنشّق رائحة قفازها، سقطَ في النّوم.

الطريق إلى وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

7:03 ليلاً

قبل نقطة التفتيش، انعطف عثمان يمينًا، إلى طريقٍ ترابـــيٍ وعر. سار مسافة كافية، ثم عادَ إلى الشّارع الرئيسي بعد أنْ ابتعـــد عـــن دوريّة الشرطة بما يكفي.

حدث ذلك عدَّة مرّاتٍ أثناء الرّحلة. كلمـــا أوشـــكوا علـــى الاقتراب من نقطةٍ أمنية، أو اختناق مروري، كان يلج تلك الطـــرق السرية التي يعرفها جيدًا؛ شعاب مكّةً الخبيئة، قنوات التّهريب الـــتي يعرفها مثل باطنِ يده.

كانت طرقُ التّهريب تغص بالمتسللين، حجّاجٌ لا يملكون تصاريح للحجِّ، يدلفون مكّة من أضيقِ شعابها. اعتاد عثمان على رؤية هذا المنظر في كلّ موسمِ حج، وقد سبق له أن هرّب بعض الحجّاج قبل ســـنوات. يقبض المهرّبُ ألفي ريال من الحاج نظير إيصالهِ إلى "الشرائع"، البوابـــة الشرقة لمكّة. يسلك البعضُ طرقًا بريّة وعرة، الـــبعض الآخـــر يتســـلّق الجبال، أو يختبئ في الشاحناتٍ، والبرّادات العملاقة، يفترشون الأرصـــفة بالخِيام الصغيرة الملوّنة، وأكياس النوم. تمتدّ رحلتهم أيّامًـــا. يـــدخلون ويخرج. سياراتهم تحملُ حجّاجًا، سيارته تحملُ أطفالاً

كان يعرفُ ما عليهِ فعله، والخارطة في رأسهِ واضـــحة. فهـــو يحفظ مواقع نقاط التفتيش على الخطوط السريعة، ويحفظ الدّرب إلى

الطرق الخارجية؛ "طريق الخواجات"، و الجموم" و"حدا" و"الريان" و"القوبعية" شوارع تخلو من النقاط الأمنية، تنتشر في أنحاء مكّة كالشرايين، يتدفّق منها الحجّاج بالآلاف.

بمجرد أن انطلقوا في طريق العودة، أسندت روينا رأسها على زجاج النافذة، وغطّت في النّوم. كانت مرتخية الفك، تشخرُ بخفوت. راقبها من المرآة الأمامية مندهشًا؛ كيف يسعها أن تنام بعد كل الذي حدث؟ لقد كسرت قوانين جرجس. والذي يكسرُ قوانين جرجس لا بدَّ وأن يكون مجنونًا.

لم يكن يقلق كثيرًا بشأن حمولة الأطفال التي يقومُ بنقلها، فحتى لو اضطرَّ إلى عبور نقطة سيطرة، سيوقف السيارة قبلها بمسافة كافية، ويضع الأطفال في المقاعد الخلفية مع النساء، كل واحدة تحتضن طفلاً نائمًا تحت خمارها، كأنّها أمه. نساء وأطفال سود. لا شيء يثير الريبة. سيكون هو الأخ الطيّب الذي يأخذ شقيقاته وصغارهنَّ لزيارة والده في الجنوب، ولكن مع هذا الطفل، ماذا سيفعل لو اعترضت الشّرطة طريقه؟ كان يعوّلُ على الحظّ كثيرًا، وعلى الشوارع البديلة. وفكّرَ بأنه في حال اضطرَّ للتوقف أمام نقطة تفتيش، فإن هذا سوف يعني نهاية حياته. تحسَّس رقبته، شعر بجفافٍ مُفاجئ في حلقه. لا زال لا يفهم لماذا أمره جرجس بإحضار الصغير، لماذا يخاطرُ كلّ هذه المخاطرة من أجل صبيٍّ لا يصلح بضاعة لسوقهم. ولماذا كانت روينا تتحدّث بكل هذه الثقة؛ اتصل بجرجس، هيّا! نظر عبر المرآة إلى أدانيا وهاتي. تتبادلان الهمسات، كلتاهما لا تصدّق ما حدث. كانتا مضطربتين، تتفحّصان الشوارع بأعينٍ منتبهة، مشرّعة حتى أقصاها. وروينا، بعد كل الذي فعلته، كيف يسعها أن تنام؟

فتحت عينيها فجأة. التقت نظراهما على سطحِ المرآة الأمامية. دوّرت عينيها في المكان، كأنها تحاولُ أن تتذكر أين هي. ثمَّ راحــت تخبط على الباب بجانبها وتصيح؛ توقّف! توقف! توقّف الآن! مــاذا بكِ؟ أوقِفْ السيارة حالًا، يجب أن نعطيهم بعض الماء.

الطريق إلى وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

10:17 ليلاً

أفاق مشاري من نومِه مرّاتٍ عديدة خلال الرحلة. حصل على الماء سبع مرّات. ودُسَّت في فمه حبّة تمرٍ مرّة واحدة.

بعد ثلاث ساعاتٍ من الانطلاق، لم يبقَ في الأطفال قدرة على البكاء. كانوا ممدّدين كالخرق، واحدهم فوق الآخر، ملطخين بالقيء والبول. كان ثمة طرف مدبّب يطعنهُ في خاصرتهِ كلما انحرفت السيّارة. لاحقًا، سوف يعرف، بأنّ العصا التي تنغزهُ دونما قصد، هي ذراعٌ مبتورة.

عندما فتح صندوق السيارة للمرّةِ الأخيرةِ قبل الوصول، نزعت عن الأطفال ملابسهم وألقيت في القفر. مُسحت وجوههم ببعض الماء، ثمّ أُعيدوا، عراةً، إلى الصُّندوق. أغمض عينيهِ، عاريًا التصق جسده بجسد الطفلتين. كان يشتعلُ كجمرة. نامَ يحلمُ بسيّارة فيراري صفراء، حيث جلس على المقعد الأمامي. ثمة رجلٌ خلف المقود يعبثُ بالمسجّل، باحثًا عن أغنية مناسبة. الرجل يختار أغنية. الأغنية تضايقه. كان يحبُّ الرّجل خلف المقود. أفاقَ وغفى مرّة بعد مرة، وهو يحلمُ بيدِ الرّجل تمتدُّ ناحيته، وبأصابعهِ تتخلّل غرّته. سمعه يتذمّر من شَعْرِهِ الذي طال أكثر مما ينبغي. لكن الأغنية.. الأغنية ضايقته، ماذا كانت الأغنية؟ لم يكن يذكُر. الأغنية لم تنفذ إلى الحُلم، ولكنّها

مع ذلك ضايقته. انطلقت السيّارة، أحس بجريانها على لسانِ الإسفلتِ الطويل. أحس بتوقّفها المفاجئ، وسمع يدًا تضربُ على سطحٍ معدني، كان الصوت يتردّد في داخلهِ عميقًا، ينفذ إلى حلمه ويحيله إلى كابوس. فُتح غطاء الصندوق، ورأى سماء سوداء، ونصف قمر، والرجل الذي وضع المنشفة على وجهه، الرجل الذي أرسله إلى النومِ، الرجل الذي أطعمه تمرة وسقاهُ ماء، يتفحّصهُ والطّفلتينِ بمصباحه اليدوي.

ثمّة امرأة داكنة، بلا نقاب، تنظرُ إليه. سمعها ترطن. ثم أحس بيديها الباردتين تنغرسانِ تحت إبطيهِ وتحملانه. كان جسده رخوًا، وهو يُحمل على كتفها إلى بناء قريب. أرادَ أن يرفس حتى تفلته يد المرأة، ويفر ركضًا في الظلام. ولكنّه كان منهكًا، مضطربًا في معدته، وكل ما أراده لحظتها هو أن يعود إلى النوم، ليرى الفراري الصفراء، والرجل خلف المقود، والأصابع التي تتخلّل غرّته، غرّته الطويلة جدًا.

لقد وعدت أمّه بأن تقص شعرهُ بعد الحج، لا يدري لماذا صَعُبَ الأمر إلى هذه الدّرجة.

عسير. وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

10:18 ليلاً

"من حُسْن الحظّ أنّ أحدًا لم يمُت"

قالت روينا، وهي تتفحّص الأطفال الذين شكّلوا كومة متشابكة من السيقان والأذرع، متكدّسين على يمين الصندوق، واحدهم فوق الآخر. نظر إليهم عثمان بقلق، وهو يصوّب إلى وجوههم مصباحه اليدوي. كانوا صُفرًا، بشفاهٍ مجففةٍ، ومحاجر محتقنة، وقد عبرت خدودهم دروبٌ ملحيّة بيضاء.

انتشلتْ روينا الصبي من بين أذرع وسيقان الطفلتين، حملتهُ على كتفها وسارت به إلى البيت؛ بيتٌ حجريٌ من طابقين، يشبه هرمًا ناقصًا، بجدرانه التي تضيق كلما علت في السماء، ناتئا في فراغ الوادي، يلفّه الليل. كان للبيت بابٌ مطليّ بالقطران، نوافذ صغيرة مرتفعة، وجدرانٌ داخلية مزدانة بنقوشٍ ملوّنة؛ خضراء وحمراء وسوداء. كانت الدّرجات مطلية بالأخضر، وهي تتواترُ إلى أعلى باتجاهِ غرفةِ الأطفال، حيث جلست صالحة تهتمّ بصيدِ الأمس؛ أطفالٌ أفارقة، بأطرافٍ مبتورة أحيانًا، وطفلة هنديّة واحدة.

كان أحد الصَغار قد تقيّأ على الأرض، وصارت صالحة تضربه بالعصا، وهي تشيرُ إلى بقع القيء على ثوبِها الزيتيّ الكالح؛ إنها المرّة الثالثة يا كلب! عندما مرّت روينا أمام الباب، شهقت صالحة، كأنها

لا تصدّق ما رأته. كان الطفل على كتفِ روينا عاريًا، ناعم الشعر، فاتح البشرة، مغمى عليهِ إلا قليلاً. هرعت إلى الممر تسأل: سعودي؟! فرقعت بلسانها؛ كويت. ارتفع حاجبا صالحة وجحظت عيناها. سرعان ما وصلتْ كلٌّ من أدانيا وبهاتي، وبين ذراعيهما الطفلتين الأخريين، غائبتين عن الوعي. كيف حدث ذلك؟ برطمت أدانيا؛ لا تسأليني. سارت ممتعضة إلى الحمّام، تحملُ على كتفها طفلة سوداء بذراعٍ واحدة.

مُدّد الأطفال الثلاثة على أرضية الحمام، باعدت روينا ما بين سيقانهم، وغسلتهم مما علق بهم من بول وقيء. تكوّروا على الأرض، مثل ديدانٍ لزجة، وأطلقوا أنينًا واهنًا، متقطّعًا، يُسمعُ بالكاد. تناولت روينا قطعة صابون ودعكت بها أجسادهم. كانوا يرتعشون من البرد. ملأت سطلا بلاستيكيًا بالماء وأراقتهُ على رؤوسهم؛ شهقوا.

حملت روينا الصبي إلى غرفةِ الأطفال، تحلّق الصغار حولها ينظرون إلى القادم الجديد، الشاحب، الغريب. هشّت عليهم بيديها؛ ابتعدوا يا حيوانات! تراجعوا إلى الوراء، تكدّسوا في الزاوية، يراقبون المشهد بأعين واسعة، بعضهم كان يطلب منها بسكوتة أخرى.

عسير. وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

11:24 ليلاً

كان جرجس جالسًا على وسائده الأرضية، مستندًا إلى الجدارِ المطليّ بالأزرق الباهت، فمهُ نصف مفتوح، وقد امتلأ شدقه الأيمن بأوراق خضراء طازجة. بين ساقيه الممدودتين كيس نايلون مليء بالأغصانِ المورقة؛ أوراقها خضراء، محمرّة، لامعة. كان الإحساس بمرارة الأوراق في فمهِ لا يزال، ولما يبدأ عصيرها السحري في فعل أفاعيله، وقد تضوّعت في الغرفة رائحة خضراء. جرجس! التفت ناحية الباب، صالحة تنظرُ إليه بعينيها الكحيلتين، اللعينتين. بدت غاضبة؛ لقد أحضرتْ طفلًا أبيض. زمّت شفتيها المكتنزتين. صالحة المليحة! كانت المرّة الأولى التي ينتبه فيها إلى الاخضرار الخجول في عينيها. ومن خلف ثوبها الزيتيّ الضيّق، استطاع أن يرى استدارات الجسد الأبنوسي الصَّقيل. كانت رؤية حاجبيْها المعقودين تبهجُ خاطره، ورغم لطخة القيء على ثوبها، إلا أنّ منظرها سرّه على أية حال. هل سمعت ما قلت؟ انفرجت شفتاهُ عن ابتسامةٍ كسلى، ولمع اخضرارٌ في فمِه. طفل كويتي! أدري. تساءل لماذا لم يقترب منها قبل اللحظة. مضى على انضمامها إلى أفراده بضعة أشهر، وهي تتعلّم بشكلٍ سريع. فتاةٌ لماحة، غيورٌ، حقودٌ، كما يحبّها. كان جسدها الفتيّ الفوّار يجعل الدماء تتدفق في عروقِه. روينا تكسرُ قوانينك،

كيف تسمح لها؟ عندما أرسل النساء إلى مكة فجر اليوم لجلب المزيد من الأطفال، أبقاها معه لتتولى شئون البيت. في حقيقة الأمر، كان كل ما يريدهُ هو أن يراقَبها وهي تصعد الدّرج، مرّة، بعد مرّة بعد مرة. كانت الرَّقصة الكامنة في ردفيها تسعده، وفكّر بأن يستدعيها إلى فراشه، لولا أنه كان يلتذّ بوجود تلك المسافة بينهما، وبفكرة أنها تنتظر دعوته منذ مدّة، وترغب به، ولا تناله. لقد اعتاد الأمر؛ روينا في فراشه، صالحة في خيالِه. يحدس بأنها تشعر بعينيه، كما يشعرُ بعينيها، ويستشفُّ كمون النّداء في خطوها كلما وقعت عليها عيناه. لقد حذرتَنا من الاقتراب من أطفال هؤلاء! كانت غيرتها بادية، وتسعده. إنها تخاطر بحياتنا جميعًا! مساء اليوم، عندما ناولتهُ الغداء، لم تخفِ امتعاضها وهي تسأله عما يجده في تلك العجوز؟ قالت بأنها تستغلُّ حسن معاملته، وتتصرّف مثل رئيس، الجميع مستاؤون منها. كان يهز رأسه؛ يعرفُ روينا، يعرفها جيّدًا، إنها عصاهُ التي توكّأ عليها طوال حياته، ولكن صالحة. ليس هذا ما اتفقنا عليه! إنها تجيد الزّعَل، صالحة ذات العينين اللعينتين! هل تعتقد بأنهم سيحترمونك بعدما حدث؟ كان سؤالاً ساطعًا. استطاعت اللعينة أن تجعله يغضب. بصق أوراق القاتِ المرّةِ من فمِه، شكّلت على الأرض لطخة خضراء. غمغمَ؛ استدعي روينا.

عسير. وادي رادة

7 ذي الحجة، 1431

11:20 ليلاً

تردَّدَت في أرجاء الوادي صرخةُ روينا عندما ضربها جرجس بعصاهُ على صدغها. شخصتْ تنظرُ إليه غير مصدقة. كان يرتفع بصوته عامدًا وهو يكيلُ عليها الشتائم، يريد أن يُشهد الجميع على سلطته؛ عثمان، أدانيا، بهاتي، قبيلة من الأطفال السود، طفلة هندية، طفل أبيض، وصالحة الواقفة على رأس الدرج، تختلسُ النظر.

كانت روينا قد رأت هذا الطقس مرارًا. إنها اللحظة التي يختار فيها جرجس أحد أفراده، امرأة في العادة، ويضربها أمام الباقين، ليعرف الجميع من هو السيّد. فغرت فاها بعد أن تلقّت صفعته الأولى. ما بك؟ ما الذي فعلته؟ أنتِ تنسين نفسكِ! ألصق وجهها بالجدارِ، ضربها أسفلِ عنقها. اسودَّ العالم و لم تعد، للحظاتٍ، ترى شيئا. ثم حين استعادت بصرها رأت لطخة حمراء على الجدارِ الحجريّ المطلي بالأزرق الباهت، وقد امتلأ فمها بمذاق الدم. تخالفين أوامِري؟! احتبستِ الكلماتُ في فمِها، تحدّقُ فيه ذاهلة. ماذا حدث؟ يبدو أنّك بحاجة لأن تتذكّري من أنا. ولكن أنا.. رفسها في بطنها. سقطت تنظر إليه مشدوهة، تشير إليه بإصبعها وتردّد؛ ولكن أنا، أنت.. في المرَّة القادمة، عندما تتجرئين عليّ، سأقتلك وأبيع كلّ ما فيك! لكزَ أسفل بطنها برأس عصاهُ، وضغطها بقوّة؛ هذا الشيء هنا يساوي أربعين ألف دولار. لا تنسي.

أفلتَها، وعاد يتكئ إلى الجدارِ الأزرق الباهت، أسفل لطخة دمها بالضبط. انهمك في نتفِ الأوراق، يحشو بها شدقه الأيمن. وخلال دقيقة، بدا عليه أنَّه نسي وجودها تمامًا. تسمّرت في مكانها تنظرُ إليه. رفع رأسه إليها، مرتخي الفم، الأوراقُ تلمع خضراء في فمه: ماذا تفعلين هنا. أنتَ قلت.. أرادت أن توضّح. عاد ينظر في كيسه وهمهم؛ ألم تشبعي من الضّرب؟

لم يكن هناك ما تقولُه. لقد عرفت أنها قربان طقس التأديب. شيءٌ ينعش الخوف في قلوب الباقين. شيء يعيد إليه قبضته القاهرة. أحسّت بثقلٍ في جسدِها كلّه. زمّت شفتيها وخرجت من الغرفة، تجرجر خطاها الثقيلة صعودًا إلى أعلى. كانت تسمعُ وشوشات شامتة، ضحكًا وهمسًا. دخلت غرفة الأطفال، ساد صمت ثوانٍ، ثم سمعت صالحة تردّد المثل القديم؛ أرادَ الضّفدع أن يكون فيلا، فانفجر!

عسير. وادي رادة

8 ذي الحجة، 1431

2:20 صباحًا

كانت تبحلقُ في الجدارِ، مضطجعة على جنبها، تتوسّد راحتها، والضيقُ في قلبها يتّسع. حاولت أن تنام مثل البقية، متظاهرة بأن ما حدث، لم يحدث فعلاً، ولكنّ لطخة ما، داكنة، كانت تنتشر في أعماقها.

لماذا لم يأمر بتركِ الطفل في مكة إذا لم يكن يريده؟ أحسّت بالدماء تغلي في عروقها وهي تتبيّن حقيقة الأمر؛ لقد خانها جرجس. إنه يريد الطفل، والملايين التي سيجلبها معه، وهو مستعدٌ تمامًا لدفع الثمن، الثمن الذي هو روينا نفسها، هي التي أتته بالطفل، والملايين. وفي الوقت الذي بدأ فيه الألم يندحُّ من جميع جسدها، صار الأمر أوضح في رأسها أيضًا. لقد استخدمها. كانت الطُعم والفريسة معًا. ظلت متخشّبة في مكانها، تتظاهر بالنّوم. لم تصدر عنها حركة واحدة عندما أرسل جرجس في طلب الطفلة الهندية، ولا عندما صارت الطفلة تصرخ محمولة على كتف هاتي، ولا عندما تشبّثت بطرف الباب المعدنيّ الصدئ، ولا عندما انخرط الأطفال في حفلة بكاء، ولا عندما استخدمت صالحة وأدانيا العصيَّ لإسكاتهم. روينا لم تتحرّك. كانت الأشياء تحدث في مكانٍ بعيد، وتبدو أصغر من حجمها الطبيعي. وحدها اللطخة المعتمة في أعماقها واصلت

الاتساع. غفت لثوانٍ، رأت نفسها طفلة بضفائر كثيرة، تركض بين الخيام، تجمع كسور الخشب والحصى الأبيض وكل ما يصلح للّعِب، ثم رأت عصًا تضربُ صدغها واستيقظت فزعة.

تناهى إليها خليطُ أصوات؛ أطفال ينادون أمّهاتهم في نومهم، شخير نساء، ونداءاتٌ يائسة، موغلة في الفجيعة، لطفلة العشر سنواتٍ التي ابتلعها فراشُ جرجس. ثمّ ساد صمتٌ في الأسفل. أرهفت سمعها. تحوّل صُراخ الطفلة إلى أنين. وصار الأنين يتعالى مع كل خطوة يأخذها جرجس إلى أعلى، صاعدًا الدرج، والطفلة بين ذراعيهِ، مدمّاة في نصفها السفلي، وقد تلطّخ ثوبها ببقعٍ حمراء.

أحسّت بخطواته تدخل الغرفة. رفعت رأسها تنظرُ إليه، أرادتْ أن يرى وجهها المرضوض وجفنيها المتورّمين. كانت تأملُ أن تجده آسفا، وكانت مستعدة لنسيان ما حدث، إكرامًا لتلك السّنوات الطويلة التي عملا فيها جنبًا إلى جنب، ولكنها وجدته ينظر إلى صالحة المستغرقة في نومها بفمٍ مفتوح، وخيط من الرّيق يسيل من زاوية فمِها، تربط حول معصميها وقدميها حبالاً تنتهي بأقدام الأطفال. كان جرجس يمسح قوام الفتاة بعينيه الصفراوين الكبيرتين. وفهمت روينا كلّ شيء.

جثا على ركبتيه واضعًا الطفلة الهندية بين الأطفال. التفت إليها. أشار لها برأسه لكي تتبعه.

كان عليها أن تتمَّ ما لم تقدر عليه صبيّة العاشرة.

عسير. وادي رادة

8 ذي الحجة، 1431

2:30 صباحًا

تمدَّدَ على ظهره ينتظرُ مجيئها، مثلما يفعل كلّ ليلة.

سمعها تلهثُ وهي تنــزل الدَّرجاتِ، وصولاً إلى فراشهِ. روينا، عجوزُهُ القديمة، تقفُ على الباب نصفِ الموارب، تشــفنهُ بعيــنين جليديّتين. اقتربت خطوتين، ثمَّ تمدَدت على ظهرها إلى جانبه، تحدِّقُ في السّقف، فيم أصابعُها تفكُّ أزرار ثوبها على مهل. فمها مقفــل، وجْهُها متورّم، جفنها منتفخ. كانت تعرفُ ما عليها فعلهُ، وكانــت تريدُ إنجازَ الأمر بأسرع ما يمكن.

فَكَّت أزرارها، فظهر جلدها الأسود المتهدّل، من أَسْفلِ البطنِ وحتى أعلى النّحر. أمرها بأن تخلع عنه بنطلونه. نهضت من مرقــدِها بتثاقل، وبأصابع كسلى راحت تسحبُ طرفي البنطلون إلى تحــت. عادت تتمدَّد على ظهرها. لقد اتفقنا على الأمرِ معًا. همست بما يشبهُ الفحيح. نخر؛ أنا لم أوافق على شيء. أنتَ قلتَ.. اخرسي! أطبــق بالوسادة عليها، يمناه تثبّت الوسادة على وجهها، يسراهُ ترفع طرف ثوبها.

ليلة أمس، عندما فرغَ منها، راقبها وهي تلفُّ لــه الســيجارة بأصابع بارعة. فردت الرُّقاقة بين إصبعيها، ثم فتحت العلبة المعدنيّــة وتناولت منها نثارة التبغ. كانت تحدّثه عن الصَّبــي الــذي جلبتــه

ذلك المساء، إريتري من عَصب، ألا تتساءل أحيانًا من أيـن جئنـا؟ سألتهُ، وهي تضع نثارة التبغ على الرُّقاقة. تراءى لها أنّها قد وضعت الكثير، فأعادت بعضه إلى العلبة، قبل أن تحكِم إغلاقها. لم يكن يفهم الدّاعي لطرحها مثل هذه الأمور، كلاهما وُلِد في مخيّم، ونشـأ بـلا أبوين، ويمكن أن يكون مِن أيَ مكان؛ إرتريا، السـودان، إثيوبيـا، الصومال، جيبوتي.. راقبها سارحًا، وهي تمسك الرُّقاقـة بـأطرافِ أصابعها وتلفُّها. أخرجت لسانها الأبيض السَّميك، ومرَّرتـه علـى الطرف، ثم ضغطت برفقٍ لتتحقق من التصاق الطَّـرف. وضـعت اللفافة في فمِها وأشعلتها. أردفت؛ يمكنك أن تربح أموالاً طائلة لـو أنّك خرجت عن المتاجرة بالسّود. زفرت دخانًا من منخريها قبل أن تمدَّ له السيجارة. استلّ نفسًا عميقًا، زفر؛ اختطاف السّود لا يـثير اهتمام أحد. رفعت حاجبها الأيمن تحدجـه بنظـره ذات مغـزى؛ بالضَّبط! لم يكن يفهم؛ ولماذا أختطف طفلا يثير بلبلة؟ لأن البلبلـة تساوي ثروة. هزَّ رأسه؛ لا داعي للمخاطرة. كان مستغربًا من إثارتها للأمر، فهي تعرفُ البضاعة المطلوبة؛ إثيوبيون، إرتريون، صوماليون، نيباليون، أشخاص لا يثير اختفاؤهم أية ضجة، أشخاص غير مرئيين، رغم سوادهم الساطع.

نظر إليها مليًا، يسترجع تاريخهمـا معًـا. روينـا؛ المصـمتة كصندوق من صفيح، ما زال يتذكّر هيئتها وهي تـتفحَّص أعـين الأطفال. إذا أعجبتها عيني الطفل، تقرّر الإبقاء علـى بصـره، لأنَّ الأعين الجميلة تنفع في التسوّل. تثبّته إلى السَّرير، تمسـك بـأطراف أصابعه، تتذمّر من اتساخ أظافره، قبل أن تبتر يده. وإذا لم تعجـب بعينيه، فهي تثبّت رأسه بين فخذيها، تفتح جفنيه بـين أصـبعيها،

وتسكب فيهما البلاستيك المذاب. وحتى في تلك السنوات، كانا يبحثانِ عن أطفالٍ من نوعٍ خاص. معاقون وأيتام، من مخيّمات ليتشور ونيب نيب، أطفال يبيتون مع أسرٍ غريبة، مثل عالة. مثل روينا، ومثله. كان يأخذهم متأكدًا بأن أحدًا لن يفتقدهم في غيابهم، لأن أحدًا لم يفتقده عندما اختطِف. كان متأكدًا من كونه يقدّم خدمة لبقية سكّان المخيّم الذين سيحصلون على مساحة أكبر في خيامهم، وحصّة أكبر في طعامهم. ما بالها الآن تطلبُ منه أن يخرج عن عادته، ويختطف طفلاً يثير الانتباه؟

لقد خنتني. جاءهُ صوتها مكتومًا من تحت الوسادة. كان العرقُ يتصبّبُ من جبينه. فرغَ منها فتمدَّدَ إلى جانبه، لاهثا. رفعت الوسادة عن وجهها، كان محتقنًا، دامعًا. أشار إليها بسبّابته؛ أنتِ تتحمّلين نتائج أفعالك. صاحت؛ لقد اعتنيتُ بك طوال عُمري! أمسك بالوسادة وأطبقها على وجهها ثانية. ما عاد يطيقُ هذا التاريخ الذي يشدّه إليها. تاريخ التشرّد والجوع، تاريخٌ يكرهه! لقد خنتني! عادت تصيح. لن أسمح بأن أخسر احترامهم. تقصد احترامها. ابتسم. وما المانع؟ إنّها حلوة وتعجبه. وروينا.. إنها عجوز مجعّدة. رفع الوسادة عن وجهها وطردها من حجرته؛ اغربي عن وجهي. نهضت من مكانها، شعثاء دامعة، تحكم إغلاق أزرارها على عجلٍ، سمعها تئنُّ من آلام ركبتها وهي تصعد الدّرج، روينا العجوز.. زفرَ بارتياح، كأنها تجثم على قلبه.

كم يبدو يومه مختلفا عن أمسه. كأنَّ ملايين الجدران صعدت بينها وبينه. كان يستلطف معاشرتها، وما يتبعها من طقوس؛ لفّ السجائر، تدخين حشيشة، وإذا أسعفهما الحظ، شربا بعض العرق.

اختفى لهاثها أعلى الدّرج، وسمع باب غرفةِ الأطفال يفتح ويُغلَق. ثمَّ أدركَ بأنَّ الشيء الذي جمع بينهما منذ سنواتٍ طويلة جدًا، الشيء الذي جمع بينهما منذ عمره كلّه، قد انقصم أخيرًا.

سألها بالأمس؛ تخيّلي ما سيحدث لو أوقفت الشرطة السيارة وفيها طفلٌ أبيض. تناولت السيجارة من فمه واستلّت منها نفسا. انتشر الدّخان من منخريها وهي تجيبه؛ لا تقلق على عثمان، فهو لديه دائمًا طريق آخر يسلكه. التقطت اللفافة من فمه، ثبتتها بين شفتيها وسحبت منها نفسًا عميقًا؛ فكّر بالأمر، طفل واحد، سعودي مثلاً، تخفيه في أحد الكهوف الكثيرة هنا، تتصل بأهله وتطلب فدية، يعطونك المال لتدلّهم على مكانه بعد أن تعبر الحدود إلى اليمن من "وادي الجنية" أو "وادي دفا"، إنها خطة سهلة. هزَّ رأسه؛ وماذا عن الأطفال السود؟ هل نذهب إلى اليمن ومعنا اثني عشر طفلاً مطلوبٌ إيصالهم إلى سيناء؟ صمتت لثوانٍ تفكّر؛ إذن، لست مضطرًا لإنجازِ الأمرِ هنا، يمكننا أن نعبر البحر. قطّب جبينه. رفعت كتفيها تقول؛ وهو ما نفعلهُ طوال الوقت على أيةِ حال، أليس كذلك؟ سنتفاوض معهم إذا وصلنا سيناء، أو نبيعه على الرعايدة. سحب اللفافة من فمِها واستلَّ منها آخر أنفاسها. ابتسمت بغموض: غدًا سأحضر لك طفلاً أبيض.

المجنونة، كانت تعني ما تقول.

الفصل الثالث

سَعير



مكّة. غرفة الإسعافات الأولية

8 ذي الحجة، 1431

3:01 صباحًا

عندما استيقظ فيصل من نومهِ ظنَّ، لوهلةٍ، بأنه خرج من الكابوس؛ كان ما رآه في المنامِ غريبًا إلى حدٍ يجعله مستحيل الحدوث؛ حلم بأنَّ امرأة مجهولة، بنقابٍ أسود وقفازين أبيضين، تحملُ ولده فاقدًا الوعي بين ذراعيها، وتخرجُ به من بوابةِ الفتح، بين ملايين الحجّاج، دون أن ينتبه لها أحد.

استيقظ مختنقًا، وظنَّ لوهلةٍ بأنه قد نجا؛ ستكون الأمور على ما يرام الآن. إنه مجرد كابوس. نظرَ حولهُ يفتّش عن ولده، كان متأكدا من أنه سيراه، منبطحًا على بطنهِ في غرفةِ الجلوس، يلعب بدميةِ باتمان. ستكون أمّه العجوز في المطبخ، تحمسُ له أكباد الدجاج التي يحبّها، امرأته متربّعة أمام التلفزيون تتابع مسلسلا تركيًا، شقيقه منكفئ في الكرسي القصي من المجلس، يغازلُ فتاته على الهاتف، وولده.. يؤرجح ساقيهِ ذهابًا وإيابًا، غرّته الطويلة تضايق عينيه. يرفع باتمان عاليًا في الهواء، ليهبط بقدمهِ على بطنِ دمية الجوكر. بوف! أيها الجبان! سوف أهزمك! كان يهتف. المشهد الذي تكرّر في كلّ يومٍ من حياته في السنوات الأخيرة، كان متأكدًا من أنه سيفتح عينيه، ليراه.

لم يره.

لم يكن في الكويت، ولا في غرفةِ الجلوس. لم يتنشّق ضوعَ الكبدة المحموسة، بل رائحة الكحول والنفثالين. لم ير قطع الأثاث الفستقيّ، ولا السجادة الفارسة التي تفيض بنقوشِ الطيور والغزلان، ولا الشمعدانات الكريستالية على الطاولة المستديرة، ولا نسخ لوحات أيّوب حسين على الجدران. كانت الغرفةُ بيضاء بلا انتهاء؛ أسلاك، أنابيب أمصال، شاشة رصد. كاميرا مراقبة. سلكٌ رفيعٌ ملتفٌ حول إبهامه، ثبّت إليهِ بضمادٍ لاصق.

وجدَ أنبوبًا مغذّيًا موصولاً بوريدِهِ، وممرّضًا يباعِدُ ما بين جفنيه بإصبعيه. كانت هناك صورةٌ للكعبة، بالأبيضِ والأسود، معلّقة على الجدارِ أمامه، وساعة إلكترونية تشير إلى الرابعة وأربعين دقيقة، وفي الزاوية اليمنى، كانت سميّة متربّعة على الكرسي المعدني، تحتضن زوجًا من نعل كروكس. تهزُّ جذعها إلى الأمام والخلف، تضربُ رأسها بالجدارِ؛ وجهها أحمرٌ، مشرّبٌ بالدمعِ، شفتاها تلهجانِ، عيناها ناضحتانِ بالفجيعة. يمّه مشاري، يمّه مشاري، يمّه مشاري، يمّه مشاري. ناداها؛ سمية. لم تلتفت. لم يفهم فيصل كلمةً واحدةً مما قاله الممرّض. أومأ برأسهِ ببساطة وعيناهُ معلّقتانِ على امرأته. لماذا لا تردّ؟ سميّة. ليس من عادة زوجته أن تتجاهله. يا سميّة! تركَ رأسه يهوي على الوسادة. أردف؛ سميّة نادي مشاري. هذه المرة أيضًا لم تلتفت، كأنّها لا تسمعه. رفع أصبعه في الهواء. سميّة نادي مشاري ألحين! قولي له أبوك يبيك. هوت ذراعه فجأة، سقطت على السرير. تمتم واهنًا:

قولي له..

تقوّست شفتا سميّة وهي تنظرُ إليه، بعينيها الحمراوينِ الغارقتينِ

في الدّمع، وجفنيها المحتقنين. رفعت نعليّ الصغير أمامهُ وأجهشـــت؛ وين ولدي؟

أدرك لحظتها بأنه لم يخرج من الكابوس، بأنَّ الكابوس.. دخل فيه.

مكّة. غرفة الإسعافات الأولية

8 ذي الحجة، 1431

3:32 صباحًا

كان سعود قد وصل من جدّة، بملابس مهندس النفط الزرقاء، خالي اليدين، ممتلئ القلب، عابرًا بالبطاقة المدنية وحدَها.

عندما وصل إلى غرفة الإسعاف، وجدَ شقيقه جالسـا علـى السرير، يحدّقُ في الجدار، في عينيه رعبٌ جـاف. كانـت ذراعـه تنـزف؛ لأنه انتزع الأنبوب المغذي بمجرد ما أفاق، الدَّم يقطرُ مـن ذراعه على قميصه؛ لطخة حمراء تتسعُ جهة القلب. كانت سميّة تبدو مثل كومةٍ من الظلام، وقد احتجبت خلف غلالات سوداء، جذعها يهتزُّ ذهابًا وإيابًا، مثل الطير الذبيح في رقصته.

خطا داخل الغرفة، ثمّ تراجع إلى الخارج خطوتين. مسح دموعه وهو يتنفس بصعوبة. كان الأمر يفوقه. أحد المسعفين يشدُّ على يدهِ: اتشجّع.. أخوك محتاجك. يومئ. ليس أمامه خيارٌ آخر. زمَّ شـفتين مرتجفتين، التقط أنفاسهُ وعاود الدخول. سار بمحاذاةِ سرير أخيهِ، ثمّ جلس بجانبه ومدَّ يدهُ ليلامس كتفه. أراد أن يحتضنه، لولا أنّ فيصل قد انكمش على نفسهِ، كأنه لا يطيق لمسة يد. لا إله إلا الله، وحَـد الله يا بومشاري. لم يلتفت فيصل ناحيته، كأنّه لا يشعرُ بـه. كـان سارحًا، سادرًا في غياباتِ ألمِه، شاخصًا في الفراغ. وضع سعود يدهُ على يدِ أخيه، أردف: أنا جيت فيصل. غلبته دموعه وهـو يـردّد:

صدّقني بنلقاه، وربّ الكعبة بنلقاه. رفع فيصل عينيه المغـــرورقتين إلى وجه أخيه، كأنه يراهُ أخيرًا: سعود إنت وصلت؟ بدا وكأنّه يختنـــق بصوته:

خذوه يا سعود.

هزّ رأسه يغالبُ دموعه.

دريت.

خذوا النتفة.

عاد يحدّقُ في الجدارِ ذاهلاً. شعر سعود بالكلماتِ تتحجّـــر في فمِه، تجرحُه بحوافّها. تناهى إليه نشيجُ سميّة. نهض من مكانه وجلس إلى جانبها، شدَّ على يدِها. صارت تصيح وهـــي تـــدفن وجههـــا بطرحتها السوداء؛ آه يمّه آه! لا حول ولا قوّة إلا بالله، تمتم: ذِكري الله سميّة. انفرج التقوّس في شفتيّ فيصل، أجهش. سرعان ما اخـــتلط بكاء الاثنين، وفرّ سعود خارجًا. كان البكاء يطبق علـــى صـــدره ويستلّ منه آخر ذرة هواء. ارتطم برجلين في الخارج، سارَ مترنحـــا نحو الجدار. استند عليهِ بذراعِه وألصقَ بهِ جبينه. كان وجه مشـــاري يملؤه، تفاصيله تتدفق؛ لونُ الرملُ في جلده، شامة عنقه، انفراج أذنيه، سنّه الساقطة، وغرّته. ضرب سعود الجدار بقبضته، تدفق الغضب في شرايينه حارًا وكاويًا؛ من الذي تجاسر وأخذ "النّتفة"؟ غلبهُ البكاء، ثم ما لبث أن مسح دموعَه بأصابعِه. قال لن أبكي، وربّ الكعبة لـــن ابكي.

سار هائمًا، بين الأجساد. هبط الدَّرَج. واصل الســـير؛ أزواج النعال تتزاحم بمحاذاة الحوائط وتطرز الأعمدة. آلافٌ من الأجســـاد النائمة، الملتحفة بمطويّات السجّاد الأحمر، مراوحٌ تـــدور. أقـــواسٌ

رخاميّة تزيّنُ الأسقف، ثريات متدليّة. امتلأ أنفهُ برائحة العرق، والسجّاد، والأقدام، وطاقيّات الرأس، ودهن العود. كانت الروائح تمتزجُ في الفضاء، ولكنها، في أنفهِ، تتفكك وتعودُ إلى حقيقتها البسيطة؛ تنشق زحام مكّة، دفعة واحدة، وهو يحاولُ أن يعثر على رائحة واحدة، وحيدة، في هذا المزيجِ العطري الغرائبي؛ رائحة المرأة التي أخذت مشاري.

مكّة. ساحة الحرم

8 ذي الحجة 1431

12:42 ظهرًا

الزَّمَن ليس حليفا لك. الزمن هو العدوّ.

كيف يمكنك أن توقفُ تدفّق هذا النّهر الأبدي الذي يسمّونه الزمن؟ إنه يجري بعيدًا، بعيدًا صوب الاحتمالات المؤسفة. كل لحظةٍ تمرُّ تجعلك أبعد عن ولدك. الثامن من ذي الحجّة، يومُ التروية. تخفف الحرمُ من الحجّاج، ذهب أكثرهم إلى مِنى. صرت ترى فرجًا بين الأجساد التي تعبئ ساحة الحرم، كل هذه الثقوب التي تتخلّل الزحام.. ولا أثر لولدك.

أنهيت لتوّكَ مكالمتك الأخيرة مع السفارة. تطمينات بلا أساس، كلامٌ معلق في المجهول: نحاول تتبّع الخيط. أي خيط؟ امرأة منقبة تحملُ طفلاً بين مليون امرأة منقبة تحمل طفلاً. كل ما نعرفه عنها أنها أفريقية، وأنها امرأة، وحتى هذا غير ثابت. الشرطة السعودية تحاول تقصّي خبرها بين أفراد الجالية، لديهم عناصر مزروعة هناك. ممتاز، ولكن أيّة جالية؟ سودانية؟ إثيوبية؟ إريترية؟ صومالية؟ تشادية؟ غينية؟ جهلكُم مُطبق. تنهي المكالمة، تستند بظهرك إلى الجدار، جرائد مطوية تحت ذراعك، تلاحقُ العناوين منذ الصَّباح. يظهر ابنكَ في الصَّفحةِ الأولى من جرائد اليوم؛ الوطن، القبس، الراي، الأنباء، الجريدة، النَّهار. حتى الصُّحف السعودية نشرت صورته، نُشر مقطع الفيديو

للخاطفة التي تحملُ الصَّغير في اليوتيوب والمواقع الإخبارية. وجهُ مشاري يتردّدُ في فضاءاتِ الانترنت منذ عشرين ساعة، بكل تفاصيلهِ؛ منذ شامة العنق وحتى السن الناقصة. كل شيءٍ يجثم عليك، لا فائدة! حدسك ينبئك بأن الخاطفين لا ينتمون إلى هذا العالم المدجّن بالقانون والتكنولوجيا. إنك تبحث في المكان الخطأ وأنت تعرف ذلك. تنظرُ حولك، أنت في ساحة الحرم، أمام بوابة الملك عبد العزيز، والرخامُ الأبيض يمتدُّ أمامك مثل حلمٍ حليبي. الشمسُ تسطعُ في السماء، وفي الأرض، على بعدِ خطوتينِ منك، حمامة تلتقطُ حبّة شعير. تزفرُ، تشعرُ بأنّ حجب القداسة قد تمزقت جميعها، وتكشّف لك الوجه الآخر، العاجز، الكسيح، لمكة؛ لمدينة عاجزة عن الحراك. لن ينقذك أحد. ابنك مختطف منذ أربعٍ وعشرين ساعة ولكن لا معنى لذلك في ظل وجود ثلاثة ملايين حاج. موسم العبادات؛ نورٌ عليهم ونارٌ عليك.

عندما تعالى في سماوات مكّة أذان الظهر، توجّهت سمية إلى القِبلة وصلّت، صلّت وسجدت، سجدت ونشجت. بمجرد أن فرغتْ من صلاتها التفتت ناحيتك. ألن تصلّي؟ تشيح بعينيك: ليس قبل أن أجده. كل دقيقة تنفقها خارج بحثك المستميت هي هدرٌ محض. الصلاةُ ذريعة من يملك الوقتَ والقلب، وأنت لا لقد ذهب كل شيء، ليس الابن وحده، بل القلب كله. تضيقُ ذرعاً بالبشر والمكان؛ الضجيج والعجيج والحجيج، كل شيء! تزفر؛ متى تتخفف مكة من هؤلاء؟ ولكن.. لماذا تريد لهم أن يذهبوا؟ هل تعتقد بأن عملية البحث ستصبح أسهل؟ ماذا لو رحل الخاطفون أيضًا؟ أم تراك تأمل أن يعودوا، وربما يعود معهم ولدك بذراع مقطوعة وكوبٌ

بلاستيكي لجمع الريالات؟ تقولُ ربما؟ ربما يعود مشاري ناقصا ذراعًا. لا بأس. تأخذه إلى أفضل مستشفى أوربي وتعطيه ذراعك هناك. قلبك. أعضاءك جميعها. المهم أن يعود. إنك تدورُ حول النقطة ذاها. بالأمس كنتَ تسمّي دورانك طوافا فماذا تسمّيه اليوم؟ عذابًا. الاتصالات تتواتر على هاتفك ولكنك لا تملك القدرة على الرد. صوتك ليس لك. إنه للنشيج. أمك تتصل للمرة المئة. تعال اشرح لأمك الستينية بأن حفيدها مفقود، مخطوف. فسّر نكبتك. خذ الكارثة إلى مستوى التنظير، اصنع منها قصة.

منذ أربع ساعات وأنتم منهمكون في توزيع منشوراتٍ تحمل صورته؛ طفل مفقود. مكافأة مالية لمن يجده. مليون دولار. كتبتَ المبلغ، الذي لا تملكه، دونما تردّد. تعرف بأن المال سيجيء، سيفيض، أهلكم لن يقصّروا. شُكّلت فرق بحثٍ بإدارة شقيقك. كثيرون يساعدونكم، بعضهم طمعا بالثروة، بعضهم تعاطفا مع الأب الذي، والأمّ التي.

تقتربُ من سميّة، تراها توزّع المنشور على جاليةٍ من الهنود. ترفع عينيها إليك وتسألك مباشرة:

وزعت منشوراتك؟

اي.

خذ.

تضع في يدك حزمة أخرى، وأخرى وأخرى. وجهُه يتفشى في الخلاء، مثل كذبة، مثل إشاعة. تنظرُ إلى سمية تلاحق الأطفال السّود؛ هل رأيت هذا الولد؟ ربما شاهدته بالقرب من منزلك. أين تسكن؟ هل تعملون هنا؟ كيف جئتم إلى هنا؟ تشيح، لم تعد تستطيع رؤيتها.

لقد كان معها، كانت تمسك بيدِه، كانت.. فيصل! سميّة تناديك. تشيرُ بيدها؛ تعال! تحث خطوك، تقترب؛ خير؟ تشيرُ إلى رجلٍ هندي، هزيل، أصلع، بعينين صغيرتين ونظارتين مدوّرتين، تتشبّثُ امرأته بساعده، كأنها تتعلّقُ به. ابنتهم أيضًا مفقودة منذ يومْين. تنظرُ إلى الرجل مستفهمًا، يستطرد: لقد فقدتُ ابنتي مريم. طفلةٌ أخرى؟ تنظرُ إلى الرّجل ذاهلاً: كيف؟ يغالب غصته ليشرح: كانت غافية بجانب أحد الأعمدة، أمها تصلي العصر، عندما فرغت من الصلاة كانت قد اختفت. تنظرُ عميقًا في عينيه، كأنّهما مرآتان لفجيعتك. كأنك هو. كم عمر ابنتك؟ عشر سنوات. هل بلّغت الأمن؟ اكتست ملامحه بإعياء مفاجئ:

بلغنا الأمن. كلما رأيت رجل أمن بلّغته. إنهم لا يفعلون شيئا. وحتى لو أرادوا أن يفعلوا، فهم لا يستطيعون فعل شيء، بالكاد يستطيعون تنظيم المشاعر. يقول لي الضابط؛ تريدني أن أترك مكاني وأبحث عن ابنتك؟ إنه محق، لا يستطيع ترك مكانه، وأنا لا أستطيع أن أجد ابنتي.

زمّ الرّجلُ شفتيه وكأنه يصدّ موجةً هائلة من البكاء، ولكنه ما لبث أن أجهش. هكذا، أمامك: تساقط في قطعٍ من البكاء. تجاسرتْ زوجته حينها وبسطت كفها الهزيلة أمامَ سُمية، كأنها تستجدي:

- ليس عندنا مليون دولار. أرجوكم ساعدونا.

مكّة

8 ذي الحجة 1431

4:09 مساءً

عادَ فيصل إلى الدوّامة نفسها للمرة الثانية. هذه المرة، اصطحبَ معهُ محمد أكبر. جالا المستشفيات، مراكز الأمن، مكاتب تجهيز الموتى، ومركز الأطفال التائهين. فكّر فيصل؛ ولدي ليس تائهًا. إنه مختطف.. ف. التيهُ كلّهُ لي. في كلّ محطّةٍ تستوقفهما كان يقدّم البلاغ نفسه، مع اختلافٍ في التفاصيل؛ طفلة هندية، في العاشرة من عمرها، ترتدي بنجابي أزرق بحواشي صفراء؛ بشرة داكنة، حاجبان مقوّسان، عينان كحيلتانِ وشفةٌ دقيقة.

في شاشة هاتِفه السامسونغ، عرض محمد أكبر آخر صورة التقطها لمريم، قبل ستّ ساعاتٍ من اختفائها. واقفةً بجانب أمّها في ساحةِ الحرم، تبتسمُ. أشار إلى الحلقتين الذهبيّتين المتدليّتين من أذنيها: ربما ما كان يجب أن ترتديهما. قال ذلك ثمّ دفن وجهه في كفّه، وعَصر ملامحه.

لا أثر للطفلة، يقولُ موظف الاستقبال في مستشفى الملك عبد العزيز. هذه المرة لم يكن موظف مستشفى أجياد متفرغًا ليجري اتصالاته، اضطر فيصل وأكبر إلى المرور بالعديد من المراكز الطبية؛ لا أثر لمريم، لا في المستشفيات ولا في المشرحة، ولا في مركز رعاية الأطفال التائهين، ولا حتى في مكتب تجهيز الموتى. يخرج فيصل من

بوابةِ المستشفى، يتبعُه أكبر. سعود يتّصل. بومشاري وينك؟ مع أكبر الهندي؟ فيه أخبار؟ لا، وينك إنت؟ مع مازن نوزّع المنشور. مازن؟ صاحبـــي من أيام الدراسة بأمريكا، توه واصل من جدّة، جاي يعين ويعاون. جزاه الله خير. وين نلقاك؟ رايحين غرفة العمليات. شـــويّ وأجيك. فيصل يحث الخطى، محمد أكبر أيضًا.

وصلا إلى غرفةِ عمليات أمن الحرم، كان كلٌّ من سعود ومازن بانتظارهما. مازن يصافح فيصل، يقف على أطراف قدميـــهِ ويقبّـــل رأسَه. يختنق فيصل بغصّته، يضغط على زندي مازن ويحس بروحـــه قد شاخت آلاف الأعوام. اقترب فيصل من الضـــابط في مكتـــب الاستقبال، أشار بيده إلى أكبر: هذا الرجل فقد ابنته أيضًا. أيضًـــا؟ قبل يوم كنتُ هنا، أنا أيضًا ولدي مفقود.. أقصد مخْـــ.. طوف. إنه يتعثّر بهذه الكلمة دائمًا، تتحشرجُ بها روحُه، وهي لا تصبحُ أســـهل مع الممارسة. اغرورقت عيناهُ. يرفع الضابط سمّاعة الهـــاتف ويقـــدّم إفادة: رجلٌ هندي فقد ابنته في الحرم قبل يومين. يشير إلى كراســـي الانتظار: استريحوا. جلس الأربعة يغشاهم صمتٌ. بين دقيقةٍ وأخرى كانت الهواتف تعلنُ عن رسالةٍ نصيّةٍ جديدة. مكالمات من أقـــارب وأصدقاء تجاهلها سعود وفيصل عمدًا. بعد عشرين دقيقة نهض سعود لإجراء مكالمة سريعة، ثمّ نادى مازن لمرافقته إلى مشوار ضـــروري. خير؟ سأله فيصل.

كل خير، المبلغ اكتمل في حساب مازن، رايحـــين البنـــك نسحبه كاش، حتى نكون جاهزين.

فيصل يهز رأسه متفهمًا، ها قد جمعوا مليون دولار. فأين هـــو ابنه؟ سعود ومازن ينصرفان، يبقى فيصل مع محمد أكبر. يريحُ رأسه

إلى الجدار، يغمض. دوار رأسه يشتد، كأنهُ في البحر، رغم أن البحر بعيد. يفتح عينيه، ينظر إلى أكبر، كان يهز ركبته اليمنى ويطقطقُ بأسنانه، وضع يده على ركبةِ أكبر: أرجوك توقّف. يضغط أكبر رأسهُ بيديه.

تشجّع يا رجُل.

ولكنّها مجرّد طفلة يا مستر فيصل، مجرّد طفلة!

هل تعرف ابنتك رقم هاتفك؟

مريم ذكية جدًا. إنها تعرفُ رقمي، ورقم أمّها، ورقم عمّتها في دلهي.

هل تجيد العربية؟

إنها تجيد الإنجليزية وبعض العربية. إنها طفلة لامعة.

يغمض فيصل، يستحضر ملامح ولده، وجهه يجيء برهة، ثم ما يلبث أن يتخلله وجه مريم. شعر فيصل بجسده يرتج، كأنه يطفو في محيط. كل شيء يموج، أفكاره وهذيانات جسده. ولكن البحر بعيد. غفا دون أن يشعر، استيقظ كالملدوغ:

كم مضى علينا؟

مرّت ساعة.

نظرَ فيصل إلى أكبر الذي بدا فجأة هادئا بشكلٍ مقلق. تخشّب جسده وجحظت عيناه. قامَ من مكانه وعاود تذكير الضابط بسبب وجودهما. الضابط لم ينس، كل ما في الأمر أن شيئا لم يحدث. متى سندخل؟ ربما بعد ساعة، أو ساعتين. اختناقات بشرية كثيرة، نحن بحاجة لكل الشاشات. عاد وجثم على كرسيّه، جسده متيبّس وأفكاره متصلّبة، كاد ينسى كلّ شيءٍ عن المناسك، هل حقا قدم إلى مكة

للحجّ قبل يومين؟ أخرج هاتِفه واتصل بسعود؛ حتى الآن لم نـــدخل، نحنُ ننتظر منذ مدة. يتبادلُ شقيقك كلماتٍ مع صاحبه؛ مازن سوفَ يتصرّف. يتّصل شقيقك بعد نصفِ ساعة؛ مازن استخدم علاقاتـــه، لديه أصحابٌ مكين، لأصحابه أصحاب يعملونَ في الحـــرم. هكـــذا تجري الأمور. قبل أن تنهي المكالمة تطلبُ من أخيك؛ انشر صورة مريم على الانترنت. سعود يفعل، قلة من الناس تتفاعل مع الموضوع، الذين أعادوا التغريد والنشر قليلون. ما الذي تغيّر؟ تنظرُ إليه، تـــرى لـــو أن ولدك لم يختطف، هل كنت لتتعاطف معه إلى هذا الحد؟ هل كنـــت لتراه؟ وهل يهمّك أمر مريم، أم أنك تريدُ العثور على ولدك وحسب؟ ضبّاط الرصد في غرفةِ العمليات يتجاوبون مع مساعي مازن. ها أنت تدخلُ أخيرًا، ومن خلفك محمّد أكبر.

تدلف القاعة الشاسعة ذات الثلاثين شاشة رشد. أعمدة معدنية صقيلة، مستديرة، تتوزّع في جنباتِ المكان. أحدهم يناديك؛ تفضل يا أبو مشاري! رغم أنّهم يبحثون الآن عن مريم، لا عن مشاري.

الضابط يسألك؛ قلتم بأن الطفلة فقدت أثناء صلاة العصر، قبـــل يومين، وهي نائمة عند أحد الأعمدة القريبة من دَرَج باب الملك فهـــد؟ مرّة أخرى، يوجّه سؤاله إليك. محمّد أكبر يهز رأســـه، تهـــز رأســـك. تفضّل. يمشي أمامك، تتبعه، أكبر يتبعك. الصورة على الشّاشـــة مثبّتـــة على طفلةٍ نائمة بجانب أحد الأعمدة. يشغّل الضابط الشـــريط؛ امـــرأة منقبة، ترتدي قفازين أبيضين وخمارا طويلًا أسود، تتلفت حولها، تـــنحني على الصغيرة، تحملها تحت خمارها، تنهض، ترى الطفلة ترفس مـــرّتين، ثمّ تكف عن الرّفس. المرأة تنسلُّ خارج الحرم. تمشي مستعجلة.

محمد أكبر يسقط على ركبتيهِ، محمد أكبر يسقطُ في الهاوية.

مكّة. ساحة الحرم

8 ذي الحجة 1431

6:30 مساءً

لم يكد يعرِفها.

بدت مثل شبحٍ شاحبٍ، هزيل وأصفر.

التقاها سعود أمام بوابةِ الملك فهد، جالسة على الأرض، وسط كومة من المنشوراتِ التي تحمل صورة مشاري، تمسكُ بيدِها طيّة ورق ملوّنة، عيناها حائرتان. أنا لا أفهم. قالت وهي تعطيه الورقة. شنو هذا سميّة؟ حتى هو لم يفهم. كانت الورقة تتحدّث عن حكم الزنا، وشروط التوبة. في أسفلها صورةُ قَبر، وفي أعلاها صورةُ وردةٍ حمراء، قطرة ندى ممتلئة، تشبهُ دمعة، تخرج من لبّها. نظر إليها يستفهم. أوضحت: بعد صلاة العصر، تقدّمت منّي امرأة وأعطتني هذه الورقة، قالت لي: الله يتقبّل توبتك. طأطأتْ، سقطت دمعةٌ على حجرها. نظر إليها، إلى احمرار عينيها وجفافِ شفتيها، من هذه المرأة؟ لماذا قالت ذلك؟ فتحت فمها بصعوبةٍ. كنتُ أنشجُ في السجود، كنتُ أنشج، ربّما افترضت المرأة. افترضت ماذا؟ قولي! افترضت أنني. افترضت أنّك نادمة على خطيئة؟ افترضت أنك زانـ.. زانية؟! اغرورقت عيناها. جاشت معدتهُ قرفًا. كيف يجرؤ شخص غريبٌ على افتراضٍ مثل هذا؟ لماذا لم تلقي بالورقة في وجهها سميّة؟ مسحت عينيها بطرف كمّها. أعطتني ورقتها وأعطيتها ورقتي.

ثمَّ أشارت إلى ركام المنشورات من حولِها، وجه مشاري، غرّته وابتسامته الناقصة. زفر، مسح المكان بعينيه. الشمس غابت، الحجّاج مضوا إلى مِنى، تكادُ الساحة تخلو من الرّجال، العباءات السوداء تملأ المشهد. أنا لا أدري يا سعود. غمغمت. ما الذي لا تدرينه؟ لا أدري ماذا يجب أن أفعل، لقد صلّيت فروضي، والسّنن، وتصدّقت بمالي كلّه، خمسمئة دينار هي كل ما بقي من راتبي هذا الشهر، لقد وزعتها حتى آخر فلس، استغفرتُ كثيرًا يا سعود. استغفرتُ طوال اليوم. أخواتي وصديقاتي في الكويت، الجميعُ يؤكّدُ على ضرورة الاستغفار، قلن بأن الاستغفار من أسباب دفع البلاء؛ وأنا أستغفر طوال الوقت.. وأتوب. صدّقني يا سعود، أنا أريد أن أتوب، ولكنني لستُ متأكدة من الذنب الذي اقترفته. كانت عيناها تائهتين، موغلتين في الألم. وجد نفسه يتربّع على الأرضِ، أمامها، يهمس بسؤاله؛ أنتِ تظنين بأن مشاري قد ضاع لأن الله يريد أن يعاقبك؟ نكّست رأسها. أمسك بيدِها؛ سمية! سحبت يدها من يده وخبأتها في أكمامِها. أجفل. ليس من عادتها أن تتحسّس من لمسته. تمتمت؛ لكل شيء حكمة. غاض قلبه، تساءل إن كان سيفهم يومًا الحكمة من اختطاف مشاري. هل ثمّة معنى لهذا الجحيم؟ أريد أن أتوب يا سعود. الله يريدني أن أتوب.

اتسعت حدقتاه دهشة. رفعت إليه عينيها الحمراوين، المغسولتين بالدمع. سألت وكأنّها تذكّرت فجأة: وين فيصل؟ سميّة! كان يحدّق في عينيها بثباتٍ؛ من المرعب أن تبكين ويفترض أحدٌ بأنّك امرأة خاطئة، المرعب أكثر أنك تصدّقين ذلك. رفعت إصبعها إلى السّماء ولم تعلّق. اتسعت حدقتاه؛ هل جُنِّت؟ أردفت؛ فيصل.. ما بهِ

فيصل؟ فيصل لم يصلِّ منذ الأمس سعود. اغرورقت عيناهــا وهــي تشدّه من قميصه وتردّد؛ فيصل لازم يصــلّي! لازم يصــلّي! زفــر وحوقل؛ لا حول ولا قوّة إلا بالله. مدت إصبعها في وجهــه؛ لــن نستعيد مشاري إذا لم نصلِّ. كيف نترك الصلاة في ظرفٍ مثل هذا؟ نحن أحوج ما نكون إليه، وفيصل.. فيصل لم يصلّ فرضًا واحدًا منذ الأمس! سمية، قاطعها؛ ألا تعتقدين بأنك تقلقين على الأمور الخطــأ؟ لا! صاحت فيه. الصلاة، الصلاة هي كل ما لدينا، الصلاة هي كــلّ ما نملكه! سحب نفسًا عميقًا وزفر بصعوبة؛ ألا ترين بأنّ فيصــل في وضعٍ لا يسمح له بالتفكير إلا بولده؟ ألا تظنّين بأن الله يعرفُ ذلك؟ بحلقت فيه بعينين مذعورتين، تقوّس فمها؛ ولكنّني أمه أيضًــا، وأنــا أفكّر بولدي، وأصلّي! إن قلبــي يتفتّت، إنني أموتُ يــا ســعود، أموت.. قالت ذلك ثمّ أجهشت، دفنت وجهها في طرحتها السوداء وراحت تهتزُّ أمامه. اهدئي سميّة، اهدئي.. كان البكاء قــد غلبــها، عندما تركها باحثا عن قنينة ماء زمزم، وبعض التّمر.

عاد بعد ثلثِ ساعةٍ ليجدها، ما تزال تنشج، في ذات المكــان، وقد ألصقت جبينها على الأرضِ باتجاه الكعبة. جلس بجانبها صامتًا، انتظر أن تفرغ من سجودها. وعندما رفعت رأسها عن الأرض مــدّ يده إليها؛ اشربــي هذا سميّة. تناولت القنينة من يدِه بأصابع ترتعش، شفتاها جافّتا، صفراوان. متى كانت آخر مرّةٍ أكلتِ فيها شــيئا؟ لم ترد، بدا سؤالا بلا معنى. حسب الساعات داخل رأسه، إنها لم تأكل شيئا منذ اختفائه، منذ ثلاثين ساعة. فتح الحاوية البلاستيكية البيضاء وناولها بعض التمر؛ كُلي سميّة، كُلي. أمسكت بالعلبــة ونهضــت لتوزيعها على الحجّاج. نطّ يستوقفها؛ لا، لا.. هذا لكِ. كليه أنــتِ

سمّية. سمعها تبرطم؛ يجب أن نتصدّق. كلي شيئا سمّية، من أجل مشاري. هزّ رأسها؛ لستُ جائعة. سيغمى عليكِ إذا واصلتِ بهذا الشكل ولن تتمكني من البحث عنه بعد ذلك. هزت رأسها؛ أنا بخير. عاودت النهوض، لملمت نسخ المنشور بين يديها، كانت على وشكِ أن تنطلق لتوزيع المزيدِ من المنشورات. سمّية! كُلي بعض التمر لو سمحتِ. التفتت نحوه، نظرت إليه بعينين موجوعتين؛ قُل لأخيك بأن يصلّي وإلا فلن نستعيد ولدنا أبدًا.

مكّة. الحرم

8 ذي الحجة 1431

7:37 مساءً

غادر فيصل غرفة عمليّات أَمن الحرم، يجرُّ محمّد أكبر من ساعده. كانت الممرات قد خلت من الحجّاج، وامتلأت بالنّساء.

أكبر يقاوم، مثل طفل، يريدُ أن يُترك على الأرض، ليضرب رأسه بسطحها الرّخامي صائحًا: يا الله! فيصل لم يتركه، قبض على ساعديه وأنهضه، قال له تعال معي، سأعيدك إلى زوجتك، زوجتك قلقة.. أكبر يبكي. لا فائدة من الصراخ، هل تسمعني؟ لا أحد يسمعك هنا، أنت وحدك الآن، وحدك تمامًا! لم يكن يدري، إذا ما كان يوجّه كلامه للرّجل الذي لم يفهم حرفًا من عربيّته، أم لنفسه. ارتخت أصابعه عن ساعد الرجل، أحس بالوهن يغلبه وهو يتملّى في وحدته، حتميّتها ولا نهائيّتها؛ أنت وحدك، وحدك! هل تفهم؟ لا أحدَ لأحدٍ في هذا العالم! عليك أن تتدبّر أمرك بنفسك من الآن فصاعدًا. تحشرج صوته؛ لا تنتظر أن يخلّصك أحد، لأن أحدًا لن يأتي. اختنق بدموعه. الذين نناديهم، على وجهِ الخصوص، لن يأتوا. كان صمتُ السّماء يطبق على قلبه، ولوهلة شعر بأن هذا الهندي الأربعيني، بنظارتيه المستديرتين، المبللتين بالدمع، ورأسه الأصلع، وقوامه الهزيل، هو الشخص الوحيد الذي يفهمه في العالم كلّه؛ كان يرطنُ بالأردية، وكان يردُّ عليه بالعربية. بدت الإنجليزية، التي يجيدها الاثنان على نحوٍ جيد، بعيدة مثل طلسم،

وعاد كلاهما إلى لغته، عودة الطفل المذعور إلى أمّه. ومع ذلك، لم يبدُ أن كلمة واحدة فاتت على أيّهما من هذا الحوار. تحوّل الذعر في عيني أكبر إلى سخطٍ وهو يصيح فيه؛ **چلے جاؤ!**

اتصل سعود يسأله عن آخر الأخبار. أخبره بما رآه؛ الحكاية نفسها، امرأة منقبة ترتدي قفازين أبيضين حملت الطفلة نائمة إلى خارج الحرم. هل هي المرأة نفسها؟ لا، إنها أنحف. لا بدَّ وأن هناك آخرين. أكبر اهدأ لو سمحت وكفَّ عن محاولة إبعادي. سعود يزفر؛ لماذا لا تتركه وشأنه؟ أكبر ينشج؛ دعني يا مستر فيصل، قلتُ لك دعني. تعال معي يا أكبر وكفّ عن التصرف هكذا. سعود يقاطعه؛ يجب أن نبحث عنهم. ماذا قلت؟ لو أنّك تترك الرجل وشأنه حتى تتمكن من سماعي. تسمّر واقفًا في مكانه، ينظر إلى الرجل الذي يضرب رأسه بيديه؛ لا أستطيع. لا يستطيع أن يتركه. شيء ما أخبره بأن عليه أن يتمسّكَ بهذا الهنديّ المفجوع، كما لو كان قشّة خلاصه. سعود يعيد القول؛ قلتُ يجب أن نبحث عن باقي الأطفال. أفلتت يدهُ ذراع أكبر، تسمّر واقفا والسؤال يغلبه. ترى، هل يستطيع مشاهدة المنظر نفسه مرة أخرى؛ امرأة تختطف طفلا، الطفل يرفس تحت خمارها ثم يكفُّ عن الرّفس؟ إنهن يستخدمن القفازات للتخدير تمتم بوهنٍ. تكوّرَ أكبر في الزاوية، دس رأسه بين ركبتيهِ وراح يرطن، لم يتبيّن فيصل من كل ما قاله إلا كلمة: الله.

سعود يناديه:

وينك بومشاري؟

يزدرد ريقه:

- معاك.

هل يستطيع أن يدخل في المتاهة نفسها لأجل أطفالٍ آخـــرين؟ أكبر يمدُّ ذراعيهِ صوب السماء، مبتهلاً. أنا متأكد من وجود أطفـــال آخرين، ولكن لماذا تريدنا أن نبحث عنهم؟ لماذا لا نبحث عن ولدنا فقط؟ سعود يجيبه؛ واحدهم يدلّنا على الآخر. يشعرُ بأنفاسهِ تضيق. عصابات نسائية تتسلل بين الحجاج، إلى الحـــرم، تخـــدّر الأطفـــال وتسرقهم. كم طفلا فُقد بهذا الشكل يا ترى؟ بلع ريقـــه بصـــعوبة. كان يشعر بالعطش. من أين سنحصل على معلوماتٍ عـــن البقيـــة؟ نستفسر عمّن قدّم بلاغًا في الأيّام الماضية، مازن يستطيع المساعدة.

نظر إلى أكبر، كان قد ألصق جبينهُ على الأرض، سجد متوجّهًا إلى الكعبة، تعالى نشيجهُ. فلنبحث عن آخرين. أغلق هاتفه، وتقـــدّم خطواتٍ باتجاهِ الرَّجل، يستحثه على النهوض.

مكّة. سطح الحرم

8 ذي الحجة 1431

11:47 مساءً

كان الحمامُ يطوفُ فوق الكعبة، في طوافٍ موازٍ. الحرم خـال إلا من النساء وعمال التنظيف والعساكر. السماءُ معتمة، مكة مضيئة ومشرّعة العينين، مستيقظة إلى الأبد.

صعدَ الشقيقانِ إلى سطحِ الحرم، بحثا عن مكانٍ هادئ، جلسـا مطلّين على الكعبة، والأوراق بين أيديهما. كان مازن قد جمع مـن مراكز الأمنِ ومراكز رعاية التائهين جميع البلاغات المقدّمة من أسـرٍ فقدت أطفالها. أطفال إرتريا وإثيوبيا وتشاد، طفلة من الهِند. تحشرج صوته وهو يضيف: وطفل من الكويت.

يغمض عينيه فيحضر الوجه، شامة العنق، الفراغ في الأسـنان الأمامية. تحضرُ الأشياء الصغيرة تترى، تنفرُ من دمِه. كأن دمـي، في تدفقهِ المحض داخل أوردتي، يؤلمني. هكذا فكّر. قلّب الأوراق في يدِه؛ أربعة أطفال؟ هز سعود رأسه: لا بدّ من وجود آخرين. يبدو غاضبًا، وهو يتفحّص الأوراق بين يديه، عاقدًا حاجبيه. ماذا تقصد؟ أقصـد أطفالًا آخرين، غير هؤلاء. وما الذي يجعلك متأكدًا من وجـودهم؟ سعود يلقي بالأوراق من يده. هذه هي الحـالات الـتي تم إبـلاغ السلطات بشأنها، هناك بالتأكيد آخرون لم يبلغوا. ولماذا لا يبلّغ أحدٌ عن اختفاء طفله؟ رتلٌ من رجال التنظيف، بزيّهم الموحد الأخضـر،

يهرعون لمسح الممرات. طافت بهم عينا أخيه، عاد يسأله؛ لو كنتَ مقيمًا بصفة غير قانونية، أو مهاجر غير شرعي، أو مخالف، أو متسوّل.. هل كنت ستلجأ للدولة للعثور على طفلك؟

سادَ صمت، نظر فيصل إلى وجهِ شقيقه، الفم المزمومِ والحاجبين المتواطئين، يحاولُ تفكيك الأمر وإعادة تركيبهِ. عادَ ينظر إلى الأوراق؛ إريتريا، إثيوبيا، الهند، الكويت، ما الذي يجعل من هؤلاء الأطفال مجموعة متجانسة، إلى جانب كونهم أطفالاً؟

كلّهم فقراء.

إلا مشاري.

أطفالٌ فقراء ومعدمون ولا يثير اختفاؤهم ضجة كافية. لماذا تسعى عصابة وراء أطفال الفقراء؟ أطفالٌ لن يوزّع آباؤهم منشورات بمبلغ مليون دولار. ماذا تريدُ العصابة منهم؟ طفلك يختلف عن الباقين وأنت تعرف ذلك. بوسع الخاطف أن يتصل بك الآن ويطلب ملايين الدولارات، ولكن ماذا عن مريم والآخرين؟ تمتم سعود، وكأنه يستشفّ أفكارك. هذا الخاطف لا يريدُ مالاً؛ البيزات ما همّه. تشعر بقلبك يهوي عميقًا في الحقيقة، أطرافك ترتعش. لم يسبق ليأسك أن كان أشد. الخاطف لا يريد مالاً إنه لا يريد المليون دولار التي تصدح بها المنشورات، إنه يريد طفلك ذاته، لذاته. ارتعش صوتك وأنت تسأل شقيقك:

البيزات ما همّه، عيل شنو يبي؟

ما أدري.

هل يجهلُ سعود الاحتمالات المعتمة التي تتربّص بهؤلاء الصّغار؟ أم أنه يتعمّد عدم ذكرها حتى لا يثير ذعرك؟ وجدَت نفسك تفكّر في

مريم، بالبنجابـــي الأزرق وقرطيها الذهبيين. ما الذي يجعل مريم مثل مشاري؟ لا شيء إلا الطفولة. طفولة الاثنين هي القاسـمُ المشـترك الوحيد. عبثا تزعمُ العكس. العالم يولولُ منذ ساعاتٍ على اختفـاء مشاري، ولا تهتزّ له شعرة من أجل مريم. أنت محظوظ، سعيدٌ لأنك محظوظ، ولكن مريم، وجهها، قرطيها.. إنها لا تتركـك وشـأنك. واليوم، أنتَ مثلهم جميعًا، تقفُ على نفس الدرجة مـن الإنسـانية، درجة تحت الصّفر، طفلك مخطوفٌ مع أطفال آخرين؛ مـن إثيوبيـا والهند وإرتريا وتشاد. أموالك لا تحدث أي فرق، وأنهار النفط تحت قدميك، وزي مهندس البترول الذي جاء به شقيقك، لا يحـدث أي فرق. أهلاً بك في جحيم العدالة، في المكان الوحيد الذي يساوي بين البشر؛ في عالمِ الجريمة.

يومٌ ثالث

مكّة. برج هاجر

9 ذي الحجة 1431

3:02 صباحًا

سميّة تعرفُ بأنها لن تنام، ولكنها مع ذلك تحاول.

كانت سكرى من فرطِ اليقظة. أمضت اليوم بطوله في ملاحقة الأطفال، هنود وأفغان وباكستانيين وأفارقة. تفتح لهم علبة شوكولاتة جواهر اشترتها من أسواق بن داود. كانت تستخدمها لتشدّ اهتمام الصّغار، يقترب واحدهم لتناوله قطعة، تسأله ما اسمك؟ عبد الفضيل. من أين أنت؟ الخرطوم. كم عمرك؟ سبعة. ما شاء الله، أنت كبير وبطل، مثل ولدي.. أريك صورته الآن، انظر، هل تراه؟ إنه ولدي وهو في مثل عمرك. تحب باتمان؟ مشاري يحب باتمان. هل رأيت ولدي في مكانٍ ما؟ لا؟ اسمع.. أخذته امرأة مسكينة. اختلط عليها الأمر وظنت أنه ولدها، ولكنها ولدي أنا. إذا رأيته، إذا رأيت المرأة التي أخذته هل تخبرها بذلك؟ أنا غير غاضبة منها، وكل ما أريده هو ابني. إنه ابني ويريد أن أكون أنا أمّه، أنا لا هي. طيّب؟ يضحكُ الصبي على المرأة المجنونة، ويفلت ركضًا. تبحثُ عن صبيٍّ آخر، وآخر، وآخر.. لقد ركضت طوال اليوم. ركضت تعلّق على

كتفها حقيبة فيها زوجٌ نعل كروكس ملفوف بكيس نايلون أزرق شفاف، مصحف بغطاء مخمليّ بنفسجي، وسجادة صلاة خضراء. كانت تحمل أيضًا عشرات المنشورات، وعلبة شوكولاتة. امرأة مجنونة، تحمل العالم كلّه في حقيبتها وتتحرك في جميع الجهات.

دقّات قلبها لم تنتظم منذ اختفاء الصبي. على الطاولة الجانبية مجموعة أقراص منوّمة. لا تذكر سميّة كم قرصًا أخذت. الأكيد أنها تجاوزت الأربعة. قال سعود بأن عليها أن تنام حتى تتمكن من البحث بشكلٍ جيّد. حذرها فيها؛ سيغمى عليكِ إذا واصلت بهذا الشكل ولن تتمكني من البحث عنه بعد ذلك. وهي.. تحتاج أن تبحث، سوف تبحث من كلّ قلبها.

تناولت الأقراص واحدًا بعد الآخر، خلال نصفِ الساعة وجدت نفسها أكثر يقظة، وكانت الأشياء في الغرفة قد بدأت تتحرّك وتتكلّم. امتلأت الغرفة بعشرات الأطفال، يركضون، وهي تركض وراءهم: قل لها أنا غير غاضبة منها! قل لها ذلك! هل تريد شوكولاتة؟ تعال أشتري لك سكاكر، تعال أشتري لك وجبة أطفال من مكدونالدز، تريد دجاجة من الطازج؟ هل أذهب معك لنخطّ اسمك على رخامة؟ هل تريد ميدالية مصنوعة من قلم خشبيّ؟ أخبرني ماذا تريد وأنا أحضرهُ لك. تعال.. تعال.. تعالوا يا أولاد فأنا سأشتري لكم ما تريدون. ثم رأته بينهم. لم تصدّق عينيها، كان ينظر إليها ويضحك بملء فمه. مشاري؟ هذا أنت؟ هذا أنت حبيبي؟ كان يركض في صحراء رملية، صوب تلٍّ ذهبيّ، كما فعل في الكويت في الشتاء الماضي. في مكانٍ غير بعيد من بر الصبية، ذهبوا لأنه أراد أن يتزحلق على الكثبان، كان يضحك. ركضت سميّة

خلفه؛ أنت هنا؟ أنت هنا حبيبـــي؟ امتلأ شعره بالرّمل، وهبطـــت غرته الكثيفة على عينيه. كان يجب أن أعرف! كان يجب أن أعرف بأنك هنا، أنت تحبّ التزحلق! مشاري يركض. مشاري يمه! يناديها؛ ماما؟ يختفي وراء الكثيب. ماما دوريني! يمه! وينــك يمــه؟ وينــك حبيبـــي؟ وين رحت؟ سميّة تركضُ، ممدّدة على ظهرهــا ولكنــها ترفس بقدميها، تحلمُ بعينين مفتوحتين.

عندما عاد فيصل إلى الغرفة، وجدها منكبّة على وجهها، جاثية على ركبتيها، جبينها ملتصقٌ بالسجّادة، كأنها تسجدُ، والكعبة مـــن ورائها.

كانت تنوحُ من كلّ قلبها.

مكّة. برج هاجر

9 ذي الحجة 1431

8:06 صباحًا

فيصل يزرّرُ دشداشته. سُميّة تحدّق في السّقف.

الكلماتِ تتيبّس في فمِه. كان لديه الكثير ليقوله عن ليلة أمس، لولا أن الكلمات تمكث في فمِه، متحجّرة وجافة. صار يخافُ مما يمكن قوله، احتمالات لا نهائية للأذى، تكمن في كل كلمة. أراد أن يغادر الغرفة بأسرعِ وقت، قبل أن تدخل سميّة في الكلام، وتلوّث كل هذا الصمت. وضع يده على مقبض الباب يهمّ بالخروج، سبقته بالسؤال:

نمت؟

لا

يريدُ أن يخرج من الغرفة. ولكنّ شفتاها تنفرجانِ مرّة أخرى، صوتُها يسيلُ ممزقًا، مبحوحًا، بعد عبور محيطاتٍ من البكاء:

وأنا؟ أنا نمت؟

يدير مقبض الباب، يدهُ تتلكأ.

ما تذكرين؟

لا.

وجد نفسه يشرح؛ لنقل بأنّك أمضيت الليلة في الصراخ، وأنك تقيأتِ مرّتين، وأنني اضطررت إلى تنظيف المكان بعدكِ في كل مرة. نظرتْ إليه بتلك الأعين المأخوذة، المليئة ببراءة الجهل التي لا تطاق:

ما أذكر!

أحسن لك. حاولي تنامين شويّ..

بنـــزل الحرم.

على راحتچ.

أدار مقبض الباب، ولكن قدمه تسمّرت مكانها فجأة. عـــاود إغلاقه ليسأل:

سمية، شنو الدّوا اللي أخذتيه أمس؟

نظرت إلى المنضدة بجانبها. أمسكت بشريط الأقراص وقرّبته من عينيها، قرأت الاسم: Stilnox. سألها من أين أحضرتِه؟ وجدتهُ بين أقراصي، إنه منوّم. زفرَ.. أرجوكِ، لا أحتاج إلى هذا الآن، ليس الآن سميّة. لم تفهم. ما الذي لا تحتاجه؟ لا يمكنني أن أقلـــق بشـــأن مـــا تفعلينه، وبشأن ما يمكنك فعله، وكل الفوضى التي تتسببين بهـــا، ثم أبحث عن ولدي، كان يمكن أن تموتي بالأمس، وأنا لا ينقصـــني إلا هذا. نظرت إليه غير مصدّقة: كنتُ أحاولُ أن أنام فقـــط. أشـــاح عنها؛ إذن ربما يجب أن تكفّي عن المحاولة. ماذا تقصد؟ من المـــدهش أنّك تفكّرين بالنوْمِ حتى.. شهقت. تفكّرين بالنوم، بالصلاة، ولـــدكِ مخطوف وأنتِ.. اختنق صوتها؛ لماذا تظنّني أنام؟ ها؟ إنني أفعل ذلـــك لأجلِه! لأجلِه هو! صعّر خده، نخر بأنفه ساخرًا. اغرورقـــت عينـــا سمية، وصارت تلوّح بيديها؛ لم أعد أرى بوضوح، لم أعـــد أسمـــع. وقعتُ على الدَّرجِ مرّتين، صرت أكلّـــم النـــاس ويضـــحكون، ثم أكتشفُ بأنني لا أقول أشياء مفهومة. خطر لي.. أنني إذا نمتُ، ربما لساعتين، سأبحث بشكلٍ أفضـــل. دموعهـــا، ضـــعفها، تلويحات ساعديها؛ هذا كثير، شعر بأنفاسهِ تضيق؛ لا تبكـــي الآن،

سمية. لا أحتاج أن تبكي الآن. انتحبت؛ أنتَ تلومني! وجد نفسه، لأوّل مرة منذ اختفاء مشاري، يصرخُ: أنا ألومك؟ أنا؟! هل فتحتُ فمي مرّة واحدة واهمتكِ بأنك السبب؟ بأنك أنت التي أفلتِّ يده؟ هل فعلتُ ذلك؟

نظرت سميّة في عينيه عميقًا؛ انظر في عيني فيصل وأخبرني أنّك لا تلومني على ما حدث، انظر في عينيّ الآن. لم يقدر، أشاح ببصره. فاضت عيناها بالدّمع. تحجّر صوته واكتسى بثقلٍ مفاجئ؛ كانت فكرتك، أن نأتي بهِ إلى مكة، أليس كذلك؟ أخفت وجهها خلف راحتيها وراحت تنوح؛ وهل أترك صبيًا في عمره مع جدته العجوز؟ سيجنّنها! سمية لا تكذبي. خرج صوته هادئا هذه المرّة. كان يمكن أن نتركه مع سعود، مع إحدى شقيقاتك، ولكنك أردتِ أن يأتي ليرى الكعبة، وأنا.. أنا ابن الكلب، أردتُ تطييب خاطركِ، طاب خاطرك سميّة؟

رفعت رأسها تنظر إليه من بين دموعها. مدّت سبابتها في وجهه؛ لو كنت حريصًا على ولدك لماذا كنت تطوف وحيدًا؟ لماذا لم تطُف بجانبي؟ لماذا لم تمسك بيدي؟ لماذا لم تمسك بيدِه؟ اخرسي! صاح بها، احمرَّ وجهه واغرورقت عيناه. أحس بملايين الأيدي تطبق على عنقه. كنتَ تسبقني بشوطٍ حتى! أجهشت. حاول أن يستذكر ما حدث، متى صارت بينه وبينها كل تلك المسافة؟ سميّة خطوها قصيرة، ومشاري أيضًا. وجد نفسه يمشي أمامهما، سبقهما بشوط، كان يلتفت بين لحظة وأخرى، كان يلتفت..

لا أحد مذنب فيصل. استدركت وهي تنشق، تمسح عينيها وأنفها بالمنديل. ليس بإمكاننا دفع القدر. صعّر خده؛ على من

تضحكين! أفلتت نخرة من أنفه. بماذا كنا نفكّر سميّة؟ جلبنا طفلا في السابعة إلى مدينة تغص بملايين البشر. بماذا كنا نفكّر؟ ازداد صوته خفوتًا وهو يسأل؛ بماذا كنتِ تفكّرين عندما تمنّيت لولدك أن يرى الكعبة؟ ها قد رآها الآن، فهل حصلتِ على تذكرة دخولكِ إلى الجنة؟ هل حصلتِ على حسناتك التي كنتِ تريدين؟ هل أنتِ راضية.. سميّة؟

كيف يمكن أن تقول شيئا كهذا؟ بحلقت فيه، ذاهلة. زفر؛ سيكون من الأفضل أن نتجنّب بعضنا هذه الفترة، سمية. لم أعد أحتمل رؤيتك.

هذه المرّة لم تتلكّأ يده. أدار مقبض الباب وهرعَ خارجًا.

مكّة. بين مركز مكة والأبراج

9 ذي الحجة 1431

8:47 صباحًا

في السّكة الواسعة بين الأبراج ومركز مكّة، وقــف الثلاثــة؛ فيصل، سعود، ومازن، بمحاذاةِ المتاجر القديمة على الواجهة الخارجية لمركز مكة؛ متتالية دكاكين تبيعُ البضائع نفســها؛ سُــبح ملوّنــة، سجاجيد صلاة، مسكٌ جافٌ، ساعات تؤذن للصلاة، أقلام كحــل وقلامات أظافر. صوتٌ جهوري يتسرّب من تلفزيون صغير مثبت في الزاوية العلوية للدّكان القريب، الشيخ يخطبُ: أيها الحاج، إنــك لا تستطيع أن تتصوّر عظم الثواب الذي يغدقه الله عليــك إذا كــان حجّك مبرورًا، ووقفت في عرفات طائعًا. فيصل يتمتم؛ اليوم عرفة؟ نظر حوله. ساحة الحرمِ خالية من الحجّاج، وقد امتلأت حتى أطرافها بالنّساء، عباءات سودٌ تتعاقب شبرًا بعد آخر. ما الذي يحدث هنــا؟ إنه تقليد مكّي. يشرح له مازن. في يوم عرفة يــذهب الرجــال إلى الحج والعمل، وتذهب النساء إلى الحرم. مسح بعينيه جحافل السواد التي تسيّدت المكان، باحثا عن خمارِ المرأة التي.. الشيخ في التلفزيــون يهتف؛ إنك لا تستطيع أن تتصوّر معنى مضاعفة الأجــر ســبعمئة ضعف، وليست سبعمئة مرّة يا أخي الحاج! يحمل الشيخ ورقة تبــدأ بمضاعفات الواحد وتنتهي بمضاعفات الواحــد والعشــرين، يشــير بإصبعه إلى الرقم واحد وعشرين ويقول؛ مضاعفة الواحد والعشرين

ضعفا تبلغ 1048576.. فكيف إذا تضاعف سبعمئة ضعف؟ إن الناتج من هذه العملية لا يقرأ ولا يكتب.. هذا هو جزاؤك أيها الحاج على كلّ حسنة.

أحس فيصل بجفافٍ في ريقه وهو يرى الأرقام تتمدّد أفقيًا كلما هبطت سبّابة الشيخ إلى أسفل الورقة. لا زال عاجزًا عن تصديق الأمر؛ اليوم عرفة؟ يكاد لا يصدّق بأن الزمن واصل المضي بالكيفية نفسها بعد اختطاف ولده. أن ملايين الحجّاج سيذهبون إلى الحج ببساطة، وكأن عالمه لم يتعرّض لهذا التدمير الشامل. أحس بأنَّه مطرود، متروك، تحت سماء صامتة. سرح بعينيه في الأرقام المصطفّة على الورقة بين يدي الشيخ، ذي الابتسامة المطمئنة، والسبّابة الغليظة، وهو يحسبُ الأرباح في تجارةٍ لا خسارة فيها. تذكّر سميّة، فار الدّم في عروقه. اقترب من الدكّان وتسمّر أمام التلفزيون.

جاءهُ صوت مازن محدّثًا زوجته على الهاتف. ألقى نظرة على الرّجلِ الذي جاء لكي "يعين ويعاوِن" عندما رآه للمرّة الأولى، كان يرتدي الثوب السعوديّ الأبيض، حاسر الرّأس، مشمّرًا عن كمّيه من فرطِ ما انهمك في توزيع المنشورات، وقد اصطبغت أصابعه بالحبر الأسود. يراهُ الآن بالبنطلون الرياضي القطني، والبلوزة البيضاء، يبلغ زوجته:

ماني راجِع جدَّة دَحّين.. ما أَقـدَر أَسيب أصحابي كده.

ابتسم فيصل؛ ما الجدوى؟ من الذي يستطيع التصدّي لجريمة في مدينةٍ بهذا الامتلاء، وهذه القدسية؟ رفع ناظريهِ إلى السماء،

برج الساعة نابتٌ في المكان، مثل صاريةٍ. الثامنة وسبع وأربعون دقيقة. أصبح واضحًا بالنسبة له أن الزمن في صفّ الخاطفين. يدٌ صغيرة تبسط راحتها أمامه: أعطِني من مال الله يا حاج. لستُ حاجًا. الشيخ يتلقّى اتصالات المشاهدين. امرأة تسأل عن حجّ الصغير. أحس فيصل بمعدته تتقلّب. يا شيخ! هل لي أجرٌ إذا حجّجت معي ولدي ذي الخمس سنوات؟ أومأ الشيخ برأسهِ والابتسامة لا تفارقه؛ يا أختي، ليس على الصبي حج، لأن من شروط الحج البلوغ، فإذا حج مع والديه صحّ حجه، وللصبيّ ثواب حجَهِ ومثله لمن حجّجه. أحس فيصل بأحشائه تضطرب، انثنى على نفسهِ قابضًا على معدته، يحاول أن يمنع جيشانها. ثواب حجّ الصبي لمن حجّجه. ووزر اختطافهِ.. على من؟ اقترب سعود يسأله: علامك؟ يهز رأسه وهو ينهض، متكئا على ركبتيه: ماكو شي. يرن هاتفه. ينظر إلى الاسم النابض على الشاشة، يزفر: إنها لا تكفّ عن الاتّصال.

منو؟

أمّي. ماقدر أسمع صوتها.

أنا أرد عليها.

يلقي بالهاتفِ إلى يدِ أخيه ليتولى مهمة سردِ تقارير الفجيعة؛ هلا يمه. الحمد لله. لا والله يمه، أبد والله، إن شاء الله نلقاه اليوم، ادعي لنا يمه. فيصل مشغول يمه، يكلمك تالي، بحفظ الله..

نظرَ إلى شقيقه بامتنان، كأنه افتداه. أقفل سعود الهاتف، وهمّ بإعادته إليه. لحظات وعاودَ الرّنين، رقمٌ سُعودي، غريب، ينبض على الشاشة. سعود ينظرُ عميقًا في عيني فيصل، فيصل يمدّ يده يطلب

هاتفه. سعود يقبض على الجهاز. سعود عطني التليفون! سعود أقولك عطني التليفون! عطني إياه! سعود!

سعود يوليهِ ظهره، يبتعد خطوة، يقرّب السماعة من أذنه.

نعم؟

- أنا أخذت ولدك..

الفصل الرابع

عَسير

عسير. وادي رادة

9 ذي الحجة 1431

3:40 صباحًا

وجهُ روينا ينقسمُ على نفسهِ. شرخٌ طوليّ ينـــزلُ مـــن أعلـــى المرآة إلى أسفلها. لم يكن في الحمّام إلا مرحاضًا عربيـــا مكســـورًا، وإبريقا للاغتسال. وقفت أمام المرآة تحدّقُ في وجهيها المشـــروخين طويلاً؛ كدمة في زاويةِ فمها، جفنها الأيسر متقيّح. عندما اقتربـــت أكثر من انعكاس وجهها رأت نقطًا حمراء صغيرة تنتأ من خدَّيها.

مضى زمن طويلٌ على آخر مرة رأت فيها هذه النقط الحمـــراء. كان ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا، في مخيّم ليتشور، عندما أخـــذت خالتها تخلع عنها بشرتها السَّوداء، وتشحبُ على نحوٍ مؤلم. رأتها روينا تتقيّأ الكثير من الدَّم، ثم تحوّل قيؤها إلى اللَّونِ الأسود، وصارت تزحرُ كمن يتقيأ أحشاءه. عندما رفعت عينيها في وجهِ روينا، كانت خيوط الدَّم تسيلُ على جانبـــي فمها، وكان بياض عينيها قد اصفر بالكامل. ركضت روينا خارجًا، تصرخُ بين الخيام من كلّ قلبها، وقـــد امـــتلأ وجهها بالنقطِ الحمراء. عندما عادت، كان رجالُ مفوضية اللاجـــئين يحملون المرأة على نقّالة خشبية، وقد غطّيت جثتها بقماشٍ أبيض.

حاولت روينا أن تتذكّر وجه المـــرأة؛ المـــرأة الـــتي رعتـــها، وشاركتها الخيمة، المرأة التي تناديها "خالتي" لم تقدِر. كأنَّ برزخًـــا جداريًا هائلاً يقفُ بينها وبين حياتها الماضية.

مالت بجذعها لترفع طرف ثوبها، لفّت القماش حول وسطِها وربطته بإحكام. ملأت السَّطل بالماء واغتسلت. إنها اللَّيلة الثانية على هذه الشاكلة، يدفن وجهها تحت الوسادة، فيم يده الأُخرى تتحسّس طريقها بين ساقيها. بعد أن فرغ منها، سألها إن كانت ستلفُّ له السَّجائر. زرّرت ثوبها بصمتٍ وغادرت. أتبع رحيلها بضحكة. لقد انتهى كلّ شيء.

ظهر أمس، استغلّ جرجس اجتماع البقية على الغداء ليضربها للمرة الثانية. وفي اللَّيل، ورغم عينيه المثبّتتين على صالحة، ناداها لفراشه. مرّة بعد أخرى؛ سكبت المياه على نصفها السفلي؛ مكمنها، فخذيها، ونزولاً إلى ربلتيّ ساقيها. دعكت جسدها بالصّابونة، ثم أرخت ثوبها من جديد، وأغلقت أزراره العلوية. خلعت خمارها وعلقته على كتفها، فانتشر شعرها الأجعد حول رأسها. ضفائرها مرتخية، بيضاء في منبتِها، حمراء في أطرافها. قرّبت وجهها من المرآة. حدّقت فيه. الرُّضوض الطافية على أديمها الداكن؛ إنها مألوفة إلى حدٍ مزعج. لا تدري لماذا تتذكّر أشياء كهذه الآن؛ امرأة تنزفُ من جلدها، من أمعائها. لقد شاهدت روينا دماء كثيرة في حياتها، سطولاً ودلاء تكفي لإغراق صحراء. ولكنّ دمها اليوم، جفنها المتورّم، ضفائرها الشعثاء، وجرجس الذي يقبض عليها من شعرها.. لأوّل مرة، تشعرُ روينا بأنها مُتعبة. اغرورقت عيناها، فغسلت وجهها بسرعة. لا تعرف من أين تأتيها كل هذه الصور؛ أشياء نسيت وجودها في داخلها، أشياء تعود إلى أزمانٍ سحيقة، كانت تُبْعَث من أعماقها، نابضة ومتوهّجة.

عندما كان جرجس يضغط بكوعه على الوسادة الجاثمة على وجهها، شعرت بأفكارها تتطاير في الأماكن كلّها؛ تعاقبت في

ذاكرتها صورٌ قديمة من اليوم الذي التقتهُ فيه؛ طفلاً في الخامسةِ من عمره، يصرخ باكيًا بين جثمانيْن. مثل آلاف اللاجئين، توفي والداه بالحمّى الصفراء. الحمّى التي أخذت خالتها قبل أسابيع قليلة. كانت الدُّموع تسيل على خدّيه، والمخاط يسيلُ من منخريه، ولم يكن له أحدٌ في هذه الدنيا.

تشاركا الخيمة منذ ذلك اليوم، وحسبها الجميع أخته الكبيرة. كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما وجدت نفسها مسؤولة عنه. صارت تحمله على كتفيها عاليًا، واقفة بين آلافِ اللاجئين، تطالب بحصّتهما من الحليب والشعير. وفي الأيّام التي جاء فيها الصّحفيون والمصوّرون، كانت تحمله على ظهرها وتركض به إليهم، لكي يلتقطوا له الصّور، ويظهر في الأخبار. كانت تلك واحدة من التسالي النادرة التي يحبّها. لا زالت تذكر ساعات الوقوف الطويلة أمام خيمة المفوّضة، تتفطّر قدماها ألما فوق الحصى الأبيض المدبّب، لكي تحصل لهما على ملابس جديدة. تذكرُ رجالاً مجهولين كانوا يدفعونها إلى إحدى الخيام. تذكر أيديهم تطبق على فمها، تتحسّس ما تحت ثوبها. كان جرجس، شقيقها المفترض، ينتظرها خارج الخيمة باكيًا. تذكرُ روينا موسم الأمطار، عندما تغرق الخِيام، وتتهدّم المراحيض. كانت تحمله فوق كتفيها وتخوض حتى ركبتيها في المياه الطافحة بالفضلات، باحثة عن بقعةٍ مرتفعة. تعثر على طربال، تصنع منه سقفًا، ثم تجلس معه لمراقبة الرجال المنهمكين في تصريف المياه إلى النّهر القريب. كانت تتساءل أحيانًا، وهي تنظر إلى وجهه، إن كانا من الأرضِ نفسها. جرجس، روينا، اسمان أطلقا عليهما من قبل إدارة المخيّم، أسوة بكل الذين لا آباء لهم، اسمان يشبهان أسماء أهالي

المنطقة. ومثل الجميع، تحدّثا الأمهرية. كانت تتساءل عن سبب وجودها في ليتشور. أخبرها خالتها بأنها عثرت عليها، طفلة رضيعة مرميّة فوق أكياسِ الشعير الفارغة، مغطاة بالدّم والشمع الأبيض، وحبلها السّريُّ لما يُقطع بعد. مثل آلافِ الأطفال في المخيّم، كانت على الأرجح ثمرة علاقةٍ محرّمة. حاولت أن تعرف من جرجس من أين جاء، ولكنه لم يعرف عمَّ تتكلّم. سألت الناس عنه، لا أحد عرف. في مخيّم يغص بمئات الآلاف من البشر، لماذا يبالي المرء بتفاصيل من هذا النوع؟ تساءلت إن كانت أسرته قد نزحت بسبب نزاع مسلّح، أو مجاعة، أو وباء. يستطيع المرء، إذا عرف السبب، أن يخمّن المكان الذي جاء منه. كانت عندما تنظر إلى وجهها، إلى وجهِ جرجس، لا ترى أيّ فرق. ولكن الآن، وهي تتملى نفسها في المرآة، لم تعد تشبه نفسها حتى.

لقد اعتنيتُ بك طوال عمرك، قالت له بالأمس، فثارت ثائرته. يريد أن يتنصّل من هذا التاريخ القديم الذي يشدُّه إليها راغمًا. تاريخ اليتم، والجوع، وليالي الحمّى. يظنُّ نفسه قادرًا على مغادرته، قادرًا على التملّص من حقيقة أنها هي، روينا، الشخص الوحيد الذي يعرفه في هذه الدنيا.

ما الذي أعاد ليتشور إلى ذاكرتها؟ لقد غادرته منذ ثلاثين سنة. حدث ذلك ليلا. أطبقت قماشة سوداء على عينيها، واقتيدت إلى سيّارة جيب أخذتها وجرجس إلى حياتهما الجديدة. إحدى الميليشيات المسلحة كانت بحاجة إلى مجنّدين. اختطفوا عشرة أطفال، كلّهم أيتام. تغيّرت الأمور بعدها؛ ملابس نظيفة، طعام كثير، أدوية ولقاحات. لم تكن مخيّرة فعلاً بشأن المهام التي تطلب منها. في البداية

وضعوا المسدّس قريبًا من رأسها لكي تسكب البلاستيك المذاب في عيون الأطفال. بعد أشهر، لم تعد تفكّر في الأمر، صارت تفعله وحسب.

كبر جرجس بين الخاطفين، صار يحملُ سلاحًا، وصار عنده مالٌ ونساء وطعام. هو يسرق الأطفال، هي تلحق بهم الإعاقة. عملا معًا، وتفاهما بشكلٍ ممتاز، وطوال تلك السنوات كان يأتيها. تتعاقب النساء على سريره ولكنه يعود إليها هي، روينا؛ المرأة التي هي مزيجٌ من أختٍ كبيرة، وخدينة متمرّسة.

فتحت روينا باب الحمّام وخرجت، تتهادى في مشيِها، تشعرُ بأن اختراقات جرجس المتتالية لها، طوال اليومين الماضيين، ورأسها التي ارتطمت عشرات المرات بالأرض الإسمنتية القاسية، والغبارُ الذي سقط على وجهها فيم رأسها يصطدم بالحائط مرارًا، وخمارها المبعثر، كلّ شيءٍ يتداخلُ فيها ويمنحها صفاءً ذهنيًا طارئا، كأنها تطفو فوق نفسها. فتحت باب البيت وجلست على الدّكة، تتأمّل شروقَ الشّمس. رأت القفر متراميًا أمامها وجبالُ عسير المهيبة تطبق على المشهد، كأنها تعصرُ قلبها وتستخرج ماءه. غابات العرعر، أشجار السدر، الطلح، السرو، العتم.. حساسين، عصافير دوري. أغمضت عينيها فامتلأ صدرها بتفاصيل مغايرة؛ طريق الحصى الأبيض الممتدّ بين خيامٍ مأهولة بالجائعين السُّود، بخدودٍ غائرة وعظام ناتئة. ولأوّل مرة، منذ سنواتٍ طويلة جدًا، شعرت بأنها تحنُّ إلى خيمتها الصغيرة في ليتشور، إلى براءتها المكسورة على نحوٍ لا يمكن إصلاحه.

عسير. وادي رادة

9 ذي الحجة 1431

6:03 صباحًا

أوقف عثمان الكابريس الزرقاء أمام مدخل البيت، فانتشرت حولها سحابة من غبار. أطفأ المحرّك وترجّل مستعجلاً، قابضًا على لفافةِ ورق بيمناه وجريدةٍ مطوية تحت إبطِه.

وجد روينا جالسة على الدّكة، تمسك عودًا خشبيًا هزيلاً، ترسمُ به على الرّمل نُجومًا وقلوبًا وحروفًا أمهرية. وجهُها ملطخٌ بالرُّضوض. جفنُها منتفخ، بدت مجنونة قليلا، طافية مثل غيمة، تهمهمُ وتهزج.

صفقَ الباب بقوة، فرفعت رأسها تنظرُ إليه، ابتسمتْ. اقشعرّ جلده؛ يا لهذه العجوز عندما تبتسم! كان عاجزًا عن تفكيكِ وجهها؛ ترى، ماذا يسمّي هذا التعبير البارد، الجريح، السعيد؟ ظُهْر الأمس، عندما عادَ إلى البيت للغداء، وجدها تختنق بين يدي جرجس. كان يقبض على عنقها ويضربُ رأسها بالجدارِ، يقول بأنها ألحقت بهم خسارة يومٍ كامل. بسببها، لا يمكنهم النزول إلى الحرم وجلب المزيد من الأطفال؛ الدنيا مقلوبة على الكويتي ابن الكلب الذي أحضرتِه! كانت تحاولُ أن تقول شيئًا، وهي تبحلقُ فيه بعينيها الجاحظتين، ولكنّها لم.. من يعوّضني عن خسارتي؟! عندما قذفها على الجدار، نهضت وهي تفركُ رأسها بيدِها. أفلتت صالحة ضحكة

رقيعة، ثم أخفت فمها بيدها. حدجتها روينا بزاوية عينيها، ثم حولت نظراها إلى جرجس. تمتمت: الخائن لا يخون خائنًا مثله. خلع جرجس نعله وقذفها بها، ففرّت ركضًا، وعجيزها الضخمة تتراقص يمنة ويسرة. سألت أدانيا: وماذا سنفعل الآن؟ كان جرجس يلهثُ. جلس مستندًا على الجدار فنهضت صالحة تناوله كأس ماء. قال سننتظر الغد، يوم عرفة، ونأخذ خمسة أطفال على الأقل. عرفة هو اليوم الوحيد الذي يجتمع فيه جميع الحجّاج في المكان نفسه، شرطة الأرض جميعها لا تستطيع فعل شيء لاختفاء طفل، والناس لن يتركوا صلاهم للبحث عن صبيٍ مفقود. لو علم جرجس بشأن المنشور الذي انتشر يوم أمس، ماذا سيفعل؟

نظرت إليه تحييه ببشاشةٍ مشبوهة: سلام نو! صاح فيها: أقفلي فمكِ! ضحكت: حتى أنتَ يا عثمان؟ منذ أن ضربها جرجس والجميع يتجرّأ عليها. حتى هو، الفتى الغرير، الجاهل، النّحيل. لمحت اللفافة والجريدة في يده. ما هذا؟ هذا ليس من شأنكِ! زجرها وهَم يدخل. لم تتزحزح. جرجس نائم. تحرّكي من أمامي! أراد أن يتجاوزها ولكنّ ضخامة جسدها ووفرته أربكته. ضحكت من قوامِه الممصوص، وهو يحاولُ أن يعبر فوق عجيزها التي تفترش المدخل كله. أرِني ماذا تحملُ في يدك؟ فار الدّم في عروقِه، رفع قدمه وداس على فخذِها بنعالِه: تحرّكي! استغلت روينا قربه وسحبت اللفافة من يده: صورة مشاري على الورقة ومبلغ فلكيٌ مرصود، هلل وجهها: **وي لِي!** انتزع الورقة من يدِها، هاتِها! قهقهت: أخبرتكم أنه يساوي ملايين. ركَلها في خاصرها، مالت بجذعها يمينًا دون أن تكفّ عن الابتسام. كأن هذه الابتسامة الشيطانية هي جزءٌ أبديٌّ من وجهها.

تحرّكي يا ملعونة! أزاحت جسدها شبرًا إلى اليمين، لكي ينفذ إلى الدّاخل، تمتمت هامسة:

من المؤسفٌ أنه سيحصل على المال كلّه لنفسه.

اخترقتهُ كلماهًا، اضطرب، سرت كهرباء في ظهره ورأسه. التفت إليها، رآها همس؛ مليون دولار. مليون دولار. مليون دولار.

من؟ من تقصدين؟

الأحمق يعطش حتى لو كان في النّهر.

لم تكن تتحدث إلا بالأحاجي. يكاد يحفظ الأمثال التي ترددها؛ أراد الضفدع أن يكون فيلاً فانفجر. الخائن لا يخون خائنًا مثله، يدخل الشيطان مثل الإبرة فينتشر كشجر البلّوط. الأحمق يعطش حتى لو كان في النّهر. أمثالها لا تنتهي، ولا أحد يفهم ما تقصده.

ما قصدكِ؟! قولي!

لا فائدة منك.

قولي!

ولكنها كانت قد عادت إلى طورها الأوّل، وبالعودِ الخشبي الهزيل، رسمت على التراب قلوبًا، نجومًا، حروفًا أمهرية. وكانت هزُج..

عسير. وادي رادة

9 ذي الحجة 1431

8:07 صباحًا

كان عمّه يضربُ بيديهِ على مقودِ السيّارة، يواكبُ لحنًا ينسابُ من المسجّل. الله، الله! كان يردّد ويهز رأسه جذلاً اسمع بس اسمع.. صوت محمّد المسباح يتسلل دافئا ويتغلغل في جلده؛ غـدر الزمـان بشملنا فتفرّقا.. قلبه ينقبض. لا يحبّ هذه الأغنية. عمه يلتفتُ إليه. ها؟ ربطت الحزام؟ يحكم إغلاق حزام أمانه ويجلس متأهبًا. فهو يحبّ بلوزته الحمراء، والحصانُ الأسود النافرُ على قائمتيهِ من جهةِ القلب. يحبّ اللون الأصفر لسيارة عمّه، الجلد الأسود للمقاعـد، والغطـاء المكشوف، ونعله الكروكس بشعار الرجل الوطواط، نعله جديـدة، سوداء لامعة، لها رائحة المطاط. سعود يدندن مع الكورال؛ والقلبُ ذاب من الجفا وتحرّقا.. قلبه ينقبض. ينظر إلى عمّه المولـع بصـوتِ المسباح يرفع صوت المسجّل في مقاطعه المفضّلة، ثم يخفضه ليواصـل الكلام: مستعد للحج حجّي؟ يومئ. يوصيه: هالله هالله بالصُّـوايغْ الزّينة. يسأل عمّه ماذا يريد من مكّة. يقـول بأنـه يريـد حزمـة مساويك، سبحة كهرب، وعطر من جنيد. يوصيه؛ أبيـك تخلّـص فلوس أبوك. سرح بأفكاره؛ هل سيكون هناك متجرٌ للألعاب؟ عمه يضحك؛ نتفة ورايح يحِج. يحتجُّ؛ عمّي! عمره سبع سنواتٍ وثلاثـة أشهر. إنه كبير ومناسبٌ للحجّ تمامًا.

يحتجُّ ثانية: عمّي! سعود يدندن؛ هذا الفراقُ متى يكون الملتقى؟ تتوقّف السيارة قريبة من محلّ العصير. يترجّلان. يمسك سعود بيدهِ يعبران الشارِع. ينظر إلى يدِ عمّه الممسكة بيده، يراها تسمرُّ وتصغر. على أصابعها ندباتٌ سود. يرى امرأة ضخمة، منقبّة، تسأله؛ أنت تائه؟ تمسكُ بيدهِ وتأخذه بعيدًا. يعبران إلى الرّصيف؛ يتوقفان. يرفع عينيهِ، سعود تسمّر مكانه. يتغيّر وجه عمّه في كل مرة يلمحُ فيها فتاة حلوة. يزمّ شفتيهِ ويعقد حاجبيه ويهمس بكلماتٍ غير مفهومة؛ قِطعة! ثمة فرق بين أن تكون الفتاة حلوة، قطعة، كيكة، دميرة، قنبلة، أو صاروخ. ينظرُ إليها مشاري؛ بشرة حنطية وشعرٌ طويل أسود، عينان بدويّتان واسعتان وأنفٌ مستدق. يطبطبُ على كتفهِ برفق؛ جاهز لتنفيذ عملية "رسول المحبة" رقم 34؟ يهز رأسه إيجابًا. يهتف عمّه؛ سبع! ألقابه تتراوح من "النتفة" وحتى "السبع" بحسب الحاجة. تتخلّل أصابع سعود غرّته، يمشّطها، يعدلُ ياقته، يوصيه: ابتسم وسبّل عيونك! مشاري يرمش. يرى طفلة هندية تئنُّ، وامرأتينِ إفريقيّتين ترفعانِ طرف ثوبها، همسانِ. يرى بقعًا من الدّم على الفستان، يرى لحمًا ممزقًا بين فخذين هزيلين، يخيّل إليهِ بأنه يحلم، يغمضُ، يرى الفيراري الصفراء، ومتجر العصير. عمّه يدس ورقة في يدهِ. يد عمّه تسمر وتصغر هذا رقم أبوك؟ تسأله المرأة. تعال عند الأمن نتصّل به. يتبعها. يغمض. فتاة حلوة، بشرتها حنطية وشعرها أسود، تقرص خدّيه؛ ما اسمك؟ المرأة المنقبة تسأله؛ ما اسمك؟ يجيبُ الفتاة، يجيب المرأة؛ مشاري فيصل السّفار. يعطي الورقة للفتاةِ، يعطي الورقة للمرأة. هذا رقم عمّي. هذا رقم أبوك؟ ينظرُ إلى سعود، ينتظرهُ في

محلّ العصير ممسكًا بعلبتيّ الكوكتيل بالأفوكادو. يمسكُ بيدهِ ويعبران الشارع، يصعدان السيّارة. يوصيه بألا يخبر أمّه بما فعــلاه. يتخلّــل شعره بأصابعه. يفتح عينيه. يرى يد عمّه تسمر وتصغرُ، تمشط غرته. امرأة سمراء بوجهٍ ممتلئ مليء بالرّضوض تمسحُ على جبينه. يغمــضُ، يرى أصابع عمّه تشغل جهاز التسجيل. إنها الأغنية نفسها؛ والعــين تقطرُ من فراق أحبّتي، هذا الفراق متى يكون الملتقى؟ عمّي هالأغنية مو حِلوة، غيّرها..

عسير. وادي رادة

9 ذي الحجة 1431

8:15 صباحًا

صعدت روينا إلى غرفة الأطفال. جلست عند رأس الصغير تتخلّل شعره بأصابعها، ترهفُ السّمع لما يحدث في غرفةِ جرجس، أسفل السّلم.

كان الصَّبي يهذي في نومه. فأخذت تضربُ خدّه برفق؛ يا ولد! قُم، قُم، اشرب شويّة حليب. يفتح عينيهِ، يرطن. تضغطُ خدّيه لتفتح فاهُ، تسكب ملعقة من الحليب في فمِه. يسعلُ، ينظر حوله دون أن يبدو عليه أنه يرى. يغمضُ ثانية. تقحم روينا أصابعها في فمِه، تدس حبة تمر منزوعة النواة. كُل يا ولد، كُل.. الصَّغير لا يستجيب. تناديهِ باسمه؛ مشاري! حبيبي مشاري! تتبادل النساء النظر. روينا تخرقُ العادة. إنها تنادي الطفل باسمِه. التسميّات في العادة؛ يا ولد. يا بنت. يا عفريت. يا جنيّة. يا كلب. يا حيوان. يستيقظ الصغير، ينظرُ حوله. يرى أطفالاً يتجمعون في الزاوية، فتاة هندية تئن مكشوفة الفخذين، يشعر بالحبل ملفوفًا حول قدميه. تتقوّس شفتاهُ إلى أسفل، تبتسمُ روينا؛ ها هو يبكي.

أخذت تمسّدُ شعره وتمسح خدّيه. لا تبكِ يا كويتي. لا تبكِ. تبادلت النساء نظرات استنكار؛ لقد فقدت العجوز عقلها. الحنان الذي أغدقته على الصبي دفع أحد الصغار للنهوض والجلوس ملتصقًا

بها. نظرت إليه باستهجان تدفعه عنها؛ ابتعد أيّها الوسـخ! تراجـع الطفل مرتبكًا. التصقَ ببقية الصّغارِ المتكدّسين في الزاوية. ما الـذي تفعلينه؟ هل جننتِ؟ تبحلقُ أدانيا في روينا غير مصـدّقة. تجاهلتـها روينا، ألصقت فمها بأذن مشاري وراحت تهزُج.

مشاري يحاولُ الجلوس، يحاولُ أن يزحف مبتعدًا. روينا تمنعـه. أنتَ تبقى معي. يبدأ في الصّياح. صياحه يحرّض البقية. امتلأ المكـان ببكاءٍ جماعيٍّ. انظري ماذا فعلتِ! صالحة تصيح. لقد أسكتناهم للتوّ! **زَمْ بُلًّ!** تجيبها روينا ببرود وهي تمسحُ على شعرِ مشاري الذي دخل، عميقًا، في البكاء. تنشغلُ النساء الثلاثة في إسكات الأطفـال. كـل واحدة تلوّح بعصاها؛ الصَّمت! الصَّمت! تـرقص العصـي علـى المؤخرات الصغيرة، يزداد صراخ الصّغار. مشاري يهدأ فجأة، يرتخي جسده في حضن المرأة التي همس في أذنه.

دقائق ويدخل عثمان إلى الغرفة. ما كل هذا الصـياح؟ تشـيرُ أدانيا إلى روينا؛ هي السّبب! يصمت الأطفال بعد رؤيـة الرجـل. وحدها الطفلة الهندية تئنُّ؛ پني! پني! عثمان يصيح في النساء؛ أعطوها ماء! روينا تضحك؛ لا فائدة، هذه سوف تموت. يحاول الصـبيُّ أن يزحف نحو الآخرين. روينا تضمّه، تعال يا كنـزي! يا حبيبـي! همس في أذنه. ما الذي تفعلينه بالولد؟ اتركيه! روينا تعصر الصبـي في حضنها اللدن، تهزج في أذنه.

سألت بهاتي:

متى سنذهب؟

عثمان يزمُّ فمه.

– لن نذهب.

ماذا تقصد؟

لقد تغيرت الخطة. قال جرجس، واقفًا أمام الباب. عيناه على روينا.

أجفلت روينا. أفلتت مشاري من ذراعيها، فزحف إلى زاوية الحجرة والتحم ببقية الصغار، مثل شعرة بيضاء في جديلة. ساد صمت ثوانٍ، لا يخترقه إلا أنين الطفلة التي تردّد؛ پني! پني! تقرّب أدانيا للطفلة بعض الماء. هاتي تعاودُ السؤال:

وماذا سنفعل؟

روينا تنظر في عيني جرجس، تبتسمُ ابتسامة العارفِ، تجيبُ بالإنابة:

سوفَ نعبرُ البحر.

عسير. وادي رادة

9 ذي الحجة 1431

10:05 صباحًا

كان يعرفُ هذه الجبال كما يعرف جسده، ويخيّل إليهِ أحيانًا بأنّه يحبّها.

يعرفُ عثمان أين تسيلُ المياه الجارية، وأين يكثرُ السدر، وأشجار السّرو والعرعر، وأين يمكنه أن يحصل على العسل الطبيعي، وأين يقع السدّ الزراعي. يعرفُ الطريق إلى أوكار الشمّة والعَرَق، وعشوائيات الخشب، وبيوت الصفيح، ومزارع الموز. ويعرف بأنه إذا صعد هذه القمّة، فلسوف يعثر على جماعاتٍ تزوّده بأسلحة، هواتف نقالة، قارب نفخ سوزوكي، وجيب لاند كروزر بدفعٍ رباعيّ، يسع سبعة أطفال مقيّدي الأقدام، وأربعة بالغين، حقيبة إسعافات أوليّة، معلّبات غذائية، صرة ثياب، وكثيرًا من جرارِ العسلِ.

جاء عثمان إلى عسير قبل خمس سنوات. عبر الحدود اليمنية، سيرًا على قدميْه، عطِشًا، وهاربًا من جغرافيا الجوعِ الأسود، مع سبعةٍ آخرين؛ يمنيون وإثيوبيون وإرتريون. سمِع بأن الدخول إلى السعودية ليس صعبًا. ذهب إلى "حرض"، عندما سمع بأن قُراها تمثل مركزًا للمهرّبين اليمنيين، وفي قرية المبخرة، اتفق مع سمسارٍ على تهريبهِ مُقابل خمسمئة دولار. كان يفضّل العمل مع سمسار، على أن

يلجأ إلى اختراق الشبك الحدودي في منطقة سمّوها له بـ "أبي الظبرة" لم يكن مرتاحًا للتسلّل من دون مهرِّب، رغم التَّطمينات الكثيرة التي سمِعَها عن سُهولةِ الأمر. قيل بأن عليه أن يذهب إلى "وادي الشيطان"، وأنه وبمجرد أن يصل سيجد سيارات متخصّصة في نقل مجهولين، يقودها مواطنون. مقابل مئة إلى مئتين ريال سعودي سوف يأخذونه إلى جازان، ثمَّ إلى عسير، حيث يمكنه أن يختفي مع عشراتٍ آخرين في العشوائيات المنتشرة في البتيلة وحسوة ورقعاء وشوقب والعاينة ودالج، وأن يعمل في الزراعة.

استقرّ به الأمر في رجال ألمع. في البدء عمِل مزارعًا، ثم وجد نفسه يربح أموالا أكثر بانضمامه إلى مروّجي الشمة، ومصنّعي العرق، وباعة الكبتاجون. ثمّ التقى بجرجس.

كان العمل مع جرجس تجارة موسمية، تنشط في موسم العبادات، في أيّام الحج، وشهر رمضان. ثمّ تهدأ بقيّة العام. كان عليه أن يدبّرُ أمره طوال السنة بأعمال صغيرة؛ يزرع، يسرق، يصنّع العرق. يقفُ مستترًا بالظلام، في مزرعةٍ صغيرة بالقرب من كوبري رجال ألمع، ينتظر مجيء الزبائن؛ تبغى عشرة كيلو حشيش؟ موجود. تبغى كراتين وسكي خارجي قزاز؟ موجود. تبغى حبوب كبتاجون؟ موجود. يتسلل عبر عبّارات السيول، إلى المزارع والأوكار التي اشتهرت بصفتها مراكزًا للبيع. في حالة المداهمة، كان يهرع إلى الجبل من ورائه. رفاقه على الجبل يراقبون الطرق ويرسلون إشارات تحذيرية في حالة الخطر. كان يغيّر موقعه بحسب الأوضاع الأمنية، وبحسب الصّنف المطلوب. السوق عرضٌ وطلب، وهو يفهم لغة السّوق. ازدياد الشاحنات يعني ازدياد الإقبال على الكبتاجون. وهذا يعني أنه

وقت الوقوف ما بين مخطط أبو حمامة، وإشارة مثلث الدّرب. يستعين ورفاقه بالقدّاحات ولمبات الليزر ليدلّوا الزبائن إلى مكانهم؛ كم تبغى؟ ألف؟ ألفين؟ ثلاثة؟

هكذا عاش لثلاث سنوات، حتى تعرّف على جرجس من خلال أحد معارفه. رجلٌ يبدو مثل نقيضٍ له. ضخم البنية، أصفر العينين، غليظ الشفتين، تنتشر عنه الشائعات، والحكايا، والأكاذيب، والحقائق، والأساطير. يقول البعض إنه إله، ويقول البعض إنه شيطان. قيل بأنه يعمل في اختطافِ الأطفال، وأنه جزء من مافيا دولية، وأن أحدًا لا يجرؤ على لمسه. لديه مجموعة من الشبكات الضليعة في الاختطاف. ليس هنا فقط، بل في مخيّمات اللاجئين في إثيوبيا والصومال والسودان. سمع بأنه يجني آلاف الدولارات بصفقة واحدة. كان يترفع عن العمليات الصغيرة؛ الحشيش والعرق ولعِبُ الأطفال التافه الذي تمارسونه! صفقة أو صفقتين في السنة تريحك طوال العام، إنّها حياة ممتازة. سالَ ريقه، أراد أن يجرّب. انضمَّ إلى المجموعة، صار يتردّد بين مكة ووادي رادة، ناقلاً للبضائع؛ أطفال مخدّرون في صندوق السيارة، أطفال سودٌ ومعدمون ولا يكترث بهم أحد، مثلهُ تمامًا.

كان يريدُ أن يكون مثل جرجس؛ زعيمًا وغنيًا. يهابه ويثرثر عنهُ الجميع، تنتشر حوله الأكاذيب والحقائق. يتسابق الفتيان الأغرار للعمل معه، وتتنافس النساء للوصول إلى سريره؛ نساء جميلات، أجمل حتى من صالحة. ظنّ، فجر اليوم، وهو يتفحّص الرقم المرصود في المنشور، بأن الوقت قد حان بالنسبة له. انتزع الورقة من يدِ أحدهم خلال جولته الاستطلاعية في مكّة، وبحلق في الرّقم غير

مصدّق؛ مليون دولار بالتمام والكمال، مكتوبة بـالبُنط العـريض، مكافأة لمن يجد الطِّفل الكويتي الذي يبتسم بسنٍ ناقصة. عاد بسيّارته إلى عسير وهو يتخيّل، طوال سبع ساعات، ما سيفعله بحصّته من الكنز. مليون دولار يا عثمان! أمك داعية لك يا عثمان! مليون دولار!

كان سيخرج من هذه العملية بعمولة عشرة آلاف ريال. لو حصلوا على فدية ستكون عمولته.. كم؟ مئة ألف دولار؟ هل قلت مئة ألف يا مسكين؟ اطلب ربع مليون يا غبي! يا غبي! إلى متى ستعطش في النّهر يا أحمق؟ يستطيع أن يتفاوض مع أسرة الصبي بصفته خاطفه، وأن يرفع المبلغ إلى ملايين أُخَر. ويمكنه، ببساطةٍ أشد ومخاطرةٍ أقل، أن يعيده بصفته منقذًا، وبطلاً، ويحصل على مليون دولار، ويعيش حياة سعيدة. كان محتارًا بين الخيارين، المليون الآمنة، أم الملايين الخطرة؟ وتساءل في قرارتهِ، أيّ الخيارين سوف يفضّل الرئيس؟ الملايين الخطرة بالتأكيد! سوف يطلب بدلا من المليون، عشرة ملايين، ربما عشرين مليونًا. هؤلاء الكويتيون يضحكون علينا بهذا الرّقم، هل يظنوننا أغبياء؟ هل نبدو كالمتسوّلين؟ سرح بخياله، وهو يحاول أن يحسب حصّته من صفقة المبادلة. كم؟ كم؟! دوّخته الأصفار الستة، تخيّل نفسه يعبر البحر بحقيبة مليئة بالدولارات، مهاجرًا إلى أسمرة، أو أديس أبابا، أو حتى أوربا، بصفته مليونيرًا جديدًا. وبدلا من بيع الحشيش، سوف يشتريه. وبدلا من تصنيع العرق، سوف يمتلك مصنعًا للويسكي. وبدلا من المبيت في البيوت المهجورة وعشوائيات الصفيح، بين السدود الزراعية ومزارع الدخن وكهوف الجبال البعيدة، سوف يمتلك قصرًا. من يدري، ربما يتبرّع

أيضًا بجزء من أمواله لبناء مستشفى، ويغدو رجلاً صالحًا مرّة ثانيـــة. هو لم يرفض في يومٍ أن يعيش حياة نظيفة، هو لم يقدر عليها فقـــط؛ حياة النظافة والجوع. لا أحد يقدر عليها.

لم يكن ليصدّق عينيه وهو يرى ابتسامة جرجس اللا مبالية أمام المنشور. كانت أوراق القات متكدّسة في شدقهِ الأيمن، وقـــد بـــدا هادئًا وهانئًا بشكلٍ مقلق نظرًا لظرفهم. انفرجت شفتاه الشهوانيّتان عن ابتسامةٍ غريبة وهو يتملى في الرقم ذي الستة أصـــفار، وتمـــتم: فلنغادر فورًا. أحس عثمان بأنه لا يفهم. لماذا نغادر ونترك المليـــون دولار؟

نغادر؟ إلى أين؟

نعبرُ البحر.

ولكن.. الفدية!

نحن لا نأخذ فدية.

جفَّ ريقه. بحلَقَ فيه يحاول أن يفهم، كيف يسعه أن ينظـــر إلى هذا الرقم الفلكيّ دون أن ترتعش أطرافه! كيف يرحل ويترك وراءه مليون دولار؟ مليون دولار يا جرجس! نظرَ إليـــه الرجـــل بعينيـــه الصفراوين، الكبيرتين، بصقَ الأوراق من فمِه. وانهمك يفكّ ربـــاط الكيس، وبأصابعه الغليظة، المعروقة، فتّش بين الأغصانِ عـــن أوراق خضراء. وراح ينتفها بيدين خدِرتين.

إنهم يحاولون خداعنا بهذا الرقم المضحك.

نتفاوض معهم، نضاعف المبلغ، سوف يدفعون!

ازدردَ ريقه، كانت الورقة ترتجف بين أصابعه، همس:

- كل أطفالنا مجتمعينَ لا يساوون مليون دولار!

اتسعت ابتسامة جرجس. لوّح أمامه بالعودِ الأخضرِ، فـامتلأ أنفه برائحة الأوراق الخضراء.

مليون، عشرة مليون، أو مئة مليون.. إنه مجـرد رقـم. في النهاية سينتهي بك الأمر في ساحة القصـاص، وجثتـك متدلية من رافعة سيارات. لقد رأيت هذا المنظر مرّة واحدة في حياتي، وهو لا يعجبني.

تيبّس جذع عثمان، سرت قشعريرة باردة في ظهره؛ لا يريد أن ينتهي جثة مصلوبة في ساحة القصاص.

وماذا عن الرعايدة؟

ماذا عنهم؟

ماذا لو طلبوا فدية؟

هذا شأنهم.

الرعايدة سيطلبون فدية، ولكن الحقّ معهم، الأمورُ أسـهل في سيناء، جماعات مسلحة في منطقة منـزوعة السلاح! يسـتطيع أن يتفاوض على السعر وينجو بحياته. ولكن هنا، ماذا عسـاكَ تفعـل؟ والشُّرطة تضيّقُ الخناق على المهاجرين أكثر فأكثر، وبين فترةٍ وأخرى تسمع عن إعداماتٍ جديدة؟ لا يريد أن يموت، ولكـن.. الورقـة، الأصفار الستة! الأصفار الستة اللعينة!

اذهب وبدّل السيّارة.

يفتح الباب، يتناهى إليه صوتُ صياحٍ. يصعد الـدرج، يـرى الأطفال يبكون، النساء يضربن بالعصيّ، روينا تحتضن الكويتي، تقبّله وتمسّد شعره، تناديه؛ يا كنـزي. وتخمّن من فورها؛ سـوف نعـبر البحر. كيف تعرف روينا كل شيء؟ لو أراد جرجس المال لنفسـه،

فلماذا يعبر البحر؟ أهل الصبي في مكّة، وهم يعبرون البحر؟ وهـــو.. يريد المليون دولار. *من المؤسف أنه سيحصل على المال كله لنفسه.* ما الذي تقصده روينا؟

انطلقت به الكابريس الزرقاء تسبر قفارَ الوادي، بين أشـــجار العرعر والسرو والكتل الصخرية البيضاء. ماذا لو كانت على حـــق؟ ماذا لو أنّهُ تخلّص منها لكي يحصل على حصةٍ أكبر؟ ماذا لو تقاســـم الفدية مع الرعايدة وحَصَلَ لوَحْدِهِ على نصفِ مليون، ثم وزع علينا حصصنا الهزيلة، عشرة آلاف ريال لكل واحد، ونحن كالحمقى نقبّل الريالات ونرقص فرحين؟

جرجس لا يريد أن تتمَّ المبادلة هنا. عندما قرأ الرقم المرصود في المنشور تخلى عن العملية برمّتها، ما زال أمامنــا اختطــاف خمســة أطفال. إنه يتخلى عنهم بسرور. لقد كان ينتظرُ المنشور، حتى يسعه التحرّك. شعر عثمان بالدماء تتدفق حارّة في صدغيه وأذنيه، وهـــو يتملى في حقيقة الأمر؛ لماذا أعطى جرجس الأمر بإحضار الطفل من مكة إذا كان لا يريده؟ لماذا لم يطلب منا تركـــه في مكّـــة عنـــدما اتصلت به؟ لماذا خاطر بحياتنا جميعًا؟ وماذا عن الطفلةِ التي أخذها في سريرهِ. ماذا لو قتلها النـــزيف؟ لماذا يخاطر بقتلها ويعـــرّض نفســـه لخسارةٍ مضاعفة؟ كان يفترض أن نحصل على اثني عشـــر طفـــلا! ولكننا في المقابل حصلنا على سبعة، واحدة منهم تحتضرُ بسببِه.

روينا تقول الحقيقة، روينا دائمًا تقـــول الحقيقـــة؛ الرعايـــدة سيأخذون الفدية، جرجس سيتقاسمُ المبلغ معهـــم، ونحـــن كلنـــا، كالحمقى، سوف نعطش في النّهر.

جازان. الطريق إلى الساحل

9 ذي الحجّة 1431

7:00 مساءً

عندما عاد عثمان بسيارة لاند كروزر مهترئة، كان الأطفال مقيّدي الأقدام والأيدي، مكمّمي الأفواه، ونيامًا كالجثامين. وضعت روينا الفوطة المبللة على وجوههم وأرسلتهم إلى النّوم.

فتح عثمان صندوق السيارة، ورص فيها أجساد الصغار، متقابلين ومتعاكسين مثل أسماك السّردين في المعلبات، ثم جاء بسطحٍ خشبيّ له سنّاداتٍ على الأطراف، مثل طاولة عريضةٍ بارتفاع شبرٍ ونصف، مُدّدَ تحتها الصغار وعلى سطحها فَرَش قماشًا أبيض، ثم وضع الصناديق الأربعة المليئة بزجاجاتِ العسل، والشمع، والغذاء الملكي، وحبوب اللقاح، وبضعة مرطبانات فارغة. إذا اعترضهم الأمن، وهذا نادرُ الحدوث، فلسوف يبدون، بشكلٍ طبيعي، كباعة للعسل، مجرد أفارقة يعملون لدى تاجرٍ سعوديّ، يجلبون له البضاعة من الجبال؛ عسل السدر، عسل الصفصاف، العسل الحجري. فيه شفاءٌ للنّاس، لا شيء يؤذي.

انتظروا لحينِ حلول الظلام، ثم ركبَ جرجس في المقعد الأمامي، صالحة وروينا في المقاعد الخلفية، وعثمان خلف المقود.

تركوا أدانيا وبهاتي في البيت، بعد أن دفع لهما جرجس، مقدّما، حصّتهما المقرّرة؛ خمسة آلاف ريال لكل واحدة، وتعليمات

واضحة: سوف تأتي بعد قليل سيارة تأخذكما إلى إحدى العشوائيات. تعملان في تصنيع العرق وتغيبان عن الأنظار حتى يحين موعد العملية القادمة.

انطلقت السيارة بين الجبالِ الصخرية المتطاولة، وصوتُ الإمام الشريم ينسابُ من المسجّل؛ ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتقين. سكنَ الجميع، كلٌّ في صمتِه.

تسمّرت عينا عثمان على الطريق. ماذا لو أنه فرّ بالكويتي قبل انطلاقة القارب؟ سوف يصعبُ على جرجس أن يلحق به. جرجس ضخم، وهو نحيلٌ بارع في الرّكض. سوف يتّصل على الرقم في المنشور ويخبرهم بأنه متسلل مقيم بصفة غير قانونية وارتكب مخالفات غير جسيمة؛ ترويج القات ونقل المهاجرين غير الشرعيين. ولكن لا شيء خطير. سيقول بأنه كان يبيع القات على أحد أصحابه في إحدى العشوائيات المبنية في السفوح، واكتشف وجود الصَّغير المخطوف الذي رأى صورتهُ في المنشور، وأنه استغفل صاحبه وأخذ منهُ الصغير وهرب. سيطمئنهم بأن ولدهم في صحةٍ جيّدة، وأنه ينتظرهم في مكانٍ لا يعرفه سواه، ولن يدلّهم عليه إلا إذا استلم منهم المكافأة، وضمنوا له عفوًا شاملاً وعبورًا آمنًا إلى اليمن. هل جننت يا عثمان؟ اليمن؟ ستختطفك العصابات وتزجّك في أحد بيوت الأشباح وتستولى على أموالك وتطلب من أهلك فِديــة. لا أحد سيدفع؛ لأنك بلا أهل. في النهاية سوف تعذب بماء النّار وتموت لتلقى في الصَّحراء مثل أي جربوع. لا، لن يذهب إلى اليمن. سوف يذهب إلى أسمرة، وعلى متنِ قارب آمِن، وليس على قارب كوبية متهالكة. سوف تحرسهُ قوّات أمن السواحل نفسها وتتأكد من

وصوله، مع حقائبه الملأى بالدولارات المليون. ثم سيخبرهم، بعد أن يأمن أذاهم، عن مكانِ الصبي. سيكون قد خبأه في أحد الكهوف، أو أحد البيوت المهجورة في أودية عسير؛ وادي شوقب، أو وادي فو.. في مكانٍ لا يخطر على بال أحد.

شطحَ بأفكاره بعيدًا، ابتسم دون أن يشعر. ثمّ نظر إلى وجه روينا المنعكس على المرآة الأمامية. هل تخيّل الأمر، أم تراها أيضًا، مثله، تبتسم؟

جازان. ساحل البحر الأحمر

9 ذي الحجّة 1431

8:40 مساءً

عندما وصلت السيّارة إلى السّاحل كان القاربُ جاهزًا، وعلى مقربةٍ منه، سيارة جيب بنوافذ معتمة، تنتظرُ في الظلام. كان الليلُ قد هبط على الأرضِ والبحر، بهيمًا وصامتًا، وكان الشيء الوحيد الذي يمكنُ رؤيته، هو الأمتار القليلة من الرّمل التي تضيئها أنوار السيّارة الأمامية، قبل أن يطفئها عثمان، ويترجّل متوجّهًا إلى قائد المركبة، ليدفع له. دقائق، ثم تعالى هدير المحرّك، وغادرت السيّارة الأخرى سريعًا.

انهمك الأربعة في تجهيز القارب للإبحار. صالحة وروينا ترفعان الجرار والمرطبانات والعلب البلاستيكية عن السطح الخشبي الذي مدّد أسفله الأطفال المخدّرين. جرجس وعثمان يدفعان القارب نحو الماء، قاربٌ مطاطي سوزوكي؛ مكينة بقوة 15 حصان، يسع ثمانية ركّاب. حملوا الأطفال إلى القارب. واحدًا بعد الآخر نيامًا تتناقلهم الأيدي. من يدِ عثمان إلى يدِ روينا. من يدِ روينا إلى يدِ صالحة. جرجس يقف على مبعدة خطوات بمصباحه اليدوي، يراقبُ سير الأمور بصمت.

كان الكويتي آخر الأطفال.

عندما همّ عثمان بحملِ الصبي وجده مشرّع العينين يبحلق في الظلام؛ أنت صاحٍ؟ اقترب جرجس يتفحص الصغير، رفع عينيه إلى

روينا. دنت تسأل:

ما الأمر؟

إنه مستيقظ.

غريب.

ألم تخدّريه؟

بلى.

رفعت كتفيها ومطّت شفتيها:

بعضهم يستيقظون مبكّرًا.

حدجها جرجس شزرًا. دفعها بذراعِه وهمّ يحملُ الصبي بنفسه، لولا أن عثمان سبقه. حُمل الصغير على كتف عثمان الذي سار به باتجاه القارب، مدت روينا يدها لتلتقف الصبي من يديه، كما هي العادة، ولكنه هزّ رأسه رافضًا.

احملي أنتِ بقية الأغراض.

أشارَ برأسه إلى صُرّة الثياب وحقيبة الإسعافات الأولية. حملت روينا الأغراض وهي تشفنُ الرجلين بتوجّس. هل قرَّر الكل خيانة الكل؟ ساروا متجاورين باتجاه القارب. جرجس عن يمين عثمان، روينا عن شماله. صالحة تقفُ في منتصف القارب، تصوّب إليهم مصباحها اليدوي، همس؛ يالله! يالله بسرعة! كان صوتُها يرتجف.

صعدت روينا إلى القارب قبل الاثنين وهي تفكر فيما تنتويه؛ في لحظة انطلاق القارب سوف تمسك الولد وتقفز معه إلى الماء، في الوقت الذي يستديرُ فيه القارب عائدًا ستكون قد وصلت معه إلى الشاطئ. ريثما يترجل جرجس ويخوض في الماء نحو الرّمل، تكون والصبيّ قد اختفيا في الليلِ. أحسَّت بتسارعِ خفقانِ قلبها وهي

تراجعُ الأمر في رأسها. الأمرُ بسيط، سهل، ويحتاج إلى شيءٍ من الحظ. ماذا لو ظلَّ جرجس ممسكًا بالصبي عند الانطلاق؟ لا تستطيع روينا أن تتصارعَ معه. ماذا لو توغَّل القاربُ بسرعةٍ في العباب وصارت الأرضُ بعيدة؟ صار قلبها يضرب بجنونٍ وهي تتبيّن ما هي مقبلة عليه؛ إن لم أحصل أنا عليه، لا أحد يحصلُ عليه. أنا أخذته، أنا أعيده. تحسّست السّكّين في التي تخبئها في جيب سروالها التحيّ؛ سوف أنحرهُ وألقيهِ في البحر، تأكله القروش، ثمَّ.. ازدردت ريقها، وشعرت مرّة أخرى، على نحوٍ غير مفهوم، بذلك الحنين المفاجئ إلى ليتشور. أقتلُ الصبيَّ ثمَّ أقفزُ في البحر. تأكلني القروش ولا تقتلني رصاصة جرجس.

راقبته بطرفها وهو يصعدُ إلى القارب، مدّت له يدها تشدّه إلى السطح. اعتدل واقفًا ثمّ استدار باتجاه عثمان، مدَّ إليه يدهُ وهو ينظرُ عميقًا في عينيه:

يالله يا عثمان.

تباطأ عثمان في مشيه.

أعطِني الولد يا عثمان.

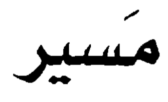
أعادَ صياغة طلبهِ، بصوتٍ هادئ ومنضبط؛ أعطِني يدك يا عثمان. ولكنّ الشاب صار يسير إلى الوراء، عائدًا إلى الرّمل، ووجهه ناحيته. اصعد يا عثمان. عثمان! أعطني الولد يا عثمان! إياك يا عثمان! إياك! صالحة تهمس؛ بسرعة! يالله! عثمان يخطو إلى الخلف ووجهه إلى الأمام، الماء يصل إلى منتصف فخذيه. عثمان! روينا تحدّق في الشاب ذاهلة، تهلس، تفترُّ، تفلتُ ضحكاتها تباعًا؛ على ماذا تضحكين؟! روينا تقهقه وهي تنظر إلى عثمان يعود إلى الشاطئ

بالولد. لم تتوقّع من هذا الفتى الغرّ الممصوص أن.. عثمان يقطع بسكّينه الحبل حول قدمي مشاري، يضعه في الماء. روينا تقرقر، تكركر. أخفضي صوتكِ! صالحة همس. جرجس يصوّبُ مصباحه اليدوي إلى وجه الصبيّ، امسك الولد يا عثمان! يبدو الصغير ذاهلاً، عيناه تبحثان، تبحثان عمّن؟ روينا تلوّح؛ أنا هنا! أنا هنا! روينا تقفز في الماء وتصرخ؛ اجري يا ولد! اجري! الولدُ يركض، يخوض في الماء، يبلغُ الرّمل، يختفي في الظلام.

لا تتذكّر روينا أيّهما أصيب أولاً، عثمان أم هي. تذكرُ اندلاع صوت طلقٍ ناريّ، وأن جسد عثمان صار يطفو على الماء الأسودِ ووجهه إلى أسفل. تذكر رائحة البنزين والملح والدّم. تذكر أن جرجس قفز إلى الماء ليمسك بالصغير، وأنها قفزت خلفه، تعاركت معه، تشبثت بهِ، أنه أمسك بها من رأسها ليغرقها. أن صالحة صرخت مذعورة؛ اتركها! اتركها! لا يوجد وقت! أنه شدّها من رأسها إلى فوق، شهقت ملء صدرها وراحت تصرخ؛ اجري! اجري! اجري! أن السكّين في يدها صارت في جوفها.

لم تشعر روينا بتدفّق الدّم الساخنِ من بطنها، لم تحس بأيّ ألم. تلاطَم الموجُ من حولها عندما شغّل جرجس محرّك القارب وفر سريعًا.

الفصل الخامس



الطريق إلى محافظة رجال ألمع

9 ذي الحجة 1431

9:30 صباحًا

تاهو سوداء، بنوافذ معتمة، تنـــزلقُ بخفةٍ على اللسانِ الإسفلتي الممتدّ بين الجبال، جنوبًا إلى عَسير.

ألصقَ فيصل جبينهُ على النافذة. زفرَ: لا إله إلا الله. ترك جبينه بصمةً دُهنية على الزجاج. ركبتاهُ ترتجفان وأصابعه، منذ الصَّـــباح، ترتعش. كان يحس بالبردِ والحرّ يشتبكان في جسده، كأنه يوشـــكُ على حمّى. لا يمكن أن أمرض. فكّر وهو يمسح وجهه براحتِه ويعاودَ النظر إلى الجبال، جبال مكة الصخرية، المهيبة، تتعاقبُ متطاولة على طول الطريق الممتدّ أبدًا.

شقيقه يطمئنه:

هانت بومشاري، هانت!

ترقرقت دمعةٌ في عينه:

يا رب!

أحس بالراحة لمغادرة مكّة. مثل غريقٍ تمّ انتشـــالهُ في اللحظـــة الأخيرة. طوفان الطوافِ الأبديّ ودورانه العبثيّ، السّماء التي تخـــيّمُ بصمتها على كلّ شيء، كأنّ الأمر ينتهي، كأنّه يلمـــحُ بصيصـــا؛ يا رب! أحس بيدِ أخيهِ تحطّ على كتفه. التفت، كان سعود يمدّ لـــه بعلبة بلاستيكية بيضاء مليئة بمعمول الفستق والتمر: سم بو مشاري.

هزّ رأسه، لا يستطيع. سعود يلحّ:

طلبتك.

بعدين سعود.. بعدين.

يد شقيقه لا تزالُ ممدودة. ينظرُ إليه بعنادٍ عبر المرآة الأمامية. عرف بأنه لن يتركه حتى يأكل. مدّ فيصل إصبعين مرتعشتين وتناول قطعة. كانت سكّرية بشكلٍ خافت، وأحس بنسيجها الترابيّ الحلو يملأ فمه. تذكّرَ بأنه لم يأكل شيئا منذ يومين، منذ خمسين ساعة على وجهِ التحديد. وتساءل، بينه وبين نفسه، إن كان ولده قد أكل شيئا. وللمرة الثالثة، منذ ساعة انطلاقهم، عاد يسأل مازن:

متى نوصل رجال ألمع؟

وللمرة الثالثة، ودونما تبرّم، أجابه مازن:

بعد ستة ساعات، يمكن سبعة. خُذ لَك غفوة يا أبو مشاري، ريّح شوية.

سعود يوافق:

ريّح يا خوي، يرحم لي والديك حاوِل ترتاح، حتى أعرف أرتاح أنا!

مدّ سعود يده يدلّكُ له كتفيه. ترقرقت عيناه بالدمع. أخذته خواطره، دونما قصدٍ منه، إلى سميّة. شجارهما في الصباح، نوبات ذعرها في الليل، عندما نامت مشرّعة العينين، تصرخُ وترفس. حاول أن يهدّئها، أمسكها من زنديها وهزّها؛ استيقظي سمية، استيقظي. كانت تنظر إليه دون أن تراه، تهذي بكلماتٍ بلا معنى، وفي نهاية الأمر.. تقيّأت على قميصه. كل ما أرادته سميّة هو أن ترتاح، وهو..

لم يغفر لها تلك المحاولة.

قبل أن تنطلق بهم السيّارة سأله سعود: وسميّة؟ نظر إليه وكأنّه يحاول أن يتذكّر صاحبة الاسم.

سميّة؟

ارتسمت الدهشة على وجهِ أخيه.

أم مشاري!

كان قد نسيها فعلاً، بدا له الاسم غريبًا ومألوفًا في آن. اسم امرأةٍ تنتمي إلى حياةٍ أخرى، مفارقة ربما، موازية ربّما، حُلمية، مُتخيّلة. حياة لا تنتمي لواقعه الحالي.

مو أحسن تبلّغها؟

استجمع صورها في ذاكرته؛ إسفنجة دمعية مكتنزة، قلبٌ مفطور. سميّة، زوجته. أم ولده. رفيقة أيّامه. وآخر شخصٍ يتمنى رؤيته، أو سماع صوته. هزّ رأسه.

أكلّمها في الدَّرب.

مضت ساعة دون أن يفعل. لا يستطيع أن يفعل، ليس بعد كل الأشياء التي قالها. الكلمات المدببة، ذات الحوافّ الصدئة، التي قذفها في وجهها. لم تكن المشكلة في قسوةِ كلماته، المشكلة في حقيقيّتها. أغمض عينيه ورآها، تجوبُ المسعى بين الصفا والمروة، ذاهلة تهذي، مثل هاجر المفجوعةِ على رضيعها، تنتظرُ بشارة الماء.

فكّر، ربما إذا استعاد مشاري، بعد خمس أو ستّ ساعاتٍ من الآن، واتضح أن كلّ شيء على ما يرام، وأن العالم يمكن أن يعودَ إلى ما كان عليهِ، إلى حياته الصغيرة، العادية، الهادئة، ربما وقتها، يستطيع

أن يعود إلى زوجته، وأن ينظر في عينيها، أن يتخلل شعرها الأسود بأصابعه ويقول لها لا تقلقي، كل شيءٍ عاد بعودةِ مشاري، كل شيء على ما يرام.

شعر بقلبهِ يخضرُّ أملاً؛ إذا عثرتُ على ولدي، سأذبحُ مئة من الإبل، وأطعمُ عشرة آلاف جائع، سأعودُ إلى الحرمِ ركضا، إلى الركن اليماني، في المكان الذي انقطعَت فيه حجّتي، وأسجدُ طويلاً. سيعود كل شيءٍ كما كان عليه، وسيكون بوسعي أن أصلّي، دون أن تتدفق الأحماض الكاوية من فمي، مثل نافورةٍ من نار.

امتلأ صدره بخواطِر باردة، عذبة، مريحة. زفرَ بارتياح، عاود إغماض عينيهِ، وفكّر، لأول مرة منذ ثلاثة أيّام، بأنه لو اقتنص سُويعةً من النّوم، فلن يكون الأمرُ خيانةً لابنه، بل إخلاصًا لهُ. سرعان ما استجاب جسدهُ لفكرته تلك، وانزلق سريعًا في غفوةٍ ناعمة.

مكّة

9 ذي الحجة 1431

10:30 صباحًا

في البدء كانت تلاحقُ طفلاً.

بدا لها أن قفاهُ يشبهُ قفا مشاري، لولا أنَّ له وحمة حمراء في خلفية عنقِه، وشعرٌ بنيٌّ مائل إلى الشُقرة. مع ذلك فكّرت؛ ربما لم ألحظ ذلك فيه من قبل، ربّما تغيّر دون أن أنتبه. كان الصبي يسير مع والدته، يمسكُ بيدها، يرتدي إحرامًا صغيرًا، ويبدو أطول من مشاري بعدة سنتمترات، ومع ذلك فكّرت؛ ربما غيّر ملابسه. ربّما ازداد طوله. أصرّت أن تطلَّ في وجهِه. حثت خطواتها حتى سبقته ثمّ استدارت لتتفحّصه، تسمّرت في مكانها، بُهتَت. كانت شبه متيقّنة بأنهُ هو، حتى مع كونه لا يشبهه في شيء.

تخشّبت ساقاها وكفّت عن المسير. كيف يمكنُ ألا يكون هو؟ كيف يمكن أن يلتبس بها الأمر نحو ولدها؟ نظرت حولها، قلّبت وجهها في السماء. سوف أعودُ إلى الحرَم. همّت ترجع، ولكن الجموع التي تدفقت ملبية، دفعتها إلى الأمام خطوة، ثمّ خطوة أخرى، وأخرى. كيف وصلتُ إلى هذا المكان؟ سارت مئات الأمتارِ مدفوعة بقوّةِ المشّائين الذاهبين إلى عرفات. اليوم عرفة، الحجّ عرفة. شعرت بنفسها تطفو، مثل خشبة، على سطحِ نهرٍ بشريّ يأخذها في مشيئته. قاومت. لا، لا، يجب أن أبحث عن ولدي! يجب أن أبحث

عن ولدي! حاولت النفاذ خارج التيار، اخترقت بعـض الفـرج، سُدّت في وجهها فرجًا أخرى، رفعت وجهها إلى السماء وصاحت؛ يا رب! يا رب! تكالبت الجموع، تحيطها من كلّ مكـان، وقفـت على أطراف قدميْها ورأت نفسها تذوبُ في آلاف، مئـات الآلاف، ملايين البشر السادرين في المسير والابتهال؛ لبّيكَ اللـهم.. رفعـت عينيها إلى السّماء صائحة؛ لا أستطيع! فاضت من عينيها الـدموع. لماذا تأخذني هكذا؟ لماذا تأخذني هناك وكأنني لن أجدك هنا؟ لقـد أضعتُه في بيتك. في بيتك! على يمينها شيخٌ يهتف: لبّوا يـا حجّـاج بيت الله، لبّوا يا ضيوف الرحمن! نظرت إليه شاخصة. عظامه ناتئة، لحيته طويلة بيضاء. يصيح في المشائين؛ ما من يومٍ أفضل عند الله من يوم عرفة! ينـزل الله تبارك وتعالى إلى السّماء الدنيا فيباهي بأهـل الأرض أهل السماء. تبحلقُ سميّة بالرّجل، فاغرة الفاه؛ هل ينـزل الله؟ هل ينـزل الله؟ فاضت عيناها بالدّمع وهي تحدق في غضـون الرجل التي انفرطت حول فمِه؛ يقول انظروا إلى عبادي جاءوني شعثًا غبرًا ضاحين! جاءوا من كلّ فجٍ عميق يرجون رحمتي.. تلفّت الشيخ حوله يستحث الجميع على التلبية. صاح بها؛ لبّي يا حاجّـة! لبّـي! فوجئت بأنها لا تزال تمشي، كأن ساقيها قد خرجتا عن سـيطرتها، وصار لهما إرادتهما الخاصة. شعرت بجسدها يستسلم لإيقاع الألوف السائرين في دربٍ واحدٍ وحيد. تمتمتْ هامسة، بعينين ذاهلتين وهي تنظر إلى السماء؛ لبّيك! لبّيك! بدأت تلـهجُ، شـفتاها تنفرجـان، وتنغلقان، من دون أن تدرك ما تقوله؛ مشاري. يـا رب. لبيـك. مشاري. لبيك. الله. الله. مشاري. الله. الله.. رفعت عينيهـا إلى السماء ثانية. هل تناديني يا الله؟ هل تناديني؟ التصق كتفاها بكتفـي

المرأتينِ على جانبيْها، وشعرت بأنها، وملايين من الحجاج، يشكّلون كتلة واحِدة؛ صمّاء، صلبة، عصيّة. سارت من دون جهد، كأنها مأمورة، تمتصّها قوّة غريبة نحو جبلِ عرفات. ثغرها يلهجُ والعرقُ يسحُّ من مسامها، تغيمُ عيناها ويمتلئ رأسها بالتهاليل. الحجُّ عرفة، وإن الله يباهي ملائكته بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثا غبراً. تنظرُ إلى عباءتها المعفرة، المغبرّة. ترفع عينيها إلى السماء؛ ربّما أجدهُ هناك، ربّما أجده.

الطريق إلى محافظة رجال ألمع

9 ذي الحجّة 1431

11:00 صباحًا

نام فيصل في المقعد الأمامي، برقبة ملتوية وفمٍ مرتخٍ. خيطٌ من الريقِ يسيلُ من زاوية ثغرهِ، بقعة لعابٍ على كتفه الأيمن. كان يشخر كمن يتغرغر بماء روحه. أطلّ سعود في وجههِ يتفحّصه، همس لصاحبه:

مو عادته يشخر.

هزَّ مازن رأسه.

طبيعي.. أوّل مرة يدوق النوم من يوم ما أخدوا الولد.

مسكين.

بركة إنّو نام.

ليش ما خليناه ينام ورا أحسن وآسع؟

خلاص دحّين مافي فايدة.. المهم إنو نام.

دنا سعود من أخيه وأرخى ظهر مقعدهِ إلى الوراء. حتى صار بإمكان فيصل أن ينام على جنبهِ، وأن يتوسّد راحتيه. غطس في النوم عميقًا، بدا وكأنّ ما من قوّة في الدنيا تستطيع إيقاظه. كان قد هوى في أعماق الحلم مُصدِرًا حشرجات وغرغرات ونخرات، ردّد أحيانًا اسم مشاري، وفي مرّة يتيمة لفظت شفتاهُ اسم سميّة.

ذهب خاطره إلى هناك، إلى امرأة أخيهِ التي توزع المنشورات وتركض كالمجنونة، تطارد الأطفال والمتسوّلين. سمية لا تعرف شيئًا عن اتصال الخاطفة، وفيصل يتجاهلها في يقظته، ويقلقُ عليها في أحلامه. ترى لماذا لم يبلغها بأمر الاتصال؟ آخر مرّة رآها حدّثتهُ عن التوبة والاستغفار. سألها متى كانت آخر مرّةٍ أكلتِ فيها شيئًا؟ نظرت إليه ببلاهة وكأنها لا تفهم. كانت قد نسيت حاجتها إلى الطعام تمامًا، كأنَّها تحرّرت من جسدها، وصارت تستمدّ قوتها من ألمها وحده. لا زالت صورتها مطبوعة في ذاكرته، ساجدة تنشج.

سقاها من ماء زمزم وأعطاها علبة مليئة بالتمر، غاب عنها ساعة ثمّ عاد ليجدها تدورُ في المكان نفسه. كانت علبة التمر التي أحضرها قد فرغت تقريبًا، وكان يعرف بأنها لم تأكل منها شيئا. انتزع من يدِها المنشورات. لن أعيدها إليكِ حتى تأكلي. مدّت يدها وأكلت تمرتين. تساءل ما الذي يبقيها واقفة أمامه هكذا؟ كانت تبدو على شفةِ الإغماء. سميّة، يجب أن تنامي. أنام؟ أنام وأنا لا أعرفُ مكان ولدي؟ نامي قليلاً لأنك لن تستطيعي البحث عنه هكذا. نامي لأجل مشاري. لم يرها منذها. ترى هل نامت؟

هقوتك أتصل بأم مشاري أطمّنها؟

هز مازن رأسه نفيًا.

خلينا نلاقيه أوّل.

مسكينة، تلاقيها ليلحين توزّع هالمنشور.

معليش. أحسن ما تعشّمها وبعدين تفجعها، لا قدّر الله لو صار شي. احنا رجال نتحمّل، بس هي أم..

يعني فيصل إلي بيتحمّل؟

مهما كان..

تساءل، أيُّ الاثنين أقدر على احتمال الأمر؟ فيصل عريض الصدر، بزنديه العظيمين وطوله الفارع، لم يكن ليخدع بهيئته. كان يعرفُ هشاشته الداخلية، وجوهره الزجاجي.

منذ زواجِ شقيقه، قبل تسع سنوات، تكفّل سعود بالمواقفِ الصعبة. عندما احتاج مشاري، إلى علاج عصبٍ لضرسه. عندما ضربه تلميذ يكبره بسنتين في المدرسة. عندما سقط وشجّ رأسه. عندما أصيبَ بنزلة معوية وأدخلوه إلى جناح الملاحظة في المستشفى "الأميري" كان فيصل يتداعى سريعًا، يقبض على بطنه بيديه على الكرسي المعدني في المستشفى. عندما كانت سميّة تطلق في الفضاء صرخات ولادها لمشاري، كان فيصل يتردّد على حمّام الديوانية، ينتظر أن تنقشع آلام الولادة حتى يتمكن من رؤية امرأته. شعر بملايين الجدران تطبق على قلبهِ. فيصل وسميّة، مثل ذراعي مقص يقصمانهِ نصفين.

زفَر.

وحِّد الله.

مخنوق.

حاول تريّح.

ماني قادر.

لازم تريّح، مو كويّس تتوتّر أعصابك دحّين، قدّامنا خمسة ساعات.

يشيحُ برأسه، يغمض عينيه، كيف سأطيق هذه السّاعات الخمس الباقية؟ يسودُ صمت دقيقتين، يعاودُ مازن الحديث:

أبو عزّوز.

هلا.

فيه موضوع مهم لازم نتكلم فيه قبل لا يصحى أبو مشاري.

خير؟

يصمتُ مازن للحظاتٍ، وكأنه يبحث عن الكلماتِ داخل رأسه، ثم يشرعُ يحكي.. نحتاج أن نعرف كيف سنتصرّف إذا وصلنا، كيف ستتم عملية المبادلة، من سيتولى أمر ماذا. راح يرسمُ بسبابته دائرة في الهواء مستفيضًا في الشرح: أقترح أن نتحرّك في دائرة، تخيّل مشاري في الأسفل، والفدية فوق، سنتحرّك ببطء باتجاه الولد، فيم يبتعدون هم عنهُ باتجاه النقود، لا تتحرك خطوة إلى الأمام ما لم يبدر منهم خطوة مقابلة، وأيضًا.. أحدنا يجب أن يبقى في السيارة، يتصل بالشرطة إذا ما حدث أي شيء، لا قدّر الله. الأكيد أنهم سيكونون مسلّحين. أكيدٌ أن فيصل يريد أن يكون في قلب المشهد، ولكني، صدقًا، أفضل أن يبقى بعيدًا. أعصابه مرهقة وأشك في قدرته على التصرف بشكلٍ سليم. لكن ثمة ما هو أهم من ذلك كله، يجب أن تعي بأن أيّ شيء يمكن أن يحدث، أي شيءٍ وكل شيء، يجب أن نحضّر أنفسنا لمشاهد قاسية، فيصل لن يكون مستعدًا أبدًا، ولكن أنتَ، أنت يجب أن تكون مستعدًا، تذكّر بأن هناك احتمالٌ قائم بأن تجدوا الصبي في وضعٍ.. في وضعٍ مؤلم. لا قدّر الله. نحن لا ندري ماذا فعلوا بهِ خلال ثلاثة أيام، أعرف بأنها أفكار مزعجة، ولكن من الأفضل أن نطرحها الآن. لا نريدُ أن تشلنا المفاجأة في وقتٍ يفترض أن نتصرّف فيه بحكمة. من الممكن أن

يكون مشاري قد تعرّض للإيذاء. هل تفهم ما أعنيه يا سعود؟ نحن نسمع عن عمليات بترٍ لأيدي الأطفال تحدث في مكة، وقد سبق وعثر الأمن على أيادٍ مبتورةٍ مرمية في القفر، أو في حاويات القمامة. أمورٌ كهذه تحدث. ما الذي تقوله؟ أحس بخدرٍ غريب في رأسه، طنينٌ في أذنيه. اسمع يا سعود، نحن لا نعرف هؤلاء الناس. ولكن الذي يختطف طفلاً من الحرم في موسم الحج لابدّ وأن يكون مختلاً. من الممكن أن يكون الولد قد تعرّض للتعذيب، أو الاغتصاب، أو.. الله لا يقوله! صرخ. رفع مازن يدهُ إلى فمِه: ششششش! لا تصحّي أخوك! وضعَ سعود رأسهُ بين كفّيه وعصره. هدّي نفسك، هدّي نفسك سعود. المفروض تكون أقوى. لم يعد يسمعُ صاحبه، كان يرى أمامه صورة لمشاري: وجهٌ مرضوض، يدٌ مبتورة، يعرجُ في القفرِ وينادي. أخذت أطرافه ترتجف وهو يفكّر بأن ما تخيّله أسوأ من أي كابوس، ولكنّ الواقع أسوأ من الكوابيس جميعها. هز رأسه. لا يمكن أن يكونوا قد عذبوه، إنهم يريدون النقود فقط. أومأ مازن. صحيح، ولكن ماذا ستفعل لو أنهم آذوه؟ ماذا ستفعل لو أنهم أعادوه لك ناقصًا ذراعًا؟ هل سترفض استعادة طفلك كما لو كان بضاعة مضروبة؟ في الحقيقة أنت لا تملك الخيار، وهم، لديهم كل الخيارات، وهم يعرفون ذلك.

لم يحسب سعود حسابَ ذلك، ولكن الآن.. الآن وقد فكّر بالأمر، وأصبح احتمالاً معلّقًا أمامهُ، مثل حبلِ مشنقة، ماذا تراهُ سيفعل؟ سالت دمعة على خدّهِ، مسحها بظاهر يدهِ، وتظاهر بأن الأمر لم يحدث، بأنه لم يبكِ. ازدحمت المشاهدُ في رأسهِ؛ مشاري يركضُ بسروالهِ الداخليّ في حديقةِ البيت وسط رشاشاتِ المياه.

مشاري يتمدّد على بطنه ويتفرّج على فيلم باتمان. مشـــارِي علـــى الشاطئ، بالمايوه الأحمر، يرفع ذراعيهِ في الهواء كالمصارعين، علـــى رأسهِ قشرة بطيخة حمراء. صورٌ متلاحقة للصبي السعيد الذي كانه، هل سيعوده؟ شِدّ حيلك وقوّي قلبك. يقولُ مازن. هزَّ رأسه بضـــع مرّات وقد تقوّست شفتاه إلى أسفل؛ ترى، ماذا سأصنع بجلّاديـــك يا مشاري؟ أيُّ وحشٍ عليّ أن أكونه؟

الطريق إلى محافظة رجال ألمع

9 ذي الحجّة 1431

1:04 مساءً

أفاق فيصل من غفوته كمن ينفذ من قبضة كابوس.

أفاق صائحًا، ملوّحًا بيديهِ، ثم تلفّت حوله بعينين شاخصتينِ، حمراوين. رأى الجبال الصخرية تتعاقب على جانبي الطريق. سعود ومازن يرددان يستعيذان بالله من الشيطان الذي.. نظر إلى وجهيهما القلقين، فارتخى جَسَده، أراح رأسه إلى المقعد، تنهّد عميقًا: أعوذ بالله منك يا ابليس. فتح سعود قنينة ماء وناولهُ إيّاها، تجرّعها خلال لحظاتٍ، ثم قذفها خالية بين قدميْهِ وعاد يحدق في الجبال. يسترجع تفاصيل الكابوس الذي نفذَ من قبضتهِ بالكاد.

كان قد رأى في المنامِ بأنه في ثياب الإحرامِ، يطوفُ حول الكعبة دون أن يراها. صدح المؤذن بنداء الصلاة فاصطفّ الناس. بحث لنفسهِ عن مكانٍ بين المصلّين، فلم يجد. ركض بين الصّفوف، كلما عبر أمام أحدٍ دفعهُ بيدِه وصاح فيه: إنّما أنت شيطان! ركض ركضًا كأنّه الأبد، حتى عثر على فراغ صغير بين اثنين من المصلّين. استوى واقفا، رفع يديه إلى أذنيه، عندما أرادَ أن يقول: الله أكبر، شعر بجسدٍ غريب ينقض عليهِ من الخلفِ. أبطل صلاته، التفت خلفه، لم يجد شيئا. رفع يديه ليكبّر، عاد الجسد الغريبُ ينقض عليه. أبطل صلاته ثانية، نظر حوله فلم ير أحدًا، ولا حتى المصلّين، ولا

سمع الإمام، وكانت ثياب الإحرام قد اختفت، وأضحى عاريًا، على سجّادة صلاتِه.. وعلى مقربةٍ منه رأى قزمًا هزيل الساقين له أنيابٌ بارزة، وثب على صدره ولفّ حولهُ ساقيه وذراعيْهِ ثم فحّ في وجهه: إنّما أنتَ شيطان..

لم ينبس بحرْفٍ عما رآه، فقد سمع مرارًا بأنه يجدرُ بالمرء ألا يتحدّث عن كوابيسه، وألا يحاول تفسيرها. ربما إذا تظاهر بأنّه لم يحلم، بأن الكابوس لم يحدث، ربّما يكون بإمكانه أن يحوّر الأمر، ألا يكون هو الشيطان الذي كان يستعيذُ منه طوال عُمره.

قال سعود:

مازن شغّل لنا شي نسمعه.

حاضِر

شغّل مازن المذياع، امتلأت السيارة بصوت الإمام الشريم يرتّل؛ قد نرى تقلّب وجهك في السماء. غاض قلبه، زفَر. التفت إلى مازن:

متى نوصل رجال ألمع؟

لسّه باقي أربعة ساعات.

أطرقَ. سعود يدلّك كتفيْهِ:

ريّح فيصل، ريّح.

يطبطبُ على يدِ شقيقه:

أنا مرتاح، لا تشيل هَمْ.

ما ودّك تنام سويعة؟

لا!

انفجرت من فمِه مثل صرخة:

- مابـــي أنام!

لا يريد أن ينام، ليعود إلى ذلك المكان المخيف، المكان الـــذي يتخذ فيه ألمه شكلاً أكثر صراحة. صار قلبه يخفقُ بجنـــون، وجيبـــهُ يدوّي في أذنيه. أنفاسه تلهث. لا يريد أن ينام، لن ينام مهما حصل، مهما حصل..

سعود يدلّك كتفيهِ:

على راحتك بو مشاري، على راحتِك.

مكّة. عرفة

9 ذي الحجّة 1431

1:05 مساءً

الأرضُ تصعد.

هكذا فكّرت سميّة وهي تنظر إلى الجبل؛ الأرض تصعد إلى أعلى، إلى جبل الرحمة، أنا أيضًا سوف أصعد.

فكّرت بأنها إذا صعدت عاليًا فلسوف ترى أكثر، وستعثر عليه. مسحت بكمّها قطرات العرق المتزاحمة على جبينها، ثم سارت بثباتٍ تشقُّ طريقها إلى الارتفاع الصَّخري أمامها، بين ملايين الحجاج الشعث الغبر، المسربلين بالبياض، الدالفين أفواجًا أفواج، أمواجًا أمواج، حاملين فوق رؤوسهم مظلات ملونة تقيهم من الشَّمس. سار بجانبها شيخٌ هزيل أصلع، يمسك بمظلة خضراء، يلهج بشفتين متشقّقتين؛ ما أَهَلَّ مُهِلٌّ إلا بُشّر، وما كبّرَ مُكبّرٌ إلا بُشّر. نظرت إليه سمية؛ لبّي يا حاجّة. لبّي يا بنتي. اقشعرَّ جلدها، هزت رأسها تردّد؛ لبّيك، لبيّك، مشاري.. وصلت سمية إلى الصخرات، وقفت تسند ظهرها براحتيها وترسلُ عينيها إلى أعلى. سمعت رجلاً من ورائها يهتف؛ عرفة كلّها موقف وارتفعوا عن بطنِ عرنة. غرست أظفارها في الحجر ودفعت جسدها إلى الأمام، سابحةً في العرق، تقتنص أنفاسها من مكانٍ بعيد. جسدها يرتجف وساقاها تخوران، سقطت سمية مرارًا وعاودت المحاولة في كلّ مرة وهي تلهج؛ لبّيك، لبيك.

مشاري يا الله. بدأت الدماء تتفطّر من أطراف أصابعها وهي تغرس أظفارها في الصخرِ وتجذب نفسها إلى أعلى. وصلت عاليًا، عاليًـــا، حتى خلا المكان من النساء. اعترضها رجل؛ ما حاجتـــك لتســلّقِ الجبل؟ عرفة كلّها موقف، قِفي تحت! أشاحت عنه وتابعت الصعود، بأصابع مرتعشة وقلب مجنون. سالت حبّات العرق على جانبـــي وجهها وأنفها، أحسّت بملوحتها في فمِها وبالحرقة في عينيها. إنـــي أتسلّق ألمي! هذه تضاريس الجرح وأنا أعبرُها إليك، أسافر نحوك. لأن ليس لي سواك. أنـــزل عليَّ رحماتك، لبّيك، لبّيك.. ابتهلت مرة بعد مرة، حتى ذابت أصواتُ العالم في الصّمت، وساد في أذنيها ســـكونٌ عظيم، ولم تعد تسمع إلا خفقان قلبها.

صعدت سمية مع الأرض، طوال أربع ساعاتٍ، حتى وقفت على قمّة الجبل، والتفتت وراءها. كانت الشمس تغرب، وكان ملايـــين الناس ينتصبون وقوفًا مشدودي الأظهر، رافعين سواعدهم إلى فوق، ينهلون من بركات اللحظاتِ الأخيرة لأعظم أيّام السنة. فاض المكان بالحجّاج حتى تعذرت رؤية الأرض، وبدا المكان مثل صحراء بشرية تمتدّ إلى الأبد. جالت بعينيها فوق ملايين الرؤوس تبحـــثُ عـــن.. نظرت تحتها، أحسّت بقلبها يهوي، شهقت والدموع تسيل علـــى خدّيها. رفعت يديها عاليًا، مثل صاريتين؛ لقـــد عرفـــتُ يـــا الله! أجهشت؛ لقد عرفت! جبريل سأل الخليل؛ أعرفت؟ أعرفت؟ أجابه إبراهيم؛ عرفت، عرفت. أنا عرفت! أنا حبّة رمل في صحراء. قطرة ماء في محيط. شعرة على جلد ثور. هذا كل شيء، كل ما كان، كل ما سيكون، كل ما سأحتاج إلى معرفته في حياتي. أخـــذ جســـدها يرتجفُ وهي تجيل عينيها الدامعتين في المكان، تبحث عن شبرٍ واحدٍ

فارغ، شبر فرَّ من جغرافيا القيامةِ، من الحشرِ العظيم، من الـــرؤوس، الأذرع، السيقان، الأظهر، البطون. شبرٌ واحد غير مـــأهول. الأرض معبأةٌ بالحجيج، وكل هؤلاء، الذين أتوك من كـــلّ فـــجٍ وحـــدب وصوْب.. لقد عرفت! نحن، أنت. أنا. أنت. ما ظننته ضـــخمًا، في حقيقتهِ صغير، والألم الذي يشقّ أضلعي، هو لا شيء. ذرة تافهة في صحراء كونية، ودفينٌ على بقايا دفين، وحيٌّ يرزح تحت حي. وأنت الله الرؤوف الرحيم! أنت. أنا. كل هؤلاء. هم. نحن. أنـــت. كـــل هؤلاء أتوك يزحفون على رموشهم، ركبهم، أطـــرافهم، قلـــوبهم، أكبادهم. كل هؤلاء عبيدك، وعبادك، وأنا.. أنا عرفت.

وقفت مشدودة الجذعِ، مثل وترٍ، مأخوذة بمغيـــب الشـــمس تلهجُ؛ عرفت، عرفت. أخذت تقلّبُ عينيها في السّـــماء وشـــعرت، على نحوٍ غامض، بأنها هنا، على قمّة جبلِ الرحمة، تراهُ ويراها، كما يرى العالم كله، متجليًا في بهاء المكان، في أصغر حبة رمل وفي أبعـــد سحابة. ولثانية، ثانية واحدة فقط، نسيت كل شيء؛ الزوج، الولد، الألم، الألم، الألم. كأنها تتلاشى إلى ذراتٍ غبارية تتبدّد في الفضـــاء، كأنّها في كلّ مكان، في الأرض والجبل والشمس التي تغيب. وعرفت بأن المرء إذا تفتّت، سيتفتّت معهُ ألمه، وإذا تكتّل، سيتكتّل معه ألمـــه. تبدّدت سمية، غابت، وغابت تضاريس الجرح العظيم الذي تســـلّقته بيدين مقروحتينِ، ولم يبقَ في الجبّة إلا هُو..

الطريق إلى محافظة رجال ألمع

9 ذي الحجّة 1431

1:16 مساءً

كانت يسراهُ على المقود، ويصنعُ بيمناهُ علامة النّصر. مشاري عن يمينِه، يرتدي بلوزته الحمراء، وزوج نعله "الكروكس الجديد. يبتسمانِ لعدسة الكاميرا في هاتفِ سميّة.

سميّة توصيهِ:

دير بالك عليه سعود، لا يعبر الشارع بروحه!

يردُّ عليها مناكفًا:

خلاص عاد ذبحتينا بالحَنّة سميّة، محّد خلّف إلا انتي!

مو تشتري له حَلاوْ!

يتأفّف:

حاضر!

ولا تتعشّون همبورغر، شوفوا لكم مطعم زين وأكله نظيف.

يضعُ سبّابته على أنفِه:

على هالخشِم. شتبين بعد؟

مشاري يلوّح بيدهِ الصغيرة:

يالله يمّه مع السلامة!

سعود يضحك، يضعُ يده على رأسهِ وينكش غرّته؛

عيب يا صبـــي!

عمي! خرّبت شعري!

يدفع بأصابعهِ جبين مشاري إلى الوراء:

لسان طويل بعد!

يلتفت إلى سمية:

بالله متى ناوية تقصّين شعره؟ صاير چِنّه بنت!

سمّية ترد:

فيصل ناوي يقرعه إذا رحنا الحج.

والله عشنا وشفنا، نتفة ورايح يحِج.

عمّي!

يتذكرها واقفة بين شجيرات الجهنميّة، وقد التفت بشالها الكشميريّ، وتركت شعرها الأسود الطويل مسدلاً. ديروا بالكم. قالت قبل أن تدلف الحوش. لوّح الصغير مودّعًا، ضغط برجله على دواسة البنزين. انطلقت السيارة إلى محلّ العصير، في صوت المسباح ينسابُ من جهاز التسجيل "غدر الزمان بشملنا" مشاري يزفر:

عمّي هالأغنية مو حِلوة، غيّرها..

التفاصيل تنبض داخل رأسه؛ رائحة السجائر في سيّارته، كلونيا ما بعد الحلاقة على ذقنه، وعطر دهِل على شماغه. صوت المسباح ونزق مشاري ويد سمية تشير لهما ليبتسما للصورة. بعد دقائق من انطلاقة السيارة تبدأ المناكفات بينه وبينها بالرسائل النصية.

"يا ويلك تغازِل بنات جدّام ولدي!"

يضحك.

"شنو مغازل وخرابيط؟ أنا ما عندي هالمسخرة، أنـا إنسان مستنيم

"عويذ الله من شرّك سعود. تراني حذرتك"

"يمه خوفتيني

تفاصيل صغيرة جدًا، فتافيت تفاصيل، لم يتخيّل لحظةً أنها ستتدفق إلى رأسهِ بهذا الحضور الساطع. احمرار أزهار الجهنميّة. السور المعدني الأخضر. ضوْءُ عطره. ملمس شعر مشاري بين أصابعه. صوت المسباح منسابًا، وكل الكلام الذي قيل.

طوال الطريق إلى محلّ العصير، كان يملأ رأس الصغير بالمغامرات المتخيّلة؛ أنا سبع الليل وأنت يا "مْشيري" سبع البُرُمبة، احنا سباع وندكّ القاع. وهذه هي سيّارتنا الخارقة التي نستخدمها في المهمّات السرية. نحنُ نخرجُ في مهامٍ لإنقاذ العالم، وهو الأمر الذي يعني، كما تعرف، إنقاذ الفتيات الجميلات. هذا قدر الأبطال الخارقين، مثلي ومثلك يا "مْشيري"، والبطل الحقيقي يحتاج سيارة بطلة، ولا توجد في العالم كله سيّارة تضاهي هذه. إنها حبيبة قلب عمّك. يقولُ ذلك وهو يمسحُ بيدِهِ على جلد المقعد الأسود. لا مِيا بيلا سنيورا! يهمس بعد أن يقرّب فمه من المِقود. يسأله الصغير: كيف تعرف بأن أذنها في المقود؟ ربما كانت في السمّاعة! يهز رأسه: لا طبعًا، السماعة فمُها.

أين أنت الآن يا مشاري، وماذا حلّ بك؟ مسح بسبابته على وجهِه الضاحك تحت الغرّة الكثيفة. تحرّكت الصورة على شاشة الآيفون، ظهرت صورة أخرى للصغير، مستلقيًا على سريرهِ وسط الفشار بين يديهِ. كانت ليلة الخميس وكان يبيتُ عنده كالعادة.

يتفرّجان على كرستيان بيل يؤدّي دور باتمان. فالرجل الوطواط، هو نوعٌ من "السِّباع" التي تدكّ القاع، وعضو في عصبةِ الأبطال الـــذين ينقذون العالم، والنساء الجميلات تحديدًا، ولأنّه، مثل جميعِ الخـــارقين الجديرين بالاحترام، يركبُ سيّارة رائعة. طبعًا لا يمكنك مقارنتـــها بسيارة عملك! ولكن هذا لا يمنع أن صديقنا لهُ ذوق جيّد جدًا. انظر إلى هذا الفن؛ زعانف حول العجلات، أنفٌ مدبّب، تطلقُ قنابل من الجوانب، ولديها رشاشات أمامية، وخطّاف يمنع انـــزلاق السيارة.. حقًا، إنها سيّارة عظيمة! يحدّق الصغير في السيّارة بعينين متلألئـــتين، يكادُ يبكي تأثرًا. إذا كبرتُ سأشتري واحدة مثلها. يضحك سعود، يضع يده في الإناء ويتناول حبّة فشار، يقذفها في الهـــواء ثم يلتقفهـــا بفمِه. يضحكُ الصبي. الطريقة التي كان ينظرُ فيها إليه.. كأنّه بطله، كأنه الرجل الوطواط، كأنه الكائن الخارق، الفائق، المفارق، الـــذي يتدخل دائمًا لإنقاذ المحتاجين، أين هو؟ سأله يومها؛ ما أكثر شـــيءٍ تحبه في باتمان؟ قال أحبّ الوطاويط عندما تأتي لمساعدته! تخرج مـــن الكهف وتطير إليه لتنقذه. يهز رأسه إعجابًا بمنطق الصغير. أما أنا.. يزمُّ فمه قبل أن يدلي بما لديهِ من كلماتٍ يترقّبها الصبـــي محبـــوس الأنفاس؛ أنا لديّ سببٌ آخر لكي أحبّ هذا الفـــيلم. ينظـــرُ إليـــه مشاري، بعينين كبيرتين، ينتظرُ أن يفتح عمّه فمه لكي ينـــهل مـــن معينِ حِكمتِه. ينتظرُ لحظاتٍ حتى يبلغ التشويقُ مداهُ.. ثم يجيبه؛ إنـــه كرستيان بيل نفسه، ليس الرجل الوطواط، بل كرستيان بيل. يحـــوّل الصغير ناظريهِ إلى الشاشة، ينظرُ إلى الرَّجل الذي يؤدي دور بـــروس وين، لا يفهمُ. ينظرُ إلى عمّهِ محتارًا. سعود يشرح: إنه ليس وسيمًا. على الأقل ليس على طريقة هوليوود، إنه مثل أيّ رجلٍ عاديّ يمكن

أن تلتقيهِ في الشارع، وهذا.. يا مْشيري، أمرٌ عظيم. لماذا؟ ما زال لا يفهم. ما هو العظيم في البطل الخارق غير الوسيم؟ يجيبهُ بثقة: هـذا يعني أن أيّ أحدٍ يمكن أن يصبح بطلاً، وأن يحصل على حبيبة جميلة، وأن يقود سيارة رائعة. قال ذلك، ثمّ أدّى بيمينه التحية العسكرية لكرستيان بيل، الواقف ببزته الرسمية وربطة عنقه، أمام زيّ الرجل الوطواط، يتملى فيه. ودون أن يفهم الصغير شيئًا مما قاله عمّه، رفع يمناهُ بدورِه، وأدّى التحية العسكرية لكلّ هـذه العظمة؛ الرجل الوطواط، وبروس وين، وكرستيان بيل، وعمّه سعود الذي يعرف كل شيء عن الحياة.

تحرّكت إصبعه على الشاشة بضع مرّات، حتى ظهرت صورة لمشاري واقفًا أمام محلّ العصير، يرفع ساعديْهِ في الهواء ويضمّ قبضتيهِ، مثل ملاكمٍ منتصر. كان قد نجح في إنجاز (عملية رسول المحبة رقم 34)، والتي تعني ببساطة مغازلة فتاةٍ أخرى. كان هذا هو الجزء الأكثر إثارة من حياة المغامرة التي تجمعُ الاثنين، يدس في يده قصاصة ورق؛ اركض يا "مْشيري" روح عند البنت وسَبِّل عيونك. لحظة! لحظة عدّل شَعْرك! ينكشُ غرته بأصابعه ثم يدفعه من مؤخرة عنقه: يالله روح! ينظرُ الصغير إلى الفتاةِ المقصودة، يتلكّأ، يلتفتُ إلى عمّه هامسًا: عمي بس هذي مو حلوة! يقهقهُ. يشدّ أذنه: شوف شغلك يالنّتفة! يركض الصغير باتجاه الفتاة، ينجزُ مهمّتهُ. عند منتصف الليل، سوف يرنّ هاتفُ سعود، وستكون الفتاةُ على الجانب الآخر، مستعدّة تمامًا لأن تحبّه.

حرّك إصبعه، ظهر آخر مقطع فيديو صَوَّرَتْهُ سُميّة. في غرفة المعيشةِ، تمدّد على السجّادة الفارسية، فاردًا ذراعيهْ، ينادي ابن أخيه:

"مْشيري" امش على ظهرِي. كلما أوجعه ظهره لجأ إلى هذا الحل؛ في البداية تبدأ خطواتهُ متعثّرة، ثم يعتاد الوضع، يقفُ على ظهره، يقفز ويرقصُ، وسط قهقهاتِ والديْه. يدوسُ على رقبةِ عمّه، يصرخ سعود، ينتفضُ، يهربُ الصغير، يزأرُ سعود كالأسد، يطارد الصبيّ حتى يقبض عليه، يخلع عنه بلوزته، يعضّه عضات خفيفة وسريعة على كتفهِ وفي رقبتِه؛ وين تروح من سِبع الليل؟ الصغير يكركر. يتفلّت، يفرُّ، يختبئ خلف أمّهِ التي تصوّره بهاتفها المحمول، ويـن تنحاش يالنّتفة؟ أجيك أجيك! الكاميرا تهتزّ، ينتهي مقطع الڤيديو.

مكة. عرفة

9 ذي الحجّة 1431

6:16 مساءً

لا تعرفُ سميّة ماذا حدث لها فوق الجبل، ولكنّها عندما نزلت إلى الأرض، عرفت بأنها لن تعود الشخص نفسه أبدًا.

كان المكان يموج بأبخرة البولِ ورائحة الديزل، الأرض مغطاةٌ بأكداس القمامة؛ قشور برتقال، قناني لبن، أكواب بلاستيكية، مناديل، علب تمر، أرز، حفاظات أطفال. كانت تسير، كالسكرى، بين الباصات المتأهبة للإفاضة إلى مزدلفة، وعلى ثغرها شبحُ ابتسامة، تنظر إلى السَّماء وتمتلئ بخواطر باردة؛ أعرفُ بأنّك معي. تنفست بعمقٍ، وضمّت جسدها بذراعيها؛ أنت معي دائمًا. كانت الباصاتُ الواقفة على جانبي الشارع تتأهب للمضي إلى مزدلفة. عائلة كويتية تهرولُ حاملة أمتعتها. سمية تعرف هذه السّحنة. ابتسمت المرأة لسميّة وهي تصعد الباص ممسكة بالمقبض المعدني، المرأة تسأل:

تركبين معانا؟

هزّت سمية رأسها نفيًا. سوف تذهبُ إليه مشيًا. رفعت المرأة حاجبيها واتسعت عيناها.

أنا شايفتك من قبل، مو انتِ أم مشاري؟

أومأت سميّة.

- لقيتوا ولدكم؟

هزت سميّة رأسها:

قريب نلقاه.

خرج صوتُها ممتلئًا باليقين، دونما ألم. صاح السائق في المرأة كي تدخل ولا تعرقل مسير الحجّاج. تجاهلته المرأة وهتفت في سميّة:

عسى الله يجمعج بوليدج يا أم مشاري! والله إني أدعي لج ليل نهار. اللهمّ يا جامع الناس في يومٍ لا ريب فيه.. قولي دعاء الضالة أم مشاري، قولي دعاء الضالّة!

دخلت المرأة إلى الباص بعد أن تكدَّس فوجٌ عند المدخل ينتظر دوره في الصعود. واصلت سميّة المشي وكلماتُ المرأة تتردّد في داخلها. اللهمّ يا جامع النّاس في يومٍ لا ريب فيه.. ردّدها مرارًا، مع كل خطوةٍ كانت تأخذها إلى مزدلفة. اجمعني بضالّتي. لأوّل مرة تشعر سمية بأنها ليست وحيدة، وبأن السماء ليست صامتة. سارت طويلاً بين زحام المشائين الذين يفيضون إلى مزدلفة. إلى جانبها رجلٌ بقدمٍ واحدة، يتكئ على عكازه ويذهب راجلاً. شعرت بأنها في مكانها الصحيح، تفعل ما يريدُ لها الله أن تفعله. ثم سمعت صوته. الصوت الذي لا يمكن أن تكون مخطئة بشأنه. كان يبكي مناديًا.

امتلأ قلبها أملاً، تتبّعت خيط الصوتِ الهزيل تصيح؛ مشاري! مشاري! وينك؟! رأته متشنّجًا في وقفتِه بين رتلين من الباصاتِ، يوليها ظهره. إنه هو؛ الرقبة، الرأس، الشعر.. مشاري! نادتهُ بأقصى ما تملكُ من صوت، مشاري يمّه! التفت الصبيّ إليها، بُهتَت.

كان ولدًا آسيويًا، يبدو في عامه السادس، مدوّر الوجه مكتنز الخدّين، يصرخُ من أعماقِ قلبه. تشنّجت قدماها واقفةً تتملّى فيه.

كانت متأكدة بأنه هو. كيف يمكن أن تكون مخطئة في أمرٍ مثل هذا؟ صرخات الصغير تتواتر، تمزق كبدها. اقتربت منه وانحنت بجذعها إليه: أنت تائه؟ انفجر الصبيّ باكيًا، وتدفقت الرطانة الآسيوية من فمِه. هل تتحدّث الإنجليزية؟ تشبّث الصغير بعباءتها متوسّلاً. زفرت سميّة وهي تنظر إلى السماء؛ هذا ليس ولدي. راح الصبي يشدّها من أكمامها. اهدأ، اهدأ. وضعت يدها على رأسه وتخللت بأصابعها شعره الأسود الناعم. فتّشت جيوبه، لم تجد بطاقة تحمل أية بيانات. ماذا سأفعل بك الآن؟ سألته؛ ماما؟ انفجر باكيًا وردّد وراءها؛ ماما. شعرت بسكّين تخترقُ صدرها تشطرها نصفين. ماما؛ إنها كلمة عابرة للقارّات، تنفذ إلى القلوب مثل مدية. نظرت إليه تتملى في ملامحهِ الغريبة، وفكّرت بأنها إذا نظرت إليه بعمق، سترى بأنه لا يختلف كثيرًا عن مشاري.

مدّت يدها نحوهُ، التفت أصابعه الصغيرة حول أصابعها. ابتسمت. لنبحث عن أمّك. هل أنت من الفلبين؟ لم يبدُ عليه أنّه فهم. الصين؟ أندونيسيا؟ بدت الكلمة مألوفةً له. أنت أندونيسي إذن؟ أنا معلمة اجتماعيّات وبارعة في الجغرافيا، إنني أدرّس أطفالاً في مثل عمرك. أنت تبدو في السادسة. عندما كان مشاري في السادسة كان يتحدّث جملاً كاملة بالإنجليزية. لماذا لا تعرف الإنجليزية؟ ربّما لم يخطر لك أنك ستحتاجُها في مكّة. هل أنتَ من جاكرتا؟ لمعت عين الطفل وردّد وراءها؛ جاكرتا. ابتسمت سميّة. اسمي سميّة، وضعت يدها على صدرها وردّدت اسمها ثلاثًا؛ سمية. سمية. سمية. نشق الصغير مرّتين ومسح أنفه وعينيه بكمّه. وضعت يدها على صدره تسأله؛ ما اسمك؟ بدا عليهِ، هذه المرّة، أنّه فهم سؤالها. ردّد

ثلاثًا؛ كالي. كالي. كالي. أمسكت سمّية بيده وواصلت المشي. حسنًا يا كالي، سوف نبحثُ عن أمك. ثمّ رفعت عينيها إلى السماء حائرة: أ لهذا أتيت بـــي إلى هنا؟

الطريق إلى محافظة رجال ألمع

9 ذي الحجّة 1431

2:11 ظهرًا

يزفر.

لم يعد بوسعِ سعود تصفح المزيد من الصور ومقاطع الفيـــديو كانت التفاصيل في رأسه تتدافع، تتواثب، تتهافت، تتكالبُ، تحتشدُ في قيامةٍ كبرى؛ البلوزة الحمراء. شجيرات الجهنمية. باب الحـــوش. الرصيف الرمادي. السن الناقصة. كـــروكس باتمـــان. تفاصـــيل، تفاصيل، تفاصيل.. الألم يوجد في التفاصـــيل، الحـــبُّ يوجـــد في التفاصيل. سمع وقرأ دائمًا بأن الرّب موجودٌ في التفاصيل، اليوم فقط فهم المقصود.

أعاد هاتفه إلى جيبه وتَشاغل بتأمل الطريق، السماء، السحاب، الجبال. لم ير شيئا. لا شيء إلا أفكاره. تردّدت في رأسِهِ توصـــيات مازن؛ يجب أن نكون مستعدّين. يعرف ذلك ولكن.. كيف يمكن أن تحضّر نفسك لكارثة؟ كيف تستعدّ لتلك اللحظة التي تتبيّن فيهـــا لا نهائية الأمر؟ أين تنتهي إمكانيّات الأذى، وأين تبدأ أنت، يـــا ســـبع الليل المزعوم، يا وهما يتهاوى.. ملأت رأس الصغير بقصص الأبطال الخارقين، فلماذا تأخرت عليهِ كل هذا الوقت؟ أنا جايّك بابا. أنـــا جايّك. كان هذا وعدكَ، صوتهُ المرتعش المبحوح من فرطِ النحيب. لهفة سؤالهِ بعد أن تعرّف صوتك: عمي؟ الـــدمع يلســـع عينيـــك.

شقيقك يلتفت، يخترقك بعينيه، كأنه يقرأ كل فكرةٍ لعينةٍ ماجَ بها رأسك، تتشاغل بالنظر إلى الطريق. لا تريد لأخيك أن يرى خوفك؛ أنت سِبع الليل الذي أتى لإنقاذ الموقف! أنا جايّك فيصل، أنا جايّك! أنت دائمًا تجيء، تأتي، تحضر، تظهر. فماذا بعد حضورك؟ لا شيء.

سعود..

شقيقك يستدعيك من سرحانك المفتعل. هلا؟ يسألك السؤال الذي تحاشاه طوال ثلاث ساعات؛ هي شنو قالت لك بالضبط؟ كنت تعرف بأنه سيسأل. تفتحُ فمك بآلية، تضبط نبرة صوتك لتجيء محايدة: قالت نروح "رجال ألمع" وننتظر اتصالها الثاني. وين في رجال ألمع؟ تحت جسر سمّته.. "كوبري خرار شيء چذي. يسأل متشككًا: بس؟ ما قالت شي ثاني؟ عيناك تزوغان، تنحرفان يمينًا. تحس بجلدك يسخن ويحمر. إي بس. لطالما كنت بارعًا في الالتفاف. أنت المغازل المخاتل. لم تجد صعوبة في الكذب قط، فما بالك اليوم؟ فيصل يوجعك بعينيه الموجوعتين، يسألك: ومشاري؟ تفتعل ابتسامة: ما فيه إلا العافية. تزدرد ريقك وتضيف؛ الولد كلّمني بكل هدوء وعرف صوتي من أوّل ما سمعه، لا تشيل هم. زفر فيصل؛ الحمد لله! ساد صمت دقيقة، ما لبث أن قطعه بكاءُ أخيك الذي تصاعد فجأة. علامك ياخوي؟ كان المفروض أنا اللي أكلمَه! أجاب منتحبًا. هز مازن رأسه مبتسمًا؛ تبغى الصدق يا أبو مشاري؟ كويّس إنو سعود هوا اللي رد على الاتصال، مو إنت، ما أظن إنك حتتحمّل تسمع صوتها. فيصل، لدهشتك، يومئ. لو أنه سمع صوتها لأمطرها باللعنات. لو أنّه سمع صوته لخرَّ على ركبتيه.

أنت محاصر. كيف يمكنك النفاذ من نطاق عينيه المتسائلتين، الغارقتين في الفجيعة؟ كل التطمينات التي تمنحُها له كاذبة. وأنت كاذبٌ كبير. الخاطفة قالت الكثير مما أفزعك. أشياء لا تدري في أيّ سياق عليك أن تضعها لكي تفهمها على النحو الصحيح. لم تكن تدري لماذا، عندما رنّ الهاتفُ في يدك تلك اللحظة، وظهر على الشاشة الرقم الغريب، أخبرك صوتٌ في داخلك بأنها هي. بقدر ما عرفت بأنك الشخص الذي ينبغي أن يتولى أمر المكالمة. شيءٌ ما حدث، وخزة صغيرة في الجانب الأيسر من صدرك، وخزة غريبة.. أنبأتك بأنك في المكان الصحيح، في الزمن الصحيح، تفعل الشيء الصحيح؛ تردّ على اتصال الخاطفة. وكأنك أتيت إلى مكة لأجلِ هذه اللحظة بالذات. رفعت السماعة إلى أذنك وصار وجودك كلّه أذن، وهي.. عليها اللعنة، كانت تتحدّث مثل إلهة.

أنا أخذتُ ولدك، وأنا أعيده.

إذا كنت تريد ابنك تفعل ما أقول.

ولدك عندي، والمليون دولار عندك، نحن نتبادل.

المبادلة بشروط، إذا لم تنفذ شروطي سأبيع ولدك على آخرين، وسوف تنسى أن عندك ولد.

تحفظ شروطي مثل قرآن:

أنت لا تتصل بي، أنا فقط أتصل.

أنت لن تبلغ الشرطة. إذا بلغت الشرطة سوف أقطّع ولدك وأبيعه؛ قلب، كبد، عين.

أنت تأتي بسيارتك، مع المليون دولار، إلى رجال ألمع، الساعة 10 مساءً. تنتظر تحت كوبري خرار، حتى يأتيك اتصالي الثاني. عندها أعلمك بمكان المبادلة.

فهمت؟

لا تدري من أين أتتك القوّة لكي ترد:

أسمع صوت ولدي؟

اتسعت حدقتا فيصل، همّ ينتزع الهاتف من يدك. اعترضه مازن. قبض على ذراعيهِ بقوة.

سيب أخوك يتصرّف.

كنت تسمع صوت مشاري ساعيًا إليك من أعمق فجاج الخوف: بابا؟ بحّةٌ كثيفة تسكنه، كأنّه لم يكفّ عن البكاء. تفجّرت الدموع في عينيك، اختنق صوتك، فتحت فمك ثلاثًا دون أن يخرج صوتك، عاد الصغير يهمس:

بابا؟

جاهدَت لكي تجيء بصوتٍ نظيف، لا تشوبه الدُّموع.

مشاري، أنا جايك بابا.

عمّي؟

أنا جايّك.

الفصل السادس

نَذير

البحر الأحمر

9 ذي الحجة 1431

10:20 مساءً

كان طافيًا في عرضِ البحرِ، واللّيل، والصّمت.

توقّف القارب بعد أن ابتعد مسافة كافية عن الساحل، محمّلاً بأطفالٍ مكمّمي الأفواه، مقيّدي الأقدام والأيدي، غائبين عن الوعي.

أطفأ جرجس المحرّك، أنزل المرساة، وانهمك يبحث في صرّة الثياب. قرفصت صالحة على حافّة القارب، تتصبّب عرقًا؛ لأوّلِ مرّة تجد نفسها خارج الأرض. تمسّكت بطرفِ القارب بقوّة وشعرت باختضاضاتِ الموج تتغلغل في أحشائها. اختلطت في أنفها رائحة الملح، وزيت المحرّك. جاشت معدتها. نظرت إلى جرجس، ممسكًا بمصباحه اليدويّ، يبحث بين ركام الثياب المبعثرة. استخرج من أحد الجيوب جهازًا غريبًا يصدرُ ترددات صوتية. وسجائري؟ سجائري! أين سجائري؟ أين؟ كان يهمهمُ. وجد علبة ولفافات التبغ في كيس نايلون. ضحك، كأنّ الأمر فاجأه. أخرج لنفسه عُلبة، ثم راح يتفحّص الجهاز بيدِه. تمتمَ؛ نحن في مأمنٍ من أمن السواحل. بدا وكأنه يحدث نفسه. أطفأ المصباح واتكأ على الطرف المقابل للقارب. كانت غلالة من السحاب تحجب القمر، ساد ظلامٌ تام. لم تكن صالحة ترى شيئًا، باستثناء شفتيّ جرجس وذقنه يلمعان في

الظلمة من توهّج جمرة سيجارته. غلبها الغثيان. ماذا ننتظر؟ سألته، وهي تتملى في الشعر النابت حول الفمِ الشهواني. القارب. قال.

ساد صمتٌ كأنّه الليل. أحست صالحة بعينيه تخترقان طبقات العتمة وتسبران أغوارها. ترى بماذا يفكّر؟ رصاصة في رأس عثمان، سكّين في بطنِ روينا. الكويتي هرب والهندية تحتضر. لقد أفلتت الأمور من يده دفعةً واحدة. أحسّت بعينيه تنكشانِ، رغم الليل، تفاصيلها. هل ينظر إليها أم أنها تتخيّل الأمر؟ لأول مرة شعرت بأنها تخافه. صارت تعرفُ بأنّه إذا عمل المرء مع جرجس، فهو يصبح عبدا له طوال حياته، وإذا خطر له، مثل روينا وعثمان، أن يلتفَّ حوله، أن يتركه.. سينتهي به الأمر برصاصةٍ في الرأس، أو سكّين في البطن. جثثا طافية على ماء أسود.

كان توهّج جمرة سيجارته ينعكس مضيئا على ذقنه. تملّت صالحة في اكتناز شفته السّفلية. وتساءلت إن كان سيقتلها أيضًا. ارتعشت. خيطٌ باردٌ من العرق سال من نهاية رقبتها حتى أسفل ظهرها. تلاطَم الموج أسفل القارب. أغمضت عينيها متمسّكة بالطرف. إنها القروش. همس جرجس. ارتعدت أوصالها وشحب وجهها. أنتِ خائفة؟ هل توهّمت الأمر، أم أنها سمعت في سؤاله صوت ابتسامته. بدا لها أنه يتسلّى، وهو يهمس باسمها؛ آه، صالحة، صالحة، صالحة.. كأنّها الفأر في وكرِ النمر. ضربةٌ سفلية خبطت قاع القارب. أفلتت صرخة. ضحك جرجس. تصاعد لهاثها وهو يخبرها بألا تقلق، إنه مجرد قرش جائع يحاول أن يقلب القارب بمن فيه. التصقت بالطرف تتمسّك بكل قوّتها. روينا لم تخف من القروش قط. علّق ساخرًا؛ كانت تزجي الوقت في لف السجائر. ردد مترنمًا: روينا. روينا. عجوزي القديمة.

روينا العجوز. كان يسخرُ منها، هي التي أرادت أن تكون ذات الحظوة بين أفراده عمومًا، ونسائه خصوصًا. أن تكون خدينة الرجل الذي يقول البعض إنه إله، ويقول البعض إنه شيطان. أرادت أن تكون مكان روينا. ولكن.. روينا العجوز، لا أحد مثلها. رفعت رأسها بصعوبةٍ، تحاول أن تسبر عمق السواد الذي يمتدّ إلى الأبد. الظلام، البحر، القروش، جرجس.. لهاثها يتصاعد وقطرات العرق تتزاحم على جبينها. خرج بعض الأطفال من النوم، وشرعوا في البكاء، تسلّل بكاؤهم من خلف كمّامات أفواههم مكتومًا، حسيرًا. نهرها؛ أسكتيهم وإلا فضحونا. بصعوبةٍ أفلتت يدها طرف القارب، أخذت تحبو على أربعٍ باتجاه الأطفال الباكين، أخرجت المنشفة بأصابع مرتعشة من حقيبة الإسعافات الأولية. كمّمت أنوفهم وأفواههم. ساد الهدوء ثانية. عادت الأمواج تتلاطم. أحسّت بقلبها يضرب بجنون بين أضلاعها. خرج صوتها مرتجفًا، مفضوحًا:

من الأفضل أن يسرعوا، هذا القاربُ ليس آمنًا.

صعّر خدهُ ساخرًا:

انتظري حتى تري قوارب الكوبيّة..

الكوبيّة؟

ألا تعرفين ما هي الكوبيّة؟

إنه يمعن في السخرية من جهلها. فكرت بأن عليها ألا تظهر خشيتها منه. ردّت بحدّة:

وكيف أعرف؟ إنها رحلتي الأولى!

هذا صحيح. ابتسامةٌ غامضة حطت على شفتيه. نفخ الدخان من منخريْهِ، استلّ من السيجارة نفسًا عميقًا: الكوبيّة هي قواربُ

الهجرة. سكتَ برهةً، ثم أضاف: إنها تعني المجازفة بالحياة. ارتجَّ القاربُ ثانية، قبضت صالحة بيديها على طرفه المنتفخ. واصل؛ لو قدّر لكِ أن تزوري سواكن، على الساحل الغربي للبحر الأحمر، سوف تسمعين هذه الكلمة كثيرًا، سوف يقولها المهرَبون عن المهرَّبين، والمهرَّبون عن المهربين.. وهكذا. ألقى بعقبِ السيجارة في البحرِ، وهمَّ بإشعال أخرى. كان حديثه متمهّلاً؛ إنها سنابيك صيدٍ صغيرة وغير آمنة للملاحة، تهرّبُ الناس إلى اليمن، أو السعودية، مقابل عشرة آلاف دولار للرّأس. بدأ الدوار ينـزلُ من رأسها إلى بطنها. وضعت راحتها على فمِها. هل أنتِ جيدة في لفّ السجائر؟ سألها. رفعت رأسها بصعوبة، تنظر إلى السواد الممتدّ الذي لا تخترقه إلا جمرة سيجارته، وتلكما الشفتين الغليظتين الشهوانيّتين، المبتسمتين رغم البحر وأسماك القرش. اتسعت ابتسامته: خذي سيجارة. اشتد اختضاضُ الموج. أفلتت صرخة. ششش.. اهدئي! التفت صوب البحر من ورائه؛ القروش جائعة. فكّرت بتلك الوحوش البحرية وهي تطاردُ سنبوكًا متهالكًا. تضربه بأذيالها، تخرقهُ بأنيابها، تخيّلت المياه تتسرّب إلى سطح القارب، تخيّلت القارب ينقلب بمن فيه. تخيلت أنها تصرخ، تغرق، تسقط في عتمة الماء. القروش تتكالب على جسدها، تقطّعه، تتناهشه. لماذا السنبوك إذا كان قاربنا هذا أفضل؟ ازدردت ريقها. كان صوتها يرتعش.

لأنّها اختصاصات.

لا أفهم.

زفرَ وكأنه يضيق ذرعًا بجهلها، وخوفها، وغباء أسئلتها:

هل تعتقدين بأن أيَّ شخصٍ يستطيع أن يأتي إلى منطقتنا وينافسنا في عملنا؟ الأمر ليس بهذه البساطة.

سحبَ نفسًا من السيجارة. نث الدخان من منخريه، أردف:

وفي حقيقة الأمر.. نحن كلّنا نعملُ لدى الرّجلِ نفسه.

انطفأت ابتسامته، وهو يذكر الرّجل الذي يعمل بأمرهِ الجميع. الرجل الذي يديرُ الأوكار، ويحرك القوارب، ويستلم الأطفال، ويقبض الملايين. الرجل الكامن وراء الأمر برمّته. ماذا عساه سيقولُ له؟

يومٌ رابع

جازان

10 ذي الحجّة 1431

3:12 صباحًا

كان رأسه ممتلئًا بصياح امرأةٍ؛ اجري! اجري!

كانت قد وعدتْ بأن تعيده إلى أمّه. ولكنها تركته يركض وبقيت في البحر. سمع دويّ رصاصة يثقب الليل. فرَّ حافيًا، والشوك يدخل في قدميه، خرج من الماء وذاب في الظلام.

وعدتْ المرأة بأنها سوف تخبئه في كهفٍ حتى يأتي والده. ولكنها اكتفت بالصراخ. المرأة التي أخذته وعدت بأن تعيده ولكنها لم..

تعثر بجذعٍ مخلوع، سقط على وجهه بين الصبّاريات. أمسك بالسيقان الخضراء المكتنزة، امتلأ جسده بالدبابيس الصغيرة. خاف أن يصرخ فيدلّهم على مكانه، ابتلع الكثير من البكاء في داخله، سال أنفه، نشقَ، نهض ليواصل الرّكض.

الأرض جارحة تحت قدميه. ينتهي الركض فتبدأ الهرولة. تنتهي الهرولة فيبدأ المشي. ينتهي المشي فيبدأ الترنّح. ركض، هرول، ترنّح، مشى لساعاتٍ بدت بلا نهاية. كان الظلام دامسًا والصمت أبديًا.

سار حتى حدود العطش والجوع. صار لسانهِ ثقيلًا وخشنًا. زغللت عيناه. دخل العالم في الغبش. أنا مريض! همس، خرج صوته ضعيفًا. أراد أن يصرخ: ماما! ولكنه خشي أن يعثروا عليه.

صارت ساقاه ثقيلتين، والشوك يؤلمه في يديه وقدميه. مع كلّ خطوةٍ كان يهمسُ؛ أنا مريض. يجرجر خطاهُ بصعوبةٍ في الخلاء. يتنفس بالكادِ، هواء ملحيًا وثخينًا. قدماه حافيتان، مجروحتان. وطأ بقدمه حافة حجر، سال الدم من كعبه. سقط على ركبتيه. بكى. فكر في نعله الكروكس، في حقيبة أمّه. قطع أميالا في الهذيانِ والحمّى، ثمّ قرّر أن يكفّ.

تمدّد على جنبهِ عند جدارٍ متهالكٍ لبناء مهجور. سوف أنام ماما. أغمض عينيه وحلم بأنه يحلم؛ رأى أطفالاً يرتجفون في زاويةِ غرفةٍ خالية. حاول أن ينضمّ إليهم، زحف ناحيتهم باكيًا. كانت المرأة تمسكه من كعبيه وتسحبهُ إلى حضنها. امتلأ أنفه برائحة عرق حامضة. صرخ، حاول أن يتملّص، مدَّ يده نحو طفلٍ أسود. المخاط الأخضر تيبّس حول منخريه. لمح في الزاوية طفلة ممددة على ظهرها تباعدُ ما بين ساقيها، رأى لحمًا ممزقًا بين فخذين هزيلين وبقعة دمٍ تتّسع على الفستان. انتفض. رفس ولوّح بذراعيه، اقترب الولد الأسود، هشت عليه المرأة؛ ابتعد أيها الوسخ! أنت.. أنت ابقَ هنا. قبّلته، عصرته بين نهديها العظيمين، تخللت غرته بأصابعها. أنت تبقى معي. هزّ رأسهُ ينوح فقرّبت فمها من أذنهِ وهمست بكلامٍ كثير. في البدء لم يسمع، لم يفهم، واصلت الهمس حتى سمعها أخيرًا؛ إذا تصرّفتَ بشكلٍ جيّد سوف أعيدك إلى أمّك. لم يصدّق ما سمعه، هز رأسه. ثبتت رأسه بيديها. تريد أن نتصل بأمك؟ إذا هدأت سوف

أتصل بأمك. ارتخى جسدهُ، كفَّ عن البكاء، جلس هادئًا يضمّ ساقيه المطويتين بذراعيه، متكورًا في حضن المرأة. كانت تغنّي وهمس، همست بكلامٍ كثير، لم يفهمه كلّه، ولكنه فهم بعضه. كانا جالسيْن بين النساء الأخريات والأطفال الباكين، وهي تلقّنه خطّة هربه، دون أن يشعر هما أحد. قالتْ له أمورًا كثيرة، بين كلامٍ وكلامٍ كانت تمزج. صدّق الجميع بأنها تغنّي. حدّثته عن بحرٍ وكهف. لن أنوّمك مثلهم. دندنت. هؤلاء الأطفال سوف يموتون. أنت تسمع كلامي، لا تموت. تيبّس جسده ذعرًا وهو يرمق الصغار الآخرين بعينين جزعتين. أحرّرك عند الشاطئ وهرب. لم يفهم. الأغنية تثبُ وثبًا. أخبئك في كهف. قالت ذلك، ثمّ سالَ صوتُها في غناء حزين. توجد ذئاب هنا. إنها تهدده بالموتِ وتغنّي له وتقبّل جبينه وتهمس بأذنه وتعصر ذراعيه بقبضتيها. تشنّج، جالسًا، بين فخذيها وشخص ينظرُ، عميقًا، إلى الفتاة السمراء التي تئنُّ في الزاوية وتردّد؛ يَبي، يَبي.

أعطتهُ ماء وخبزًا، أكل وشرب، وصار بقية الأطفال يحسدونه. هذه المرة لم همس. سألته إن كان يريد التبوّل؟ هزّ رأسه. عرف أن عليه أن يبول. نادتها المرأة الأخرى. هشت عليها بيدِها. أجابتها بالعربية. الولد سوف يبول. أمسكت بهِ وأخذته إلى الحمّام. خلعت سرواله، انشغلت عنه تنظر إلى وجهها، في مرآة مكسورة تشطرها نصفين. امتلأ أنفه برائحة المراحيض. وقفت تنتظرُ أن ينهي تبوّله ثم وضعت سبابتها على فمها. أخرجت الهاتف من جيبها واتصلت على الرّقم الموجود في قصاصة بيضاء. القصاصة التي كان يضعها في جيبهِ. قرّبت فمها من سماعة الهاتف وغطته بيدها الأخرى؛ أنا أخذتُ ولدك وأنا أعيده.

عندما وضعت السماعة على أذنه كان يتوقع أن يسمع صوت أبيه، ولكن الصوت الذي سمعه.. عمي؟ اختطفت منه الهاتف ثانية. أحدهم يخبط على باب الحمّام؛ ما الذي تفعلينه 4 مع الولد؟ افتحي الآن! افتحي الباب الآن! أغلقت الخط، فتحت الباب وهي تمسكُ بيده. لماذا هذا الصراخ؟ الولد يريد أن يتبوّل! نظر الرجلُ إليهما بعينين صفراوين. رطن بكلماتٍ غريبة. ردّت عليه بالرطانة ذاتها. كانت تلوّح بيديها، صرخ ودفعها. ارتطم رأسها بالجدار. يده تشير إلى غرفةِ الأطفال. تسحبه من يده إلى الغرفة، تجلسه في الزاوية. ينظرُ إلى الأطفال المتكدّسين في الزاوية المقابلة، الأطفال الذين سوف يموتون، كلهم.. كلهم. سمع الطفلة الهندية تئنُّ؛ پَني! پَني!

حبا على ركبتيهِ إليها، قرّب من فمِها قنينة ماء.

البحر الأحمر

10 ذي الحجة 1431

12:21 بعد منتصف الليل

أخذت تحبو باتجاهه، بين أجساد الأطفال، وركـام الملابـس المبعثرة، حتى وصلت إلى جانبه. قرفصت مستندة إلى طرف القارب. متمسّكة بطرفه. تناولت السيجارة من فمه وسحَبت منـها أنفاسـا متتالية. هدأ اضطرابها، اتكأت بجنبها على طرف القـارب المنـتفخ بالهواء وسألته؛ من هو الرجل؟

صعّر خده. تساءل وهو يتملى في جسدها كيف سيبدو الأمـر معها. هل تجيدين لف السجائر؟ نظرت إليه مقطّبة. من هو الرّجل؟ أخبرني. سحب السيجارة من فمها. لا فائدة منكِ. ألن تخبرني؟ نعم. تريدُ هذه الصبية أن تعرف من هو الرجل الحقيقـي الـذي تعمـل بإمرته. وكأنَّ فُضولها قد تفوق للحظة على خوفها. مطّ شفتيه؛ يجب أن تتعلّمي لفَّ السجائر. كان يحبُّ الطقس الذي يعقبُ المعاشـرة. يحب رؤية امرأة تتناول بأصابعها الصغيرة السمراء نثارة التبغ، تفردها على الرقاقة، تلحس طرفها بلسانها. أحس فجأة بذلك الفراغِ المزعجِ الذي خلَّفته روينا، عندما تركها في عـرض البحـر، والسـكّين في بطنها. نضح وجهها من ذاكرته، بانتفاخ جفنها والكدمة في زاويـة فمِها وضفائر رأسها البيضاء في المنبت، الحمراء في الأطراف. لقـد أخذها مرارًا في سريره وأخذته في أعماقها. لم تكن تسـأله، بهـذه

السذاجة، عن عمله. كانت تعرف دون أن تسأل. ولكن الصبية تلحّ؛ هل سبق والتقيته؟ من أيّ بلدٍ هو؟ هل هو رجلٌ مهم؟ قذف بالسيجارة في البحرِ وتمتم؛ تأَخَّر القارب. صالحة غبية، سذاجتها لا تغتفر! من أين له أن ينجز الأمر بهذه السهولة من دون نفوذ الرجل المهم؟ ومع ذلك هو لم يلتقِ به قط. التقى بأحدِ رجاله وحسب. رجلٌ من الصحراء يسمّونه السلطان. يسلّمُ البضاعة ويقبض دولاراته. بحث بين الأغراض عن مصباحِهِ اليدويّ، شغَّله بحذرٍ ومرّره على وُجوه الأطفال. كانوا غائبين عن الوعي؛ طفلة هندية واحدة، خمسة أطفال سود، عراة، اثنان منهم بلا أطراف. بضاعةٌ مثالية. أخذَ يُفكِّر بعملية اختطافٍ كبيرة بعد هذه، يعوّض بها خسارته. كان يفترض أن يجلب معه اثني عشر طفلاً، ولكنه لم يقدر إلا على ستة. واحدة منهم تموت. بمجرد أن وصلهُ المنشور قرّر أن يذهب وراء السَّمكة الكبيرة. أن يعبر البحر بالطفلِ الكويتي إلى سيناء حيث يمكنه التفاوض على أرقامٍ أعلى، ولكن الآن وقد هرب.. سوف يمضي إلى المخيمات التي يعرفها جيدًا، والتي عاش فيها ردحًا من عمره، ويختطف منها عشرات الأطفال. لقد سَئِم الرّبح القليل. اللعنة عليك يا عثمان. سمع مؤخرًا عن عصابةٍ اختطفت مئة طفل. مجموعة من الأوربيين قدموا إلى المخيّمات تحت مظلة التبشير. دفعوا للأسر ألف دولار مقابل أن يأخذوا أطفالهم إلى مدرسة مسيحية. لا أحَد سمع بهذه المدرسة، ولا الجمعية التبشيرية، و لم يعرف أحدٌ بما حلَ بالأطفال. اللعنة على هؤلاء البيض. لو قَدِمَ إلى المخيّمات بصفته مبشرًا أو داعية لما صدَّقَهُ أحد. يلزمه لونٌ مختلف، لون العالم المتحضّر، الذي يذهب إلى الجريمة بقفازاتٍ نظيفة، وربطة عنق.

صوّبَ ضوء المصباح إلى وجه صالحة. كانت تبحلقُ فيه بعينيها الكبيرتين، الفضوليتين. مرّر بقعة الضوء على أطرافها. ماذا تفعل؟ مَسحَ بالضوء فخذيها، بطنها، نهديها، نحرها.. يريد أن يصعد أكثر في الشبكة، أن يكون مثل السُّلطان، تحت الرَّجل مباشرة. هو يعرف الرجل الذي يعمل بإمرته، ولكن الرجل لا يعرفه. فهو مجرد ترسٍ في هذه الآلة العملاقة. كان يرى صورهُ في الجرائد، والفضائيات، ببذلته الرسمية وربطة عنقه الحريرية الحمراء. يعرفه كما يعرف شركاءه، بأيديهم المغسولةِ بالصّابون الفرنسي، المعطّرة بماء الكولونيا، الذين لا يبرحون مكاتبهم المكيّفة، وتُسكب الملايين في جيوبهم مباشرة. لقد حدثه السُّلطان عنهم واحدًا واحدًا؛ جنرالات ووزراء من بلدانٍ متفرّقة، والحاخام الذي يرجع إليه الأمر كله. يعرفهم ولا يعرفونه، هؤلاء الآلهة.

ماذا تفعل؟ كانت بقعة الضوء مسلّطة الآن على وجه صالحة، وهي تغطي عينيها بساعدِها الأسمر الرقيق. ما بك؟ ماذا حصل لك؟ سألته مستنكفة. لقد سرح عميقًا في أفكاره وفي تفاصيلها. إذا لم تتعلمي لفَّ السجائر سوف تحدث بيننا مشكلة. ما قصة لفّ السجائر معك؟ لا أحبّ الأصابع البليدة. صوّب الضوء إلى أطراف أصابعها. هل فهمتِ؟ ازدردت ريقها. لم يسبق لي أن.. يجب أن تتعلّمي. وضع يده على فخذها؛ ليس صعبًا. قاطعهُ صوتُ أنين. سأل ساخطًا؛ ما هذا؟ الهندية تردّد؛ بَني! بني! اقترب يطلُّ من وجهها، كان تنفسّها بطيئا، وقد اصفرّت بإفراط. إنها شاحبة جدًا. قالت صالحة، ثمّ رفعت ذيل فستانها لتكشف عن اللحم الممزق بين فخذيها:

- لقد نزفت كثيرًا.

اسقِها بعض الماء.

إنها غائبة عن الوعي، كيف أسقيها؟

اسقِها وحسب.

أزعجه شكلُ الطفلة، لا يبدو أنها ستنجو. هذه خسارةٌ أخرى، جسيمة، يضيفها إلى خساراتهِ. روينا قالت؛ هذه سوف تموت. كان مستعدًا للمخاطرة بحياتها وقد نجح في اختطاف الطفل الكويتي، ولكن الآن.. يحتاج أن يبقيها حية لأسبوعٍ.

الماء الذي معنا قليل وهي ستموت على أية حال.

اخرسي واسقِها كما آمركِ.

برطمت صالحة وهي تقرّب ترمس الماء من شفتيّ الصغيرة. تظاهر بأنه لم يسمعها. عاد يجلس في زاويته. يصوب إليها ضوء مصباحه اليدويّ، يدخّن. افعلي كما أقول، هل فهمتِ؟ صار الجهاز في يدهِ يستقبل الإشارات. ابتسم؛ لقد وصلتْ الكويتيّة.

جازان

10 ذي الحجّة 1431

7:02 مساءً

فتحَ عينيه. رأى غبشًا أبيض تخترقه كتلة سوداء. الكتلة تدنو.

سمع مشاري صوتًا يردّد: بِني! بَني! أراد أن يحـــرّك شـــفتيهِ. لم يقدر. عاد الصوتُ يدوّي في رأسهِ؛ بَني لاركا! بِني! جسده يشـــتعلُ من فرطِ الحمّى. أحس بيدٍ تحتضن رقبته وترفع رأسه إلى الأمام. شيءٌ باردٌ لامس شفتيه المتخشبّتين. تدفّق الماء إلى جوفهِ وسال قليلٌ منـــه على عنقه. يريد المزيد، شفتاه لا تتحرّكان. أغمض وفتح عينيهِ مـــرّة أخرى. تراجع الغبش الأبيض إلى الوراء. أبصر ألوانًا أخرى؛ رمادي، أسود، أزرق. رأى وجه رجل. رأى سقفا مـــن الجـــبس الأبـــيض ومروحة لا تدور. قلّب عينيه في المكان، رأى جهاز تلفزيون، بابًـــا معدنيًا، عاد ينظر إلى الرجل. كان حليق الذقن، كثّ الشارب، لـــه عينان غائرتان تحت حاجبين غليظين، بشرة سمراء، وأربعة خطـــوط متعرّجة على جبينه. يرتدي بنجابـــي ويعتمر طاقية بيضـــاء. يـــدهُ اليسرى مدسوسة تحت رقبته، اليمنى تمسك كأس ماء. قلّب عينيه في المكان، رأى على الجدار قصاصات صور، أجساد عاريـــة، نســـاء. أغمض. نضح الرجل ماء على وجهِه، ثم سكب بعضًا منهُ في راحـــةِ يده. بصعوبةٍ حرّك الصبـــي شفتيه، تمتم بصوتٍ واهن؛ ماي! قـــال الرجل؛ بِني.

أحس بيد الرجل تضغط على صدره. سمعه يبسبس ويبسمل. عرف بأن عليهِ أن يقول يَبِي وأن الماء سيجيئه فورًا. شرب وأغمض. رأى نفسه حصاة تقذف إلى جدار، شهق مستيقظًا. هذه المرّة رأى بشكلٍ أفضل، طاقية الرأس والشارب الكث والرجل الذي يرطنُ.. سمع أزيز جهاز التبريد في زاوية الغرفة. رأى الرجل يقرّب أصابعه من فمِه، يردّد بصيغة استفهام؛ چرنا؟ كان جائعًا. هزّ رأسه. ينهضُ الرّجل من مكانهِ ويعود حاملاً وعاء نحاسيًا مليئًا بالأرز. اغترف الرجل أرزًا بأصابعه وملأ بهِ فمه. ازدردَ الأرزّ الأبيض، البارد، الجاف، وأغمض. رأى وجوههم هذه المرة. كانوا يضحكون. عمّه يمدّ يديه أمامه؛ **تعال** يالنتفة طِق لي أصابعي. يبذلُ جهده، يمسكُ بالسبّابة الممدودةِ بيديهِ الاثنتين ويشدّها إلى الخلف. طَق! يخرج الصوت بمثابة انتصار. يعصره عمّه بين ذراعيهِ؛ حاول تفك عمرك. يكابدُ ليتملّص، وسط الضحكات. يخلعُ عمّه بلوزته ويلقي بها في الهواء. يدغدغه في إبطيه. يكركرُ. رطانة تأتيهِ من بعيد. يفتح عينين ثقيلتين، يرى، مرة أخرى، الرجل الأسمر بطاقية الرأس البيضاء، يقلّده مكركرًا؛ **كيون هنسى، لڑکے؟** مرّة أخرى يسمع هذه الكلمة؛ لاركا. لا بدّ وأنه اسمه الجديد. كل شيءٌ يختلط في رأسه بسبب الدوار. يرفع يده، بوهنٍ، يشير إلى صدره، يفتح فمه بصعوبةٍ: اسمي مشاري. ينظرُ الرجل مستفهمًا. يسعلُ، يخرج صوته أصفى: مشاري فيصل. يدهُ تشير إلى منتصف صدره. ماي نيم مشاري فيصل. يتعثر لسان الرجل: مساري لاركا؟ يهز رأسه نفيًا. مشاري. هذه المرة نطقها بشكلٍ صحيح. سأله؛ يور نيم؟ يضع الرجل يده على صدرهِ: نظام. نظام شجاع الدّين. يعيدُ الصغير وراءه: نظام شجاع الدين. يضحكُ الرجل؛ سمارت لاركا. مشاري..

البحر الأحمر

10 ذي الحجة 1431

3:14 صباحًا

سنبوك خشبيٌ متهالك، بمحرّكٍ واحدٍ، يحملُ على متنهِ جرجس وصالحة، وقائد المركب، وستة أطفال نيام، يقطعُ مياه البحر الأحمر، باتجاه سيناء.

سار السُّنبوك لثلاث ساعاتٍ ثم أُطفئ المحرّك. سرعان ما تبيّنت صالحة وجود قوارب أُخرى. كان توهّج جمرات سجائرهم يضيء في العتمة؛ عشرات وعشرات من الأفارقة، رجالٌ ونساءٌ وأطفال، ينتصبون وقوفًا على قوارب خشبية تسعهم بالكاد، في قلب الظلام. انقشعت السحب، فظهر القمر الأحدب، وأفصحت السماء بكلّ ما لديها من نجوم. كان السنبوك، رغم صغره وهشاشته، أقل ارتجاجا من قارب النفخ، وخيّل لصالحة بأنهم قد تركوا القروش وراءهم. نهضت تتفحص المكان، ارتجفت ساقاها، فتوكأت على المجداف واقفة، تحصي بإصبعها خمسة قوارب قريبة.

كل هذه قوارب كوبيّة؟

أومأ جرجس:

يتسلّلون إلى سيناء، ومنها إلى إسرائيل.

هزّت رأسها هزّة العارف. تمتمتْ:

- أرضُ الميعاد.

سمِعَت صالحة الكثير عما سُمّي بـ "عمليّة سليمان" حدث ذلك في 1990، قبل عشرين سنة من الآن. كان عمرها ثلاث سنوات. أكثر من عشرة آلاف مهاجر أثيوبي غادروا أديس أبابا إلى تل أبيب، مع وعودٍ بالعمل والسّكن والمال، شيءٌ أفضل من الجفاف والوباء والجوع. جاؤوا ألوفًا ألوف، كما سمِعَت، نازحين من القرى البعيدة حول البحيرات؛ فلاحين، ورعاة ماشية. قيل بأنّهم يتمتعون بحق العودة. العودة إلى أين؟ إلى المكان الذي لم يغادروه أصلا، و لم يعرفوه قط. الذين فشلوا في البرهنة على يهوديّتهم، لم تشملهم الصفقة. تركوا في جوعهم الأسود. من بينِ هؤلاء، كانت عائلتُها.

مجانين!

تمتم قائد القارب وهو يشعل لفافة:

أكثرهم يموتُ في الطريق.

نفخَ الدخان من منخريه وأردف:

يغرق في البحر، يدفن في الصّحراء.

ابتسم جرجس:

الطريق إلى أرض الميعاد لابدّ وأن يكون جحيمًا.

تتذكّر صالحة ما قاله والداها يومًا. في تلك الأيّام، تمنّى الجميع لو كانوا من يهود الفلاشا. جذورهم المسلمة لم تساعدهم في مجابهة الجوع. أرسلت عينيها عميقًا في الليل، في توهّج الجمرات الطافية في الفراغ الأسود. عشرات وعشرات من النقط البرتقالية المضيئة في الظلام. همهمت:

- الفلاشا تعني المنفيين، تعني الغرباء.

تساءلتْ، لو أنها تسلّلت معهم إلى إسرائيل، ما نوعُ الحياة التي ستحظى بها؟ على أيّ سريرٍ سوف تنام؟ ماذا ستأكل على الغداء؟ ماذا ستلبس للعمل؟

إذا كنتِ تريدين ذلك، فأنا أستطيع تدبر الأمر.

نظرت إلى جرجس فاغرة الفم.

أريد ماذا؟

العُبور.

وماذا عنك؟ لَمَ لا تذهب إلى إسرائيل إذا كنت تستطيع ذلك؟

لم يرد. سادت دقائقُ صمتٍ لم تكن تسمعُ فيها إلا هدير الموجِ، وبكاء رضيعٍ يتناهى من أحد القوارب القريبة. هل يمكنها فعلا أن تحصل على حياة، حياة طبيعية، خارج هذا العالم؟ احتجب القمر خلف السحابة ثانية. ازدادت حدّة بكاء الرضيع. تمتم جرجس؛ سوف يفضحنا هذا الملعون. أومأ قائدُ القارب؛ إما أن تلقيه أمه في البحر أو سيلقون بهما معًا. ثوانٍ وعادَ الصّمت. زفرت صالحة؛ لقد هدأ. التقطت المصباح اليدوي وأخذت تتفحّص وجوه الأطفال النيام. كانت الهندية مخطوفة اللون، وقد كفت عن الأنين.

إنها تموت.

يجب أن تنجو.

لن تنجو.

قاطعهما قائد المركب:

هل سمعت عن السّنبوك الذي غرق؟

- لا.

أردف الرجل؛ قرابة المئة وخمسين مهاجرًا في قــارب صــيد، يريدون التسلّل إلى السّعودية، غرقوا إلا ثلاثة، عُثر عليهم بعد ثلاثــةٍ أيام. كانت عينا جرجس معلقتين على وجه الطفلة، كأنه لم يســمع كلمة من كلام الرجل. واصل الآخر؛ انتشلت قوارب الإنقاذ عشــر جثث على السواحل السودانية، منتفخة ومتحلّلــة. ناهيــك عــن عشرات الجثث غير المكتملة الطافية في البحر. بالأمسِ رأيتُ بعــيني هاتينِ صدرًا طافيًا بلا رأس ولا ساقين، إي والله.

ابتسم جرجس لصالحة:

لهذا السّبب أفضل العمل مع الأطفال.

ولسببٍ آخر أيضًا.

ماذا تقصدين؟

تعال انظر.

خرج القمر الأحدبُ من عباءة السحابة، أضاء جثة.

ماذا حصل؟

لقد ماتت.

متأكدة؟

طبعًا متأكدة، انظر بنفسك.

اقترَبَ ينظرُ. كانت صفراء، مرتخية الفك، شاخصــة صــوب السّماء، كأنها تُضمر سؤالاً ألقى الرّجل نظرة. ماذا حدث؟ ماتــت طفلة. كيف ماتت؟ نظرت صالحة إلى جرجس: قتلها النــزيف. هز رأسه هزّة العارف. هذا شائع. ماذا سنفعل الآن؟ زفر الدخان مــن منخريهِ. نلقي بها في البَحر

حَمَل الرّجلُ الجثة بين ذراعيهِ ثم ألقى بها في الماء. الدِّماء السّائلة

بين فخذيها اجتذبت أسماك القِرش، تناهشوها خلال دقائِق. جلس الثلاثة ينظرون إلى الطفلة التي أصبحت وليمة لوحوشِ البحر، زعانف تظهر وتختفي، أمواج تتلاطم. غابَ القمرُ ثانيةً. سرحت أفكارُ الثلاثة في عمق السواد الذي غلّفُ كل شيء. سادَ صمتٌ ثقيل، متواطئ، مُطبق. وقبل أن تحين ساعة الانطلاق، تمتمت صالحة:

أظنُّ أن اسمها كان مريَم.

يومٌ خامس

البحر الأحمر

11 ذي الحجة 1431

3:56 صباحًا

على الشاطئ الغربيّ لقناة السّويس، بالقرب من نفق الشّهيد أحمد حمدي، كان ثمة سيارة تنتظر وصول قارب يحملُ بضاعةً جديدة؛ خمسة أطفالٍ وامرأة واحدة. لاند كروز حديثة الطراز، يقودها مسلّحون، مجهزة بالخيامِ والسّلاح والمعلّبات الغذائية.

توقف السّنبوك قريبًا من السّاحل. وعمِل كلٌّ من جرجس وصالحة على حملِ الأطفال إلى الشّاطئ، حيث وقف ثلاثة رجال يرتدون الثوب أبيض، ويتلثمون بالغترة الحمراء، وعلى كتفِ كلٍ منهم بندقية كلاشنكوف. همستْ صالحة:

من هؤلاء؟

إنّهم الرّعايدة.

انهمك الاثنان في حملِ الأطفال إلى الشاطئ. لم نتحدّث عن السّعر. همس وهو يتقاطع معها في المسير. كان يخوض في الماء متوجًّا نحو القارب، وهي تخوضُ فيه نحو الشاطئ، حاملة على كتفها طفلةً بيدٍ واحدة. كانت قد همستْ له، بعد أن فرغت القروش من التهام

مريم، بأنها تريدُ التسلّل إلى إسرائيل. كان العرقُ يتصبّبُ من جبينها وراحتيْها. أومأ موافقًا. ظلّت صامتة، مقرفصة في طرفِ القارب، تبحلقُ في البحرِ بعينين مذعورتين. لم تنبس بكلمةٍ أخرى حتى رأت اليابسة تلوح في الأفق، والبحر ينتهي. وقرّرت أنها لن تعود إلى تلك القوارب اللعينة أبدًا.

كم تريد؟

نصفُ حصّتك.

كثير.

هذا هو السّعر.

وما الضّمان؟

لا ضمان.

سرحت بأفكارها في الليل والبحر، والطفلة التي تمزّقت بأنياب أسماك القرش. عرفت بأنها لن تقدر على ركوب البحر ثانية. وإسرائيل؟ المكان الآخر، حيث الحياة، على مبعدة كيلومتراتٍ قليلةٍ من هُنا. هل فقدت عقلها لكي تفرّط في فرصةٍ مثل هذه؟

موافقة.

خلال نصفِ ساعةٍ كان السنبوك قد اختفى، وكان الأطفال قد استيقظوا، منهكين ودائخين، وأضعف مما يجب لكي يوغلوا في البكاء. كان أنينهم خافتًا، متقطّعًا، ينبعث من مؤخرة اللاند كروز التي تشقُّ طريقها في الصّحراء.

جلست صالحة متصلّبة بين رجلين مسلّحين، وجلس جرجس في المقعد الأمامي. أرهفت صالحة سمعها للكلام الذي دار بينه وبين الرجل خلف المقود. تساءلت؛ هل هذا هو السّلطان؟ كانا

يتهامسان. ومع ذلك فقد سمعت الكثير مما قيل؛ قلنا لك اثنا عشر طفلاً، جلبتَ لنا خمسة، هل تعتقد بأننا نلعب؟ فوجئت صالحة بجرجس يغوص برأسه بين كتفيه، يحرّك يديه شارحًا. الرجل يواجهه براحتهِ السمراء؛ وفّر أعذارك. جرجس يبدو صغيرًا. فكّرت صالحة؛ رجلٌ نصفه إله، نصفه شيطان. يبدو الآن مثل الضفدع الذي أراد أن يكون فيلاً. سمعتهُ يهمس؛ أنتم تعرفون ما حدث. صاحَ الرَّجل فيه؛ لماذا غادرت قبل إكمال العدد؟ تمتم جرجس؛ الكويتي.. قلنا بأن فدية الكويتي سوف تعوّضُ أموال بقية الأطفال وتزيد. كان عليك أن تجلب اثنا عشر طفلاً، بالإضافة إلى الكويتي، نحن ملتزمون بصفقة. هزّ رأسه ذليلاً؛ أعرف، أعرف، ولكنه أثار زوبعة، والكل صار يبحث عنه، وصوره في الجرائد والانترنت.. كان علينا أن نستعجل. وكيف هرب؟ هرّبه أحد رجالي. أنت تبرهن على فشلك. لم يكن الأمرُ بيدي. وماذا عن الطفلة التي ماتت؟ ها؟ احمرّت أذنا جرجس؛ كانت محمومة. أنا غير راضٍ عن عملك. سوف أعوّضك يا ريّس، سوف أتوجّه إلى المخيّمات. وفر وعودك. نكّس جرجس رأسه، وساد صمت.

شقّت السيّارة طريقها في الصّحراء. رمالٌ ذهبية تمتدُّ إلى الأبد. ساروا بين الوديانِ وصارت السيارة تختض. بكى الأطفال على نحوٍ متقطّع. أحسّت صالحة بعيني جرجس تراقبانها عبر المرآة الأمامية. كانت تجلس بين الرّجلين المسلّحين، تؤرجح في المكان عينين مذعورتين، وحبيبات العرق ترشح من جبينها.

بعد سبع ساعات وعرة، توقّفت السيّارة أمام مبنى من الصَّفيح، مسوّر بالأسلاك الشائكة، يقفُ على بابهِ رجلٌ مسلّح، ملثّمًا بشماغهِ.

التفت جرجس إليها:

أنتِ تنـــزلين هنا.

وأين نقودي؟

نصفُ حصّتكِ لي، ونصـــفها الآخـــر للمهـــرّبين الـــذين يأخذونكِ إلى إسرائيل.

ألقت صالحة نظرة على المكان، خرق قماش علـــى الأســـلاك الشائكة، سلوقي سائب، جدرانٌ من صفيح، صحراء موحشة، بندقية كلاشنكوف على كتفِ رجلٍ ملثّم. دبَّ الذعر في قلبها حتى امتلأ به وجهها. هزّت رأسها: لقد غيّرتُ رأيي، لن أذهب. ابتسم جرجس، لم يعلّق. أدار رأسه إلى الأمام، فيم قبض أحد الرجلين على ذراعيهـــا وجرّها خارج السيارة. قاومت صالحة، كانت تصرخ؛ جرجس! لا! لا! نشبت أظفارها في ذراع الرجل فلطمها على أنفها. سال خـــيطُ دم. حاصرها بساعدِه فعضّت على يده، أفلتها فراحت تـــركض في القفرِ، تركض وتصرخ. ضربَ الرجل رصاصًا في الهواء؛ توقّفي وإلا قتلتكِ! لم تتوقّف، ركضت أسرع. ركض الرجلان وراءهـــا حـــتى أدركاها، انتشر صياحها في الصّحراء وهما يقومان بســـحلِها مـــن قدميْها، إلى البناء المسوّر بالأسلاك الشائكة.

قبل أن تُدْخَل، رأت الرجل الملثّم يدفع لجرجس رزمة سمينة من الدولارات، ثمنًا للمرأة التي باعه إيّاه.

الفصل السّابع

نَعير

محافظة رجال ألمع. كوبري خرار

9 ذي الحجة 1431

5:10 مساءً

أوقف مازن السيارة تحت الجسر وأطفأ المحرّك. كان يتتبّع الخطوط على خرائط غوغل في هاتفِه. رفع رأسه أخيرًا وأردف:

هادا هو الكوبري اللي نبغاه.. وصلنا يا شباب.

أرسل فيصل عينيهِ في المكان، خضرته الكابية والسُّفوح التي تلفُّه من كل ناحية. نظر إلى أخيه:

وألحين شلون؟

ألحين ننطر اتصالها الثاني.

التفاؤل الذي ملأه عندما غادروا مكّة تحوّل إلى رجفةٍ في الأصابع. فتح الباب وترجّل من السيارة. كانت ساقاه متيبّستين وأطرافهُ خدرة، وأحس بألمٍ يشتعل في رقبته وأسفل ظهره. كان قد جلس متخشّبًا طوال سبعِ ساعات، ممعنًا في زرع الاحتمالات لما سيكون عليهِ الأمر. ولكنه هنا الآن، في المكان الذي حدّدتهُ هي، ومعه كل المال الذي تريد، وعليه أن ينتظر مرور خمسِ ساعاتٍ أخرى حتى تتصل وتبلغه بمكان المبادلة. هل يستطيع الصمود لخمس ساعات؟

على وين بو مشاري؟

– أتمشّى.

سار في الجوار، تمسح عيناه السّفوح، الأرض الترابية، شجيرات السرو وشتلات الريحان النابتة بين الصخور. رفع عينيه إلى السماء. الشمس توشكُ أن تغيب. رأى طائرًا أسودَ يخطف بجناحيه. ليس غرابًا، هل يمكن أن يكون وطواطًا؟ ثمّة ما ينغزه في قلبه. رمقَ شقيقه بطرفِ عينه، يجلس على ركامٍ حجريّ ويهمُّ بإشعال سيجارة. أخرج مازن علبة المعمول وقدّم لكليهما. لم يكن جائعًا. فتّت قطعة المعمول وتركها تتساقط كالبودرة على الأرض، تكالب عليها النمل خلال دقائق. تسمّر مكانه سارحًا في المشهد بين قدميه. أحس بنظرات شقيقه مصوّبة إلى وجهه.

علامك؟

متى راح تبلّغ سميّة؟

أشاح بوجهه:

بعدين.

أطفأ سعود سيجارته في الحجرِ القريب، وأخرج واحدة جديدة، راح يقلّبها بين أصابعه ساهمًا، عيناه تسْرَحان في البعيد. ثمة ما يشغله. هل يسأل؟ يريد أن يعرف ولا يريد. يعرف بأنه يحاول حمايته. حمايته من أي شيء؟ الحقيقة؟ ما الذي سمعه سعود في اتصال الخاطفة ورفض أن يطلعه عليه؟

جلس بجانب أخيه، وضع يده على ركبته ونظر عميقًا في عينيه يسأله؛ بماذا تفكّر؟ أشاح بعينيه. لا شيء. لا تكذب. أنا لا أكذب. هل تظنني غبيًا؟ أبدًا. قُل. ليس هناك ما يقال. إذن فلتقُل ما لا يُقال. زَفر سعود. تلكّأ قليلاً ثم قال؛ عندما تكلّمنا كانت همس. ارتفع حاجباه؛ همس؟ لماذا همس؟ ازدرد ريقه؛ سمعتُ صوت رجلٍ، قبل أن تقفل الخط، وخبطات على الباب. سكت الثلاثة برهة. علّق سعود؛ كأنها

كانت تختبئ. خرج صوته مبحوحًا. لعلها خانت شركاءها. عقّب مازن.. لعلها لا تريد لأحد أن يشاركها في الفدية. لعلها، لعلها.. ردد فيصل وراءهما. الضيقُ يتسع فيه. هذا يعني أننا نتعامل مع شخصٍ واحد، وليس مع عصابة. أومأ سعود؛ شخص منشق.. شخصٌ خائف. نظر فيصل إلى يديه. كانت أطرافهُ ترتعش. أنا خائف.

التفت مازن إلى سعود: ألم تميّز صوتها؟ أومأ. بلى، عندما ردّت على الطارق، سمعتُ صوتها جيدًا.

انطلق صوتُ أذان المغرب من هاتفِ مازن. نهض من مكانه ليتوضأ من قنّينة ماء. وبهاتفه حدّد جهة القِبلة. يمّم وجهه شطرَ مكة، ثم نظر إلى الشقيقين:

الصلاة يا شباب.

وثب سعود من مكانه. تناول القنينة وتوضّأ. راقبه فيصل ذاهلاً؛ سعود الذي لم يسبق له أن صلّى، سعود "الصايع"، سعود "الفلتان"، سعود "راعي البنات"، سعود "راعي المشروب"، وثب من مكانه ليصلّي.

جمع تقديم؟

أيوه.

رفع يديه يتأهّبُ للتكبير. مازن أيضًا رفع يديه. بقي هو في مكانه، يشده ألمه إلى الأرض، ثقيلا مثل حجر. يغالب ألمًا مفاجئًا في معدته. يسأله مازن للمرة الأخيرة:

تصلّي معنا؟

أجاب شقيقه بالإنابة:

- خلّه على راحته.

محافظة رجال ألمع. كوبري خرار

9 ذي الحجة 1431

10:10 مساءً

لقد تجاوزت العاشرة. لماذا لم تتصل؟ ارتجفـــت أطرافـــه، دبَّ الشّحوبُ في وجهه يسأل:

وينها؟

سعود يستمهله:

شوي وتتّصل. طوّل بالك.

حاول أن يطمئن نفسه، ولكنّ قلبه.. قلبه الذي بـــدأ يضـــربُ وكأنه سينفرُ من صدره. أنا لا أفهم. جاء صوتهُ مخنوقًـــا. لمـــاذا لا نتّصل ونخبرها بوصولنا؟ هي التي اشترطت. أعرف، ولكـــن لمـــاذا؟ لعلها تريدُ أن تتحكم بالأمر. لعلها، لعلها، لعلها! كل ما نقولهُ هـــو لعلّها! عساها الموت، عساها بجهنّم. سعود يقبض على ساعِده:

هدّي نفسك فيصل.

وخرّ عنّي!

يدورُ في المكان، مثل كاسرٍ في قفص، مصوّبًا عينيـــه صـــوب الجبال. هل ينظرون إلينا الآن؟ هل يعرفون بأننا هنا؟ هل نحن تحـــت المراقبة؟ تفجّر العواءُ من داخله. قوّس يديه حول فمه ونادى بكـــلّ قوته:

– هيـــــــــــــــــــــــــه!

وعاود الصراخ:

يا بنت الكلللللب!

ومرّة أخرى:

تبين الفلوس ولا لأ؟

وأخيرًا:

مشـــــــــاري!

همس شقيقه:

قَصر حِسِّك فيصل، لا تفضحنا! اللي تسويه خطِر

نظر إلى أخيه بعينين حمراوين، مغسولتين بالدمع:

وينها؟ وينها ما اتّصلت؟ وينها؟!

طوّل بالك..

حاول أن يهدأ، ولكن أَفكاره التي طوَّحت به في كلّ الجهات، والاحتمالات المروّعة التي تكالبت داخل رأسه.. أرخى يديهِ علـــى جانبيهِ. حدسه أنبأه؛ لقد اكتشفوا أمرها، تمتم شاخصــا في وجــهِ مازن:

انفضحت.

لسّه بدري نقول كده.

إذا اكتشفوا أمرها سينتهي أمرنا، لن نستعيد الولــد. ســارَ في دوائر، يصرخُ في هاتفه؛ اتصلي! اتصلي يا بنت الكلب اتصلي! نهض سعود من مكانه، سحب السّيجارة من فمِه ومدّها لشقيقه:

ممكن تهدّي شويّ؟

اتسعت حدقتاه. نظر إلى أخيه ذاهلاً، هل يطلب منــه حقًــا أن..

أدري ما دخّنت من سنين.

كأنه يقرأ أفكاره. ترقرقَ الدَّمعُ في عينيه. يذكرُ ذلك اليوم جيِّدًا. يوم ولادة مشاري. يوم رُزق وسمية بولدهما الأوّل بعد سِلسلة إجهاضات مؤلمة. أحس يومها بأنه عبر أميالاً من الشَّوْك حتى يصل إلى المكان الذي يقفُ فيه؛ إلى ذلك الممر الهزيل في المستشفى، خلف الواجهة الزجاجية، ينظر إلى الرَّضيع الملفوف بالقماطِ السماوي، يعتمر قبعة قطنية بيضاء، بين عشرات المواليد. تسمَّر واقفًا خلف الزُّجاج لساعاتٍ وأقسم بأن يكون أفضل أب يمكنه أن يكونه، أن يستحقَّ أبوّته التي نالها بعد سنواتٍ من المحاولة؛ سوف يواظب على فروضه في المسجد، سوف يترك التدخين لأجله. اليوم، شقيقه يطلب منه أن يدخِّن لأجله. يهمس له: لازم تهدي! نظر إلى السيجارة متردّدًا. أمسكها بأصابع مرتعشة، وضعها في فمِه واستلّ منها نفسًا عميقًا. زفر.

رفع عينيه إلى وجهِ شقيقه؛ يسأله.

ألحين شلون؟

أنا أتصرّف.

التفت سعود إلى مازن مادًا يده:

ممكن التليفون؟

تردّد مازن. أردف سعود:

نتصل من رقم سعودي..

ارتفع حاجبا مازن:

لو اتصلنا يبطل الاتفاق.

هي اللي أبطلت الاتفاق.

سحب سعود هاتف مازن من يدِهِ واتصل علــى الــرقم. رن الهاتف عدة مرّات ثم انقطع الخط. عاود المحاولة مرارًا. بــدأ القلــق يستبدُّ بهم، نظر كلٌ من سعود ومازن إلى بعضهما.

نتصل بالشرطة؟

بسرعة.

هرع فيصل إلى السيارة، صعد إلى المقعد الأمامي وأوصدَ الباب بقوّة، عصر رأسهُ بين يديهِ وأفلتت منهُ نخرات بكاء.

محافظة رجال ألمع. مركز شرطة حسوة

10 ذي الحجة 1431

12:05 بعد منتصف الليل

أحد العساكر يصيحُ في رفاقه؛ استعجلوا! نريد أن ننام ساعتين قبل صلاةِ العيد! كان فيصل واقفا، إلى جانب شقيقهِ، في الممرّ خارج غرفة الضّابط، ينظرُ إلى ساعة معصمهِ غير مصدّق؛ هل يمكنُ ذلك حقًا؟ هل حلّ العيد فعلاً؟ الساعة تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق. إنه يومٌ جديد. يومٌ رابع. كأنّ الزّمن يتعمّد معاكسته، كأنّه عدوّه. ترى، ما الذي حدث لولدِه طوال أربعة أيّام؟ همس لأخيه؛ أتمنى أحيانًا لو أنه مات. نظر إليه سعود غير مصدّق بأنه قد تفوّه بكلماتٍ كهذه. مسح عينيه بطرفِ يده؛ الموتُ مصابٌ محتمل مقارنة بهذا. هزَّ سعود رأسه رافضًا. لن أقبل بموتِه أبدًا، سوف أجده.

تملى سعود في وجهِ أخيه، وكأنّه شاخ عشرات السنين خلال الساعة الماضية. عيناه جاحظتان، طاعنتانِ في الشرود، تمعنان في التحديق في الجدارِ. كان صوتُه ضعيفا، ممزقًا من فرطِ الصياح في الجبال. متى تتّصل بسمية؟ بعدين. هي لم تعرف بكل ما حدث. لا حاجة لها بأن تعرف. وهي.. ألم تتّصل بك؟ لا غريب. كلانا مشغول. هل حدث بينكما شيء؟ رفع عينيه المتعبتين إلى وجهِ أخيه. لقد حدث بيننا كلّ شيء، لقد فقدنا مشاري. زمّ سعود شفتيه، همس؛ أنتَ لا تلومها على ذلك، صح؟ أنا لا.. لا أدري. طبطب

على كتفيه؛ لا تقلق، سيعود كلّ شيءٍ إلى ما كان عليهِ بعودة مشاري. نظر إليهِ بوجهٍ فارغ وقال: هات سيجارة.

لم يكن فيصل قادرًا على الكلام. ترك زمام الأمر لأخيه وصاحبِه. في بعض الأحيان كان الضابط يوجّه إليه بعض الأسئلة. وطوال ساعاتٍ في مكتب الضابط، جلس واجمًا، دامعًا، غارقًا في الصمتِ حتى أذنيْهِ.

تولى سعود مهمة القول؛ نحن نعرفُ بأنه قريبٌ من هنا، لا بدّ وأن يكون كذلك. على الأقل بتنا نعرف بأن علينا أن نكفَّ عن البحث عنه في مكّة. ولكن.. كان عليكم أن تتصلوا بالشرطة منذ البداية. قاطعه الضابط. لقد اجتهدنا بما نعرِف، وهي هدّدت.. لا معنى لهذا الكلام الآن، قاطعهما مازن. لقد أصبحنا أقرب إلى مشاري، وبتنا نعرف أين نبحث. امتلأ فيصل بصورة محمد أكبر، يضربُ رأسه بالأرض والدُّموع تسقط على عدسات نظارته المدوّرة. هناك أطفالٌ آخرين. خرج صوته متحشرجًا، ضعيفا. بصعوبةٍ فتح فمه؛ لعلهم هنا أيضًا. هزّ الضابط رأسه. سنشن حملة تفتيشٍ موسّعة. اسمع يا أبو مشاري.. وجّه حديثه إلى فيصل، نحن، بكل تأكيد، سنبذل ما بوسعِنا، ولكن من الأفضل أن تكون لديكم فكرة عما نواجهه هنا؛ شرب الضابط بقية الشاي في كوبِه. نعاني من توافد الكثير من المتسللين الأفارقة. هناك الآلاف منهم يختبئون في الكهوف، السدود، مواقع جريان الصرف الصحّي، العقوم الترابية، المزارع وغيرها. ما أحاول قوله هو أن عددهم كبيرٌ جدًا، تم تقديره بحوالي عشرة آلاف متسلل. رفع مازن حاجبيهِ؛ عشرة آلاف؟ العدد كبير، أعرف، ولكن الجغرافيا في صفهم. قبل أيام اكتشفت دوريات حرس الحدود في وادي الجنيّة

450 متسلل أفريقي يقيم في الوادي منذ خمسة أشهر. هذا يعني أن لدينا مئة متسلل في الشهر. طبعًا يتم تهجير من يقبض عليه ولكنها عملية مستمرّة. هذا يعني أنّنا لا نحاربُ مجموعة من الغوغاء المتسللين، نحن في حرب مع نظام فعّال. ولكن لماذا أصبح التسلّل سهلاً هكذا؟ قاطعه مازن: فين حرس الحدود؟! فين الأمن؟! ضمّ الضابط يديه إلى بعضهما. الأمر ليس بهذه السهولة، إنهم يعرفون مواقع الثغرات في الشبك الحدودي بيننا وبين اليمن، وهناك دائمًا ثغرات جديدة يقومون بصنعها مهما أبقينا أعيننا مفتوحة وقمنا بجولات صيانة ومتابعة. ولديهم من يساعدهم على ذلك. هناك المهرّب اليمني، والسمسار السعودي. بعضهم يأتي للعمل في الرَّعي والزراعة، وهم الفئة المحببة للملّاك وأصحاب المزارع لأنهم، كما هو متوقع، يقبلون بأية أجرة تعرضها. البعض الآخر تورط في قطع الطرق والسرقة وتصنيع المسكر. إن لديهم حيلاً تضمن بقاءهم، ولكننا نلقي القبض على أعداد كبيرةٍ منهم يوميًّا، ولدينا في سجون جازان آلاف الأفارقة المقيمين بصورة غير قانونية. ما أحاولُ قوله أن الخصم الذي نواجههُ.. علّق سعود محدّقًا في وجهِ الضابط: كبير. سعل الضابط. نعم، كبير. المرأة التي اتصلت بكم، لها على الأرجح آلاف الأذرع والأعين، وإذا كنتم ترجّحون أنها انشقّت من جماعتها، فهي على الأرجح لديها جماعة أخرى تعمل معها. ولأكن صريحًا وأخبركم، لقد تعاملت طوال السَّنوات الماضية مع بلاغات سرقة وقطع طرق وترويج مخدّرات، ولكن هذه هي قضيّة الخطف الأولى، وكونها حدثت في مكّة.. حسنًا، إن قصَّتكم ليست ما اعتدنا سماعه هنا. والآن ماذا؟ سأل فيصل. الآن، تستأجرون مكانًا للسّكن في عسير، وحده الله يعرف كم سيطولُ الأمر.

محافظة رجال ألمع. مركز شرطة حسوة

10 ذي الحجة 1431

2:32 صباحًا

سمع نغمة الانتظار ثلاثًا قبل أن يصله صوتها.

سميّة؟

كان واقفا في نهاية الممر يديرُ ظهرهُ لصاحبيه.

سميّة؟ ألو؟

فيصل؟

خيّل إليه أن دهورًا قد مرّت منذ أن سمع صوتها آخر مرّة، شعر بأنه قد شاخ، وبأنها شاخت مثله، رغم أن صوتها بقي طفلاً كما يذكُره. ساد صمت دقيقة، تناهى إليه صوتُ سياراتٍ تزمّر، رجال يتنادون، أطفال يبكون.

إنتي وين؟

رأى صوتها يتردّد في فضاءات سكوتها. كانت الريحُ تهدرُ وكان يسمع ارتطاماتها بسمّاعة الهاتف. ريحٌ تصفّقُ داخل أذنه. رضيعٌ يصيح. حشودٌ تهدرُ ملبّية.

إنتي وين سميّة؟

الصمت مسافة. متى أصبحت زوجته بعيدة هكذا؟ كأنه يراها، تغرس أظفارها في جدران صمتها من أجل كلمةٍ تقولُ كل شيء. وحدهُ الصمت يقولُ كل شيء؛ الوجعُ والنأيُ والتّيه.

ألو؟

أسمعك فيصل.

إنتي وين؟

في مزدلفة.

في مزدلفة؟ اتّسعت حدقتاه. هل تؤدّي المشاعر؟ شعر بأنّه لا يفهم. كيف تفقد ولدها ثم تواصلُ حجّتها وكأنّ شيئًا لم يحدث.

شتسوين في مزدلفة؟

أدوّر.

من قال إنه في مزدلفة؟

زفرت. كأنها تتبرّم من سؤاله.

على أي أساس؟!

ولا أساس، إحساس بس.

إحساس؟

هزّ رأسه غير مصدّق. مجرّد إحساس! سميّة تتبع إحساسها، هذا ما تفعله دائمًا. إحساسها أخذها إلى الحرم وأبقاه في المستشفى. إحساسها يأخذها الآن إلى مزدلفة، رغم أن الصغير في الجنوب؛ في عسير أو جازان أو.. من يدري، ربما كان في اليمن! كيف بوسعهِ أن يخبرها بأن إحساس الأمّ لا يعوّل عليه؟ كيف يأخذ منها الشيء الوحيد الذي لم تفقد ثقتها به؟ زفر. إنّكِ تتصرّفين كيفما اتفق. شعر بكلماتهِ تهوي في أعماقها، ثقيلة، جارحة. ما الذي تفعله فيصل؟ ما الذي تحاولُ فعله؟ سأل نفسه. هل تريدُ لها هذا التّيه؟ تريد أن تأخذ منها بوصلتها الوحيدة، بوصلتها المكسورة والمضحكة، لماذا؟ اسمعِي.. أنتَ محق، أنا لا أملك أدنى فكرة عما ينبغي فعله. اسمَعيني. لا، اسمعي

أنت، أنا لا أريد أن أسمع صوتك، وما لم تكن لديك أخبار عن ولدي، فالأفضل ألا تتصل بي أبدًا.. اهدئي سميّة، أحاولُ أن أخبركِ شيئا. ألو؟ سميّة؟ لم ترد، كانت تحدّث شخصًا آخر؛ لا تبكِ يا ولد، اصبر قليلاً. سميّة؟ أنتِ معي؟ ألم تنتهِ المكالمة؟ مع من تتحدّثين؟ مع كالي. من كالي؟ زفرت، أسئلته ترهقها. تسلبها قواها. ليس عندي وقتٌ للكلام. من كالي سميّة؟ إنّك لن تتركني أبدًا، أليس كذلك؟ من كالي؟ إنه مجرّد طفل، طفل تائه، إنني أبحث عن أمّه. أفلتت منه ضحكة ذهول؛ هذه هي زوجته، امرأة تكره فيها أكثر ما تحب. ورغم أن كل ما تفعله غير منطقي، إلا أنه يفهمه جيدًا. سميّة. سأنهي المكالمة فيصل. خذي كالي إلى مركز رعاية الأطفال التائهين، سوف يهتمّون به. وأين أجده؟ في مِنى، في عرفات، في الحرم، هناك عدة مراكز. سأفعل، شكرًا لك. لا تغلقي الخط. ماذا تريد فيصل؟ ازدرد ريقهُ بصعوبةٍ؛ لقد حدثت بعض التطوّرات. يكادُ يشعرُ بقلبها يسقط في الرّعب. كرّرت وراءه؛ تطوّرات؟ سكتت. فيصل، أين أنت؟ أنا في عسير. جنوبًا؟ نعم. ما الذي تفعلهُ في عسير؟ لقد اتصلت الخاطفة..

ساحة الحرم. مركز رعاية الأطفال التائهين.

10 ذي الحجة 1431

6:02 صباحًا

أَمسَكت سُمِيِّة بيدِ الصَّغير تخترقُ به زحام العباءات السّود الذي ملأ المكان. سوادٌ بهيمٌ ممتدٌ من النِّساء، تتخلَّله ألوانُ ثياب الأطفال الذين يتسابقون في السّاحات. كانت تكبيراتُ العيدِ تصدحُ من مآذن الحرمِ الشّاهقة؛ الله أكبر الله أكبر.. أحست سميّة بدمائها تختض في عُروقها؛ لا إله إلا الله. كانت شفتاها تلهجان. كادت يد الصغير تنزلق من يدها. شبكت أصابعها بأصابعه ومشت معه بين الحشود الغفيرة المبتهجة بمجيء العيد. الله أكبر الله أكبر. النّاس يحتفلون وأنا وولدي.. اغرورقت عيناها. طفلةٌ تتقافز على الأرضية الرخامية تردّد؛ يا قيسنا يا قيس، النّاس حجَّت وانت هنا قاعد ليش. تنهرها إحدى النساء. عينا سميّة تترقرقان بالدّمع. الطفلة تقفزُ أعلى، تكملُ بعناد؛ هيّا معانا بيتنا، نسقيك من شربيتنا.. المرأة تتذمّر على الشقيّة التي تغني رغم التكبيرات، والتكبيرات تكبرُ في سميّة وتتمدّد في السماء.

وصلت سمية إلى مركز رعاية التائهين، استقبلتها فتاة بزي الكشافة الزيتي. شرحت لها؛ هذا ولدٌ تائه، اسمه كالي وهو إندونيسي من جاكرتا، لا يجيد العربية ولا الإنجليزية، وجدتُهُ في عرفة. حاولت الفتاة أن تقترب من الولد فتشبّث بعباءة سميّة، يصرخُ مذعورًا، يرفس كل من يحاول لمسه. كالي، كالي! اهدأ يا صغيري، اهدأ. سوف تأتي

أمّك لأخذك بعد قليل. كالي! تشبّث بعباءتها باكيًا يرطن. كالي! أنا لا أفهم ما تقول، اهدأ. ضغطت خدّيه المكتنـــزين براحتيها وراحت تحدَثه، رغم علمها بأنه لا يفهم كلمة واحدة تطلع من فمِها. ماما ستأتي بعد قليل، وأنا يجب أن أبحث عن ولدي. نظـــر إلى عينيهـــا، تائهًا. الله أكبر. التكبيراتُ تكبرُ أكثر. ضغطت على كتفيهِ؛ أُمّـــك ستأتي قريبًا. رأت عينيه تجولان في وجهها، تبحثان. هل تفهـــم مـــا أقوله، كالي؟ عاود إطلاق رطانته، زفرت سميّة. يجـــبُ أن أذهـــب. اقتربت منها الفتاة العاملة في المركز. هل يمكنكِ الانتظار حتى تصـــل ناديا؟ ستكون هنا خلال ساعة. التفتت سميّة إلى المرأة؛ من ناديا؟ إنها متطوّعة في المركز، وهي إندونيسية وتستطيع فهمه، سوف تأتي مـــن مِنى. هزّت رأسها نفيًا؛ الزحام شديد جدًا، ستتأخر ناديا، وأنا يجب أن أذهب. رجتها المرأة؛ إنه متعلّقٌ بـــكِ، لا تتركيـــهِ الآن. المـــآذن تصدح؛ الله أكبر كبيرًا. نظرت سميّة إلى عيني كالي، سألت؛ وولدي؟ اختنقت بغصّتها. ساعة واحدة فقط، قالت المرأة. نظرت إلى كـــالي؛ إلى العينين الآسيويّتين المشدودتين. عينا مشاري واسعتان، ناعستان، ورموشه كثيفة، لماذا تراه في كالي إذن؟ لماذا ترى بينهما كـــلّ هـــذا الشبه؟ إنه ينظر إليَّ كما لو كنت الإنسان الوحيد في العالم. المـــآذن تردّد؛ وسبحان الله بكرة وأصيلاً. مدّت إليه يدها، فالتفت أصـــابعه حول أصابعها. سارا عبر الممر وصولاً إلى غرفةِ انتظـــار الأطفـــال. أحصت سميّة واحد وعشرين طفلاً تائهًا. اختنقت بغصّتها. ســـقطت على ركبتيها تنشج. والحمدُ لله كثيرًا. كالي يحدِّقُ فيها ذاهلاً. لملمت نفسها وعاودت النهوض، أمسكت بيدِه ودلفت معه إلى الـــداخل. كانت غرفة ملوّنة وبهيجة، مليئة بالألعاب. بعض الأطفـــال يتفـــرّج

على فيلم كرتوني، والبعض الآخر انهمك في اللعب. ألوانٌ خشبية صغيرة متناثرة على الأرضية، دمى أطفال رضّع، خضراوات بلاستيكية، وكثيرٌ من السيّارات المعدنيّة. مالت سميّة إلى الأرض والتقطت مجموعة من دمى الأبطال الخارقين. سوبرمان، سبايدرمان وأخيرًا؛ باتمان. اغرورقت عيناها.

بدا الصغير مأخوذًا بالمكان، وشيئًا فشيئًا بدأت أصابعه الدودية تنفكُّ عن يدِ سميّة، لمعت عيناهُ في فضولٍ للمسِ كل شيء. دفعتهُ سميّة برقة؛ اذهب والعب. اقتنص الصغير دمية الرجل الوطواط من يدِها وأخذ يلعبُ به. خلال لحظاتٍ بدا وكأنّه قد نسي وجودها تمامًا.

جلست سميّة على كرسيٍ صغيرٍ أزرق، تتأمّل الأطفال التائهين المنهمكين في تيههم، يلعبون ويضحكون أمام شاشة البلازما العريضة. شفتاها تردّدان تكبيرات العيد مع المآذن في الخارج، عيناها تسرحان في تفاصيل المكان. هل هذا ما نبدو عليه في هذا العالم؟ مجرد أشخاصٍ تائهين لا يدرون بأنهم تائهون؟ التفتت إلى المرأة العاملة: كيف ستعثرون على أهله؟ إذا جاءت نادية ستعرف منه اسمه واسمي والديه، نتّصل بالحملات الإندونيسية ونستفسر عن الوالدين، لن يكون ذلك صعبًا. هزّت سمية رأسها. هل تشربين شيئا؟ سألتها المرأة. لا بدّ وأنّكِ متعبة. تذكّرت سميّة بأنها لم تذق شيئا منذ الأمس. نظرت إلى أطراف عباءتها المغبرة، وقد بهت سوادها الفاحم. أريدُ أن أصلّي، وأريد أن أغتسل. سألتها المرأة: والشاي؟ ألا تريدين بعض الشاي؟ لا، شكرًا لكِ.

قادت المرأة سميّة إلى دورة المياه، توضأت ودعكت وجهها بالماء مرارًا. خلعت ثيابها واستخدمت الصابونة في فركِ جسدها كلّه.

تشمَّمت عباءها؛ غبارٌ وعرقٌ كامِد. حكّت الصابونة بالقماش ناحية الإبطين ثم شطفت الصابون بالماء ونفضت عباءها نصف المبللة في الهواء. ارتدها ثانية وخرجت إلى المصلّى. صلّت الفجر والضحى.

عندما فرغت سميّة من صلاها كان ناديا قد وصلت، وكانت قد بدأت التحدّث مع كالي. تفرّجت سميّة عليهما من وراء الجدار الزجاجي، رأت كالي يفتح فمه ويتكلّم، والمرأة هزّ رأسها مشجّعة. لأوّل مرة لا يبدو حديثه كرطانة.

يمكنكِ أن تذهبي الآن. أخبرها المرأة. كالي يبدو مرتاحًا. أومأت سميّة موافقة. لم يعد خائفا. ابتسمت المرأة؛ لقد أرسلكِ الله لحمايته. ابتسمت سميّة؛ هذا صحيح، لقد أرسَلني الله.

الفصل الثامن

سَرير

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

5:00 صباحًا

كلّ يوم، في تمام الخامسة فجرًا، يفتح عينيه.

يوقظه جسده قبل أن ينطلق رنينُ المنبّه بدقائق. حدث هذا لأوّل مرة قبل ثمانية أشهر، عندما أَلِف إيقاعِ الأرض الجديدة، و لم يكفّ جسده عن إيقاظهِ منذها.

رفس الغطاء، نهض متمنطقًا بإزارهِ، يهرشُ كتفهُ العارية، متوجّهًا إلى المغسلة. رشَّ على وجهه ماء باردًا. فرّش أسنانهُ وهو ينظرُ إلى انعكاس الصبي النائمِ في سطحِ المرآة. متكورًا على نفسهِ، مثل دودةِ أرض. بصق الماء والمعجون في المغسلة، جفّف فمه بطرفِ فانيلته المهترئة. انطلق رنينُ المنبّه أخيرًا. أطفأه. تقدّم من وحدة التكييف في زاوية الغرفة، تنث هواء حارًا، يحتاج أن يضع ماء في خزّانها. أطفأها. صرَّ الباب المعدنيُّ لحظة فَتَحَه، خرج وأقفلَ الباب، وضعَ المفتاح في أحد أحواض الصبّاريات التي استنبتها مؤخرًا. وقف أمام الجبال الصخرية المترامية، يتفحَّص المساحات الفارغة من حقله، يتنشّق رائحة الرّمل، وملوحة الهواء.

التقط عصاهُ الخشبية وانطلق من فورهِ للعمل، غرس طرفها المدبب في الأرض، ثمّ صنع شقوقًا مستقيمة بطول الحقلِ ذهابًا وإيابًا. يفصلُ بين الخطوط المتوازية بثلاثة أشبار، ويحرص ألا يتجاوز عمق

الشقوق مسافة الذراع. التربة مهيأة والأرض تستقبلُ الحرث قبولا حسنًا. امتلأت الأرض بالخطوط المتوازية حتى لم يعد ثمة مكان لخطّ آخر. تحسّس حبيبات التربة بأصابعهِ وشمّها. إنها مستعدة لكي تحبل. ألقى بالعصا من يدهِ متوجّهًا إلى غرفة المؤن، يمسح جبينه المتعرّقة بساعده الأسمر العاري. فتح أحد الأكياس ودس يدهُ في بذور الدخن، ملأ بها كفه، ثم عاد إلى الحقل جاثيًا على ركبتهِ، يقرّب خده من الأرض ويرخي أصابعهُ قليلًا كي تسيل البذورِ من راحتهِ وتجد مكانها الصحيح في الشقوق. بعدما فرغ من زراعة البذور عاد يردمُ الشقوق بالتراب برفقٍ، يطبطبُ على جبين الأرض بيديه السمراوين، ناتئتي العروق.

بعد ساعةٍ، كانت الشمس قد بزغت وارتفعت حرارةُ الجو صار العرق يرشح من جسدهِ، وجفّ لسانه من فرط العطش. قرّب فمه ليعبَّ من الماء المتدفق من خرطوم السّقي. ثمَّ وجّه الفوّهة إلى وجهه وترك المياه تغسل رأسه وكتفيه.

واصل العمل لساعتين أخريين، ثمَّ سمع ضرباتٍ متتالية على باب غرفتهِ الحديديّ، فعرف أن الصبي قد استيقظ. لا بدَّ وأنها الحرارة. توقفت الضرباتُ فجأة ورأى ذراعين صغيرتين تلوّحان من بين القضبان المعدنيّة للشبّاك الوحيد. نظام! نظام! كان الصغير ينادي. لا معنى لأن يطلب منه السّكوت، فهو لن يفهم ما يقوله أبدًا، وسيكون عليه في الأيّام القادمة أن يعلّمه الكثير من الكلمات. نظام! نظام شجاعُ الدّين! وجدَ الأمر لطيفا، أنه يتذكّر اسمه كاملاً، رغم أنه عندما لقّنه إيّاه، كان غارقًا في الهذيانِ حتى أذنيه. ولدٌ ذكي. تمتم لنفسه وهو يتوجّه إلى غرفة المؤن ليعيد كيس البذور إلى الدّاخل.

لا زال أمامه عملٌ كثير قبل أن يعود. عليهِ أن يرشَّ الماء على البروزات الرّملية التي تغفو بذوره في أعماقها، وأن يسقي شجرتيّ المانجا وأشجار الجوافة، وشجيرات الطماطم ونبتات الخيار ورؤوس الخس. عليه أيضًا أن يحلب الماعز، وأن يضع لها المزيد من الأعلاف، ثم عليه أن ينظف الحظيرة، وأن يجمع الروث، من يدري ربما باضت الدجاجات بيوضًا جديدة. لديه مهامٌ كثيرة، كثيرة جدًا.

سوف ينتظرُ الصبيّ لبعض الوقت، سوف يعطشُ أيضًا.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

078: صباحًا

طوال حلمه كان يبحث عن الكهف، الكهف الذي سيجدُ فيه المرأة، المرأة التي أخذته، وحدها أخذته، وحدها تعيده. سارَ طـويلاً لكي يعثر على الكهف ولم.. عبر سبخات ملحية، أراضٍ صـخرية، حقولًا من الصبّاريات. ثمّ استيقظ هنا؛ في غرفةٍ مصمتة، مفرّغة مـن الهواء.

رفع رأسهُ عن الوسادة، وأحس بألمٍ يفتك برأسه. كانت أذرع الضوء تمتدُّ من الشبّاك الصغير العالي؛ نافذة بقضبانٍ معدنيّة، أبعد من يديه. نهض من مكانه ليضغط زرّ الإضاءة المثبّت على يمين البـاب. شعر بدوار. تمسّك بالجدار الإسمنتيّ حتى انحسر الألم قليلاً. ضغط زرّ الإضاءة، فارتعش الضوء الأزرق في أسطوانة النيون. كانت الجدران قاتمة، وقد علق على أحدها لوحة للكعبةِ صنعت من الخرز والتِّرتِـر في الجدار المقابل كانت صور نساء عاريات مثبّتة بشـريطٍ لاصـق. اقترب متردّدًا، وقف فاغر الفاهِ أمام الجسدِ الأنثويّ الصقيل؛ مـرّر عينين جزعتينِ على الآباط، النهود، الأرداف وعميقًا صوب.. انتابهُ هلع. داهمتهُ صورة غريبة؛ لحمٌ ممزّقٌ بين فخذين هزيلين، فتاة هنديّـة تئنُّ؛ پِني! پِني! أشاح عن الجدار وقلبه يضربُ بجنون، أخذ يلـهث. رفع يديه إلى عينيه وتراجع خطوتين فتعثر بالفرشة الإسفنجية.

تجوَّل في المكانِ يتفحّصه، مُتحاشيًا أن ينظر إلى الجدار المخيف. رأى أوعية نحاسيّة متكدّسة على الأرضِ، ثلاجة صغيرة، مروحة ساكنة مشنوقة إلى السقف، وحدة تكييف مطفأة.

حاول أن يفتح الباب المعدني وأن يخرج، وجدهُ مقفلاً. خبط عليهِ مناديًا الرّجل الذي أنقذه. يجب أن يخبره بأنه استيقظ، وأنه يحفظ رقم والده، وأن كلّ ما عليه فعله هو أن يتّصل به حتى يأتي ويأخذه من هنا.

أحس بحرارةِ الغرفةِ تطبقُ عليه. شغّل وحدة التكييف فاندفع منها هواءٌ حار، عاود إطفاءها. قرَّرَ أن يطلّ من النافذة. رص المساند فوق بعضها البعض واعتلاها حتى أخرج ذراعيهِ من بين قضبانِ النافذة، لوّح بيديهِ مناديًا؛ نظام! نظام! لم يردّ عليهِ. نظام شجاع الدّين! لا رد. استعان بمسندٍ ثالث لكي يتسنى له رؤية الخارج، وقف على أطرافِ أصابعه فوق ثلاثة مساندٍ ونظر إلى الخارج؛ رأى جبالاً، وحقلاً مخطّطًا، وماعز، ورجلاً يحملُ خرطومَ مياهٍ يغسلُ بها الأشجار..

إنّه الرّجل الذي أنقذه. إنه مشغول، سيعود إلى الغرفة بعد قليل وسيخبرهُ عما حدث له، أشياء فظيعة حدثت له، أخذته امرأة غريبة. وضعته في صندوق سيّارة. أخذته إلى بيتٍ مليء بالأطفال. أطفالٌ يبكون، وجوههم رطبة بالدموع والمخاط. أطفال يريدون بسكويت. أطفالٌ يُضربون بالعصي. بعضهم بلا أيدٍ. أطفالٌ سود. تدفّقت المشاهدُ في رأسِهِ، ثلاثة أيّام من الجحيم. كل ما يريده هو أن يتّصل بأبيه، ألا يعود طفلاً تائهًا.

بقي متعلّقًا بطرف النافذة، يراقب الماعز والجبال التي تتراءى من بعيد، تنشّق من الهواءِ الملحي الدافئ الذي تسلّل من الخارج، ثم عاد

الدوار إلى رأسِهِ، أوشك أن يسقط. نـزل على مهلـهِ وتوجّـه إلى وحدة التكييف. تذكّر واحدة تشبهها في الخيمة التي نصبها والده في الربيع الماضي. كان يراقبُ والده وعمّه في كلّ ما يفعلانـه؛ عنـدما نصبا الخيام، وأشعلا الفحم، وطاردا الجرابيع، وصبّا الماء في خزانات وحدات التبريد. أزال الخزان وعبأه بالماء من المغسلة، خلال دقـائق كان الهواء قد عاد إلى الغرفة، وصار التنفس أسهل.

فتح الثلاجة يبحث عمّا يأكله، وجد خيارًا وخسًّـا وفجـلاً وحبات طماطم صغيرة. افترس الخيار، ورغم أنه اعتـاد أن يزيـل شرائح الطماطم من وجبةِ البيرغر التي تعدّها أمّه، إلا أنه هذه المـرّة أكلها كلّها.

لم يشبع، إلا أنه كان متأكدًا من أن الرّجل الطيب الذي أنقذه سوف يطعمه إذا عاد من الحقل، جلس ينتظر، موليًا ظهـره لجـدار النساء العاريات الذي يصدرُ أنينًا في رأسِهِ، وأخذ يتملى في لوحـةِ الكعبة المصنوعة من التِّرتِر، تذكّر أمّه، في اللحظة التي أفلتـت يـده كانت تصرخ؛ مشاري! امش! امش! لقد فعل مثلما قالـت تمامًـا، واصل المشي حتى وصل إلى هنا. لا يدري بالضّبطِ أين أخطأ.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

10:12 صباحًا

أحس بالارتياح عندما كفَّ الساعدان الصغيران عن التلويح بين قضبانِ النافذة. لقد صمت الصبيُّ أخيرًا، وعرفَ بأنَّ عليه أن ينتظر. يستطيع الآن أن يواصل حرث حقله، وسيهتمُّ بأمر الصغير في نهايةِ اليوم. وحتى لو واصَل الشَّقيُّ الخبطَ على الباب، فلن يسمعه غيره.

لن يعرف أحدٌ بالأمر أبدًا. كان هذا أوّل ما فكّر فيه عندما عثر على الصبيّ، فاقدًا وعيه، أمام جدارٍ متهالكٍ على مبعدة أمتارٍ من حقله. كان خارجًا لشراء بذور الذرة الرّفيعة من مزرعةٍ قريبة، ولكنَّ عثوره على الصغير غيّر كل شيء. صبي ضئيل، هزيل، جميل، يرتعشُ من الحمّى. تلفّت حوله، بحث في الجوار، ثم تيقّن من خلوِّ المكان من الناس. هذا صبيٌّ تائه، لا يعلم بمكانه أحد. حمله بين ذراعيهِ وقفل عائدًا إلى حجرته، دخل وأقفلَ الباب. صار عنده صبي يخصّه وحده. كان يلهث من فرط الحماسة. مدّده على فرشته فالتفَّ على نفسهِ مثل روبيانة مسلوقة. كانت له أصابع ناعمة، شعرٌ أسود، رموش طويلة، وفمٌ معقودٌ كأنّه يوشكُ على البكاء. وجهه معفّرٌ وتفوح منه رائحة الملح. يرتدي ثوبًا مغبرًا، ممزقًا في أطرافه. كان يهذي. وضع يدهُ على كتفِ الصغير يهزه ولكنه كان قد غاب في أنفاقَ النوم البعيدة. أحكم إقفال الباب بالمزلاج وهو يفكّر؛ سيكون لديه الوقت

الكافي لشراء البذور، الآن عليهِ أن يهتمَّ بهذا الصبيّ الذي عثر عليهِ نائمًا في القفر، بانتظار أن يحملهُ إلى بيتِه.

أسند رقبة الصبي إلى ساعده وسقاهُ بعض الماء. حدّثه باللغة الوحيدة التي يعرفها. تفحّص قسماته فيم هو يمسح وجهه المعفر بفوطةٍ مبللة. إنّه لا يشبهُ الوجوه الجبليّة التي يعرفها. إنه أرَق، أدَق، وأخفّ سُمرة. أحس بكهرباء غريبةٍ تسري في جسدِه عندما مسح بإبهامِه على الشفةِ الرقيقة للصغير النائم، كأنّما يحاول إعادة رسمها. كان متأكدًا بأنه ليس من هنا.

لا أحد يأتي إلى هنا، خاصّة بعد وفاةِ صاحب الأرض. حتى الأفارقة ما عادوا يطرقون بابه، باحثين عن عمل. لقد عرفوا بعد وفاة الشيخ بأن أحدًا لن يدفع لهم هنا. إنه في مكانٍ منسيٍ من العالم، ويوم أمس، حيث يحتفلُ الجميع بعيد الأضحى، لم تصله قطعة لحمٍ واحدة، ولم يتذكّره أحد. آخر زيارةٍ تلقاها كانت قبل سبعةِ أشهر. طرق بابهُ رجلان. حدّثاه بالعربية. لم يفهم حرفًا. غادرا ثمّ عادا مع رجلٍ بشتوني. كانوا يستفسرون عن مشاركة المزرعة في مهرجان المانجا لهذه السّنة. هزَّ رأسه نفيًا. لديه شجرتانِ فقط.

كانت هذه آخر مرّة طرق فيها أحدٌ بابه، ولم يدُم الأمر أكثر من عشر دقائق. لا أحد يدخلُ إلى غرفته على أية حال. إنّه يعلّق صورًا فاحشة مركّبة لكارينا كابور وزارين خان وبريانكا شوبرا، ولم يكتشف أحدٌ ذلك بعد. ما يحدثُ في غرفته يبقى، إلى الأبد، في غرفته.

قرّر أن يخلع عن الصَّغير ثوبه، وأن يمسح على جسدِهِ المعفر بالفوطة المبللة. كان هزيلاً، ناتئ العظام. مسح عليهِ بالمنشفة مرارًا ثمّ

مرَّر أصابعه برقةٍ على كتفيهِ، نـــزولاً إلى إبطيه. ضـــحك الصـــغير. وجدَ نفسه يضحك أيضًا. كيوت بِنسي، لِتِل بوي؟ على ماذا تضـــحك يا ولد؟ فتحَ الصَّغير عينيهِ وأشار بيدِه إلى صـــدرهِ. خـــرج صـــوته متحشرجًا؛ مشاري. لم يفهم. سعل الصبي فخرج صـــوته أوضـــح؛ مشاري. ماي نيم مشاري فيصل. ردّد اسمه وراءهُ، كانـــت تلـــك واحدة من الكلمات العربية القليلة التي قالها منذ سنتين.

سأله الصغير عن اسمه. وضع راحته على صدرهِ؛ نظام، نظـــام شجاع الدّين. ردّد الصبي وراءه؛ نظام شـــجاع الـــدين. ضـــحك؛ سيكون هناك الكثير من الكلمات أخيرًا، لقد انكسر الصّمت.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

10:30 صباحًا

عادت بطنه تقرقر.

هذه المرّة قبل بأكلِ الفجل والخس. لو رأته والدته لما صدّقت عينيها. كان يقضمُ الفجلَ الأبيض وهو يفكّر في أمّه، إذا عاد إليها، وهو ما سيحدث قريبًا، فستكون مسرورةً مرّتين. مرة لأنّه عاد، ومرة لأنه يأكل الخضراوات. وتساءل إن كان الرجل سيعدُّ له الأكل الذي يحبّه؛ البيرغر مع الصمّون، قطع الدجاج وبطاطا الشيبس مع الكاتشب، أو بيتزا البيبروني. سالَ ريقه. الحقيقة أنه جائعٌ بما يكفي لكي يأكل أيّ شيء، حتى مجبوس الدجاج الذي تعدُّه جدّته، والذي تملأه بحبات الزّبيب والنّخي والقرنفل والهيل والبصل المقلي، وكل الأشياء التي تجعله يجن من الغضب إذا وجدها في صحنه، سوف يأكله دونما تذمُّر. لقد صار يأكل كالكبار، لقد كبُر عندما تاه. التهم آخر حبّةِ فجلٍ وهو يحاولُ أن يستذكر متى كانت آخر مرّة شبع فيها. ربّما عندما وصلوا إلى مكّة لأوّل مرة، وأراد وجبة كنتاكي مع دفتر للتلوين وألوان شمعية، ولكنّ أمّه أصرّت أن يأكلوا من "الطازج" ندِم لأنه غادر الكويت، لو بقي مع عمّه، لسمح له بأكل ما يريد. كان يشتري له الميلك شيك والهمبورغر من "شيك شاك" ويوصيه؛ لا تعلّم أمّك! و لم يكن يفعل. كان كتومًا على

الأسرار جميعها. البنات والهمبورغر على حدّ سواء. عندما اصطفّ والده في طابور زبائن الطازج بكى محتجًّا، ولكنه عندما جرّب لقمة واحدة منه أعجبه الأمر. تدفق لعابه ملء فمِه، وهو يتذكّر مذاق الدجاج المغموس بالطحينة والليمون، مع البيبسي الذي سمحت به أمّه هذه المرّة، هي ليست بالصرامة التي تعتقد. تتذمّر طوال الوقت على الأطعمة التي يحبّها، ولكنها تخضع وتعدّها له في النهاية.

تساءل عمّا ستفعله والدته إذا ما عاد إليها بعدما أضاعها لأيام. مؤكد ستضمّه إلى صدرها بقوّة، وسيتنشق في رقبتها رائحة دهن العود التي لا يحبّها. لم يحبّها قط، رائحة نفاذة تؤلم الأنف. كان يتساءل لماذا لا تتعطر أمّه من زجاجاتِ العطور التي تشبه رائحتها الزهور والفواكه. لم يفهم ذوقها أبدًا. كانت تؤكد له؛ تكبر وتفهم. لقد كبر الآن، وصار يأكل الفجل والطماطم، وربما سيحبُّ أنفه دهن العود. سيكون عناقًا طويلاً جدًا، هكذا فكّر، ساهما، مغرورق العينين. من عادته أن يقول لها؛ خلاص يا ماما، يكفي. ولكنه هذه المرّة لن يقول. ثمّ تساءل، بقلقٍ، أي نوعٍ من العقاب ستقرّر له بعد أن تعانقه؟ في المرّة الأخيرة التي تاه فيها، حرمتهُ من اللعب بالآيباد لمدّة يومٍ كامل.

كانوا ذاهبين إلى سوق الحمام، مع والديهِ وعمّه. كانت تقبض على يده بقوة، حتى تعرّقت وانزلقت خارجًا. لمح ريشًا أصفر وأخضر لببغاء أمازونٍ كبير. هرع إلى المتجر ليتفرّج على الببغاء، وبقية الحيوانات؛ سمك نهريّ، طيور كناري، قطط شيرازية، وقفص هائل لسعدان. تسمّر أمام السَّعدان الذي راح يقشّرُ برتقالة ويقذفُ القشور في قاعِ القفص. لم يحسّ أبدًا بمرور الوقت. عندما عثروا عليهِ

أخيرًا كان وجهُ أمّه قد احمرَّ، وكان وجهُ عمّه قد اصفرّ، وكان والده غاضبًا جدًا، حتى أنّه صفعه.

هذا ما سيحدث على الأرجح، فالآباء والأمّهات يفعلون أشياء غريبة بفعل الحُب. أمه تحتضنه ثم تعاقبه. أبوه يضربه ثم يكافئـه. في ذلك اليوم أحضر له والده سيّارة ريموت كنترول مدهشة؛ سـوداء، بزعانف حول العجلات، لها أنف مدبّب، رشاشات أمامية، وخطّاف يمنع انـزلاق السيارة. سيارة باتمان بعينِها، والتي وعدَ بأن يشتريها له إذا تفوّق في الصف، اشتراها تلك الليلة، من متجر "فانتاسي وورلد" الذي لا يزوره إلا ثلاث مرّاتٍ في السـنة؛ عيـد الفطـر، وعيـد الأضحى، وعيد ميلاده. ربّما سوف يشتري له والده هديّة كـبيرة هذه المرّة أيضًا. بعد أن يضربه.

يومها غادروا "سـوق الحمـام" مـن دون أن يشـتروا زوج السلاحف المائية الذي وعدوه به، ولا حتى سمحوا له بحملِ كتكوتٍ واحدٍ من الكتاكيت المصبوغة، التي تتـزاحم في الكـراتين خـارج السوق. أقفاص ديوك وبلابل ملأت أنفه برائحة الريش والـذرق. لم يتسنَّ له أن يلقي نظرة على الجِراء. توسّل لأبيه بأن يشتري له بعض المفرقعات، على الأقل، ولكن والده أخبره وهو يشغل محرّك السيارة بأنه "عكّر مزاج أمّه"، ورغم أن مزاجها معكّر إلا أنهم أوقفوا السيارة أمام أكشاكِ باعة الرمّان واشتروا من أحدهم كيسين. ترى، إلى أيّ حدٍ عكّر مزاج أمّه هذه المرّة؟ وهل سيُسامحه والده عن ذلك؟

فاضت دمعةٌ من عينه، امتلأ رأسه بلحنٍ لا يحبّه. تذكّر عمّـه يغني أغنية حزينة. ملأ الضيق قلبه يومها، قرّعه عمّه طوال الطريـق بسبب جهله بالفن، إنت كفو تسمع عدنيات؟ بابا هذا فـن! فـن!

شعرّفك بالفن يالنّتفة؟ ظلّ عمّه يعيد الأغنية، مرّة بعد مرّة. الأغنية ضايقته، لا يريد أن يسمع كلمات مخيفة، ولا موسيقى تقبض القلب.

إذا وصلت أمّه سوف يخبرها بأنه اشتاق لها إلى الحدّ الذي يؤلم. تكوّرت غصة في حلقه. لا يريد الانتظار أكثر، يريد أن يتّصل بأبيهِ الآن.

عاد يصعد على متنِ المساندِ واحدًا بعد الآخر، أخرج ذراعيه من بين القضبان وصاح بأعلى صوتِه:

نظام! نظام!

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

11:15 صباحًا

تناهى النداءُ إلى أذنهِ رفيعًا، قادمًا من آخر الحقل، فابتسم. من الجميلِ أن تسمع صوتًا بشريًا بعد كلّ هذا الصَّمت. ساعةٌ أخرى وينتهي من حرثِ بقية الحقل، موعد زرع الذرة يحلٌّ بعد أسبوع. رفع رأسهُ ينظر إلى تلويحاتِ الساعدينِ الصغيرين من النافذة. كيف استطاع هذا العفريت أن يصل إلى هذا العلو؟ الأرجح أنه استخدم جميع أثاثهِ لهذا الغرض. إذا عاد إلى الغرفة، بعد انتهاء عمله، سوف يرتّبُ الفوضى التي تسبّب بها الصغير. أما الآن، فعليهِ أن ينجز مهامّه، كما فعل طوال السنتين الماضيتين.

لم يكن هناك الكثير من الكلام، حتى قبل وفاةِ سيّده. وباستثناء غناء عابدة بروين الذي يسمعه في السيّارة، عندما يذهب في مشاويره البعيدة، فهو لم يكن يسمعُ الكثير.

كان سيّدُه شيخًا وحيدًا، أصمَّ وأبكَم، مولعًا بالأرضِ والشَّجر، علّمه كل شيء دون أن ينبس بحرفٍ واحد. خيّل إليهِ أحيانًا بأنّه لم يكن مجرّد أَجير. كان الشيخُ يدخلُ إلى غرفتِه ويشاركه شرب الشاي بالنعناع. يخبره، بأصابعهِ، غدًا أعلّمك كيف تزرع الشمّام. لا يفهم ما يقوله في حينه، ولكن عندما يجيء الغد، ويرى البذور مرتاحة بين راحتيهِ، يعرف بأن أصابعه التي تتقوّس وكأنّها تمسك بيضة عملاقة،

تعني شمّام، وأنها إذا كبرت أكثر، تعني بطيخ، وأحيانًا تعني خيارًا وخسًا ومانجا وجوافة. لدى الشيخ طريقة لتقليدِ شكل كل ثمرة من خلال أصابع يدِه، أصابعُه فمُه. وهو، بعد سنتين، أتقن لغة الأصابع.

علّمه العجوز كل ما يحتاج معرفته للعيشِ في جازان. زراعة الأعلاف والحبوب، الخضار والفواكه، العناية بالمواشي، وحتى الطبخ. لقّنه مرّة تلو مرّة، طريقة صنع رغيفٍ من حبوب الدخن كان يحبُّه مع الحليب. علّمه أيضًا كيف يعدّ الطبق الآخر الحلو، الذي يضيف إليه الموز والسّمن والعسل. علّمه عجن الدّخن وتخميره وسكب اللحم والمرق عليه، كانت تلك هي الوجبة المفضّلة لديه. لقد علّمهُ كلّ شيء، كل شيءٍ ما عدا الكلمات.

مضت ثمانية أشهر ولا زال يجد صُعوبة في تصديق موتِه، رغم أن الأمر حدث أمام عينيه بالضبط. كانا منشغلين بتسميد الأرض بعد قص المحصول؛ وكانت عرانيس الدخن ترتاح تحت الشمس بانتظار أن تجف. في ذلك اليوم، كان سيّده قد استأجر ثمانية من الأفارقة لمساعدته في الحرث والتَّسميد، كانوا من أولئك الذين يدفع لهم بالسّاعة. انهمكوا في العمل، ثم أشار له الشيخ بأنه متعب ويحتاج أن يرتاح قليلاً، هزّ رأسهُ مواصلاً عمله، وبين يديه علبة سماد اليوريا. ذهب سيده ليتمدّد تحت أشجار الجوافة. أطبق عينيه، لم يستيقظ بعدها أبدًا.

استرجع في ذاكرته ملامح الشيخ؛ بشرته الزيتونية وأنفه الدقيق ذا المنخرين الواسعين، لحيته البيضاء في نهاية ذقنه، وحاجبيه الأبيضين. كان على الأرجح في منتصف السبعين، وقد مات مستظلا بأشجارهِ. زارهُ أولاده أحيانًا، ولم يكن يسر بمجيئهم قط. في زيارتهم الأخيرة

نشب بينهم شجارٌ حامٍ. كانت أيديهم تتحرّك بعصبية، وقد قالت أصابعهم الكثير. أرادوا منهُ أن يترك الحقل وأن يأتي معهم إلى الرّياض. قال العجوز بأنه لا يستطيع زرع الذرة في الرياض، ولا يستطيع رؤية الجبال من هناك. قالوا له بأن الذُّرة تباع في جميع المتاجر. ارتجفت قسماتُ الشيخ، قال بأنّه يكفيه من العار أن يغادر أولاده أرضهم وأن يتركوا سماءهم وأشجارهم، ولكنّه لن يغادر الجنوب أبدًا؛ لقد عشتُ عمري كلّه هنا، وسوف أموتُ هنا، ويمكنكم، بعد موتي، أن تبيعوا أرضي وتأخذوا مالي، ولكن اعلموا وقتها بأنكم ستكونون قد بعتم أمّكم يا أبناء الكلب.

دفعهم بيدهِ ودخل إلى بيتِه و لم يخرج حتى غادروا عائدين من حيث أتوا. بعد تلك الحادثة صار ينظرُ إليه و كأنّه العزاءُ الوحيد، الشخص الوحيد الذي يبدو، مثله، راغبًا في لمسِ الأرض ورؤية الجبال وشمّ البحر. كان بمثابةِ الابن الذي لم يحظَ به قط، هو القادم من اليباب، من مجاهِل كراتشي.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

00:12 ظهرًا

كان جالسًا في زاوية الحجرة عندما سمع دوران المفتاح في الثقب. أنّت مفاصل الباب، رأى سطوعًا باهرًا تخترقه كتلة عتمة. كان للكتلة ساقان وذراعان، وكانت تتحرّك باتجاهه. وثب يهتفُ؛ نظام! نظام! هرع إلى الرّجل الغريب. البشاشة تملأ وجهه؛ أين كنت؟ لقد انتظرتك طويلاً!

لم يبدُ على الرّجل أنه فهم كلمة واحدة. ظهرت عليه الدهشة عندما رأى وحدة التكييف تعمل. فتح الخزان فوجده مليئًا بالماء. ضحك. رطن بكلماتٍ غريبة، ثمّ توجه إلى المغسلة وغسل وجهه وتوضأ. فرش سجادة صلاتِه باتجاه لوحةِ الكعبة، وقد ولى ظهرة لجدارِ النساء العارياتِ. الله أكبر. فكّر بأن عليهِ أن يفعل مثله. كثيرًا ما كان يصلّي على يمين والده، وهو لم يفوّت صَلاة الجمعة قط. توضأ واستقام على يمين الرّجل، كبّر للصلاة. إذا انتهى من الصلاة سوف يتّصِل بأبي. فكّر.

بعد أن فرغ الرّجل من صلاة الظهر وتأديةِ السّنن سأله؛ **بهوك لگى ہے**؟ لم يفهم. ضمّ الغريب أصابعه إلى بعضها وقرّبها من فمِه. فهم. إنّه يسأله عن الطعام. لقد أكل فِجْلًا وخيارًا وطماطم. لا يريد أَن يأكل الآن، يريدُ أن يتّصل بأبيه ويطلب منه المجيء. هز رأسه للرّجل. وضع يده على أذنه:

تليفون؟

أشاح الغريب عنه. هل تجاهله أم أنه لم يفهمه؟ رآه يقرّب إليه ثلاثة قدور نحاسية فوق بعضها البعض. فتح القدر الأوّل وغرف بيدهِ ليأكل. مدّ عنقه لكي ينظر إلى ما يأكلهُ، شكله يشبه الهريس الـذي تعده جدته في رمضان. قرّب وجهه من القدر وتنشق رائحته، رائحة خمير الخبز المعجون بالموز. أخذ الرّجل لقمة بيده وحاول أن يلقمه:

كهاو.

كهاو تعني كُل. لقد فهم. فكّر بأنّه يحبُّ الموز، رائحة هـريس الموز حلوة، تتضوّع في المكان. قرقرت معدته. تذوّق نتفة فأعجبـه. اغترف الطعام بيده حتى كاد ينفد. ضحك الرّجل في البدء، ثمّ حين كاد يفرغ الوعاء من محتواه انتزعه من يده، أحكم إغلاقه بالغطـاء وعلّق:

بس.

قام الرّجل ليغسل يديه، ففعل مثلهُ. خلع الرّجل بنطلونه فـذعرِ لكونه لا يرتدي شيئا تحته، أغمض عينيه وأشاح صوب الجدار. قهقه الرّجل ورطن بكلماتٍ غريبة وهو يلفُّ إزاره على وسطهِ. تمدّد على الفرشة الإسفنجية الذاوية، وربّت على المكان على يمينه، وناداه:

آوْ.

لا يريد أن ينام الآن، يريد أن يتّصل بوالده. هزَّ رأسه. للمرّة الثانية يضع يدهُ على أذنه ويسأله: تليفون؟ تجاهلهُ الرّجل. سار على ركبتيـهِ ناحية جهاز تلفزيون ناشيونال قديم. لا يشـبهُ التلفزيـون في بيتـهم، التلفزيونات في بيتهم مسطّحة. هذا الجهاز الذي يشغله الرجل منـتفخٌ، بطنٌ ناتئة، وأزرارٌ دوارة على جانبيه، يغطيه سطحٌ خشبي من جوانبه.

شغّل الرّجل التلفزيون، فظهر على الشاشة مشهدٌ راقص من فيلمٍ هنديّ. كانت الممثلة التي ترقص بين الحقول الخضراء الواسعة، بالساري الأصفر، واحدة من نساء الجدارِ المخيف. كانت ابتسامتها تزعجه، ورؤيتها تجعل رأسهُ يمتلئ بالأنين. ولكنّها في الفيلم، تبدو مختلفة. تلبس الساري وترقص عارية البطن، لها ضفيرة طويلة جدًا.

عاد الرّجل إلى مكانهِ وقد شبكَ يديه تحت رأسه، غائرًا بين الوسائد، على فرشته الإسفنجية المهترئة، يتفرّج على الرّقص بابتسامةٍ راضية، مثل ملكٍ في مملكة السعادة. ما الذي يفعله؟ متى سيتّصل بأبيه؟ لا يستطيع أن ينتظر نهاية الفيلم! الأفلام الهندية طويلة! يريد أن يتّصل بأبيه الآن، يريد أن يعود إلى الكويت الآن، الآن الآن.. حاول أن يثير انتباهه، شدّ طرف إزاره وهو يضعُ يده على أذنه مردّدًا؛ تليفون، نظام! تليفون! ولكنّ الرجل لا يشعر به. لقد غابَ عميقًا داخِل التلفزيون المفلطح، في سرّة البطنِ العاري.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

1:00 ظهرًا

كان متعبًا من الحرث، كل ما أراد فعله هو أن يغفو سويعةً قبل أن يخرج لشراء البذور. ولكنّ الصبي لم يكف عن الإلحاح، ظل يشده من إزاره ويرفع عنه الوسائد وهو يردّد: تليفون! تليفون! تليفون! كان شعورًا جميلاً، أن تمتلئ الغرفة بصوتِ شخصٍ آخر، ولكنّه صار مزعجًا فيما بعد، واضطر لأن يزجره مرّتين، قبل أن يكفَّ عن الصراخ، وينكفئ على نفسهِ في الزاوية، مقرفصًا، يرمقه بعينين حانقتين، رطبتين.

ناداهُ لينامَ بجانبه، ولكنّ الصبي رفض. وهو لا يريد أن يخيفه، من الأفضل ألا يستعجل المرء مثل هذه الأمور. كما أنّه كان متعبا بعد كلّ الساعات التي أمضاها في زراعة الدخن. لم يكترث لابتعاد الصبيّ، وقرّر أن يتفرّج على كارينا كابور وهي ترقص حتى ينام ويأخذها في أحلامِه. ثقل جفناه، ثم غَفَق. نام وهو يسمعُ موسيقى الفيلم وصمت الصغير. ثمّ ما لبث أن فتح عينيه، هلعًا، عندما سمع صرير باب يُفتح. تلفّت حوله، كان الصبيُّ قد اختفى. البابُ المعدنيّ مغلق، والمفتاح في جيبه. أين الولد؟ نهض يبحث عنه، تتبّع صوت خيط الماء المنسرب من الحمّام. فتح الباب، كان الصبي يتبوّل واقفًا أمام المرحاض. صرخ الصغير فيه ليخرج. ولكنّه لم. وقف مكانه مسمّرًا عينيه على عريٍ نصفهِ السُّفلي، شفتهُ السفلى متدليّة.

صاح به الصبي. طشَّ البول على ثوبهِ وعلـــى الأرضِ حـــول المرحاض. دفع الباب ليغلقه، ثم خرج بعد لحظاتٍ وقد أسبل ثوبـــه يغطي به ساقيه الصغيرتين. تربّع غاضبًا في الزاوية، يرمقـــه بعيـــنين حانقتين. كانت تلك المرّة الأولى التي ينظرُ فيها إليه كشخصٍ شرّير.

لا زال أمامه وقت ليغفو. عاد وتمدّد بين الوسائد، ذراعه فـــوق عينيه، حاول أن يستعيد كارينا كابور ثانية. فكّر في نهديها، ثمّ فيما رآه في الحمّام.

"تليفون"

عاد الصبي إلى الإلحاح، إنه لن ينسى الأمر أبدًا، لن يكفّ.

"تليفون! تليفون! تليفون!"

رفع ساعده عن عينيه ونظر إلى الصبي الذي بادله النظر شزرًا. كان يجلس ضامًا ساقيه إلى صدره، وقد اختفى فمه وأنفـــه خلـــف ركبتيهِ، وأبقى له غرّته وجبينه وعينيه الغاضبتين. إنّـــه لا يحـــبُّ أن أراقبه عندما يتبوّل. ترى من أين جاء؟ وكيف وصل إلى هنا؟

نهض الصَّبيُّ من مكانه وراح يجولُ في الغرفة، يبحث عن شـــيءٍ ما. عثر على أوراق الرسائل وقلم الرّصاص فوق الثلاجة. كتبَ رقمًا على الورقة وأعطاه إيّاه. كان الرقم يبدأ بـــ 965+ وهذا يعني أنّه ليس من الشمال، ولا من الغرب، ولا من الشرق. إنه من خارج الخارطة.

"بابا"

قال وهو يشير بأصبعه الصغيرة إلى الرقم المدوّن على الورقـــة؛ تليفون نظام! تليفون! ابتسم، خطرت له فكرة مناسبة، سوف تُخمِدُ إلحاحه المزعج إلى الأبد. نهض وفتح الـــدولاب، أخـــرج حقيبتـــه القماشية واستخرج منها هاتفه النوكيا.

تفحّصه الصبي؛ نوكيا 6275 أسود، مستطيل. جهازٌ قديمٌ ويفي بالغرض. اتصل الصبيُّ على أبيهِ ولكنّ الخط انقطع. عاود المحاولة مرارًا، مرّة بعد مرّة بعد مرّة، وفي كل مرة كان الخط ينقطع؛ الرقم خطأ أو غير موجود. اغرورقت عيناه. كرّر التجربة عشرات المرّات، مئاتُ المرّات، محشورًا في زاوية الحجرة، يتصل على جميع الأرقام التي يعرفها، طوال ساعة، حتّى أطلق من فمِه صراخًا أليمًا، وسقط في البكاء.

تركهُ وبكاءه. إذ عليهِ أن يسرع لشراء البذور. دس هاتفه في جيبه قبل أن يغلق الباب ويقفله مرّتين. لم يبدِ الصبيّ أية محاولة للحاق به، كان يدفن رأسه بين الوسائد ويصيح. سيهدأ بعد قليل، حتى لو تطلب الأمر أيامًا، لدينا، أنا وهو، الوقت كله.

سار في طريقهِ إلى المزارع القريبة. ربما لن تكون فكرة سيئة إذا حصلت على بذور البطيخ والشمام أيضًا. صحيحٌ أنه بقي على الصيف ثلاثة أشهر، ولكنّ هذا أفضل من شرائها غالية في وقتٍ متأخر. شعر بأن شهيته مفتوحة للزراعة، وفكّر بثمرة المانجو المتدليّة من غصنٍ إِحدى شجرتيهِ، سوف يقطفها قريبًا. ثمرة مانجو على وشك القطاف، إنّها تجعل لعابه يسيل. انتشر تحت جلده سائل السعادة، فكّر في الصبيّ المحبوس في حجرته، وفي ثمرة المانجو؛ إنّه موسمُ القطاف.

استرجع في رأسِ تلك الساعات الطويلة التي قضاها يئن من فرطِ الوحدة. غلبه التأثّر، ابتسم؛ من حسن الحظ أنني لم أشترك في خدمة الاتصال الدوليّ.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

11 ذي الحجّة 1431

7:06 مساءً

ثم سقط في النّوم.

بعد ساعاتٍ طويلة قضاها في النشيج والضرب والركل، لحق به تعبٌ مفاجئ، ارتخى جسده وأخذ يبكي بوهنٍ، ثم غشيه النوم. نامَ والألم يشقُّ صدره، رأى في أحلامه أطفالاً سودًا يبكون، يضعهم الكبار في صندوق سيّارة. كانت هناك يدان عظيمتان تقبضانِ عليه. عض اليد التي تمسكه وركض وهو يصرخ، وجد نفسه يحرّك ساقيهِ، على فرشةٍ إسفنجيّة، وقد تكوّم بين ركبتيهِ اللحاف ذي المربّعات. سمع صوت تدفق الماء في الحمّام، فخمّن أنّ الرجل قد عاد. تسارع وجيبُ قلبه وأغمض عينيه. فكّر بأنه إذا ما تظاهر بالنوم، فلسوفَ يتركه الرّجل وشأنه. لم يكن على الفرشة عندما غفا. كان في زاوية الغرفة بين جبلٍ من المساند. لابدّ وأن الرجل حمله إلى سريره. كان يناديه منذ الظهر لكي ينام إلى جانبهِ، يقولُ له؛ آو! آو! لا يدري ماذا تعني هذه الكلمة، ربما تعني نَم، وربما تعني تعال. فتح نصف عين، راقب الرّجل يخرج من الحمام، نصف عارٍ، يتمنطق بإزارٍ ذي خطوط زرقاء، يجلس أمام موقدِ الغاز ذي القاعدة الزرقاء. فتحَ القدرين النحاسيّين، وأخرج منهما أرزًّا ومرقًا ثقيلا، امتلأ المكان برائحة التوابل. وضع الرَّجل المقلاة على الموقد وسخّن الطعام، ثم

شرع يأكل. تذكّر بأن آخر شيءٍ أكله كان الموز المعجون بالخبز نهار اليوم. ولكنّه لم يشعر بأية رغبةٍ في الأكل.

كان خائفًا مما لا يدري.

دنا الرّجل من التلفزيون وشغّله ثانية. ظهرت الممثلة نفسها؛ بيضاء البشرة خضراء العينين لها شعر ناعم أسود. لا بدَّ وأنه يحبّها كثيرًا. حدس بالرجل يسدد نظراته إليه. أغمض عينيه. أحس به يقترب، يقترب أكثر، يتمدّد بجانبه، أدار لهُ ظهره ملتفًّا بلحافهِ. كان قلبه يخبط بجنون. لقد نام أحيانًا في سرير عمّه، وبين والديه، ولكن هذا الرجل..

تفرج الرجل على الفيلم قليلا، ويدهُ تعبث بخصلاتِ شعره، تمسح على كتفهِ، ومؤخرة عنقه بأصابع خدِرة. فكّر بأن الرجل الغريبَ يحبُّ أن يلمسه. عمّه يضمّه ويطلب منه أن يطقطق أصابعه، وأن يمشي على ظهره. أحيانًا كان يخلع عنه بلوزته ويعض كتفه. كان يجعله يضحك. ولكن هذا الرّجل.. أحس بحرارة أنفاسهِ تلفح مؤخرة عنقهِ، وصنوان أذنه. لم يعد ينظر إلى الفيلم، صارَ يستلقي على جنبهِ وينظر إليه. ارتجف، فتح عينيهِ هلعًا وهو يحسُّ بالرجل يقتربُ أكثر، أكثر، يلتصقُ به، أحس بشيءٍ صلب يلامسه. تسلّلت يدان عظيمتان وقبضتا على فخذيهِ، فجأة وجد نفسه مُنكبًّا على وجهه، والرجل فوقه. هزَّ جذعه مرارًا، حاول أن يتفلّت، صرخ بأقوى صوتِه، ولكن وجهه كان مدفونًا في وسادة، و لم يسمعه أحد.

يومٌ سادس

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

12 ذي الحجّة 1431

5:00 صباحًا

فتح عينيه قبل أن ينطلق رنين المنبّه. إنّهُ يومٌ آخر.

نظرَ إلى الصبيِّ المتكوّر في الزاوية، خلف جدارٍ من المساند، يظنه يحميه. جدار ينفخ عليهِ المرء فيقع. لقد نام بعد أن شبع من البكاء. لا يدري لماذا ضايقه الأمر إلى هذا الحد، فقد كان لطيفا، وأخذ في حسبانه أنها المرة الأولى، وضرورة التدرّج في الأمر. إنه حتى لم يخلع عنه ملابسه، ولكنه عندما نهض عنه والبلل يغطي إزاره، وثب الصبيّ من مكانه صارخًا، اختبأ في الزاوية وهو يكيل عليهِ رطانته المضحكة. لعله كان يدلقُ عليه كل الشتائم التي سمعها في حياتِه القصيرة، المثيرة للشفقة. بكى حتى شبع من البكاء، ثم نام من التّعب.

فرغ من الحمّام الساخن بجسدٍ خفيفٍ ونشط. ترك الصغير وشأنه. إذا كان الصغير يحب النوم على الأرض الحجريّة القاسية، فليفعل، ولكنه إذا أراد أن ينام في مكانٍ مريح، فهو يعرف أين ينبغي له أن يذهب.

توضأ وصلى الفجر، تناهى له الشخير الخافت للصغير الغافي بين المساند. كان صوتًا محبّبًا، وقد شعر لأول مرة بـأن هـذه الحجـرة الموحشة تمتلئ بالحياة. تملى في قسمات الصبيّ، كان وجهه ملطّخًا ببكاء الليلة الماضية، وقد احتقنت ملامحه وتورّدت شفتاه. أحس فجأة بأنه سعيدٌ بهذا الحيوان الأليف الذي ساقته إليه الأقـدار، ولسـوف يروّضه جيّدًا، ويطعمه جيّدًا، مثل ماعزه ودجاجاته.

تذكّر بأن الصغير لم يأكل شيئا منذ ظهيرةِ الأمس. شعر بالضيق لأنه نسي أمرًا بهذه الأهمية. ترك له السفرطاس؛ فيـه بعـض الأرز ومَسالا الخضار. إنه ولدٌ ذكي، إذا كان بوسعهِ أن يشـغل وحـدة التكييف، فسيكون بوسعه أيضًا أن يساعد نفسه ويأكل. وفكّر بأنّ عليهِ منذ اليوم أن يطهو لشخصين، وأن يبقي الصغير بصحّةٍ جيّـدة، وأن يملأ قوامه باللحمِ الطريّ. بعد أن يفرغ من مهامِ الحقل، سوف يدخلُ إلى بيتِ سيّدهِ المتوفى، وكما يفعل دائمًا، سوف يمسح الغبـار ويكنس الأرض وينظف النوافذ، ثم سيتوجه إلى المطبخ ويعدُّ غـداء شهيًا له وللصبـي. لن تكون الماسالا هذه المرّة، سيعدُّ له طبقًا كان سيّده يحبه. سوف يعجن أقراص الخمير في إناءٍ من الفخّار، ثم يضيف إليه المرقَ ويدقّه بالمفتّ حتى يلين، ثم يضيفُ إليه اللحم. ليس عنـدهُ لحم، سوف يكتفي بالبطاطا والقرع. وسيكون ذلك جيّدًا. سـيعدُّ أيضًا كمية أخرى من الطبق الذي أحبّه الصغير، خبز الدخن المعجون بالموز، سيضيف إليه كمية أكبر من السمن والعسل، وسيذرُّ عليـه بعض القرفة. لم يكن سيده يضع القرفة، ولكنّه جرّبها مرّة، وأعجبته.

فكّر بكل الوصفات الجنوبية التي يستطيع إعدادها، من المؤسف أنّه لا يعرف أسماءها. لعلّ من المناسب أن يخترع لها أسماء أرديّة.

امتلأ صدره بخواطر باردة، سعيدة؛ إنها مسألة وقت، على المزارع أن يكون صبورًا، فلا معنى لقطف ثمرة مانجا حامضة. إنّه يحبها حلوة ومليئة بالعصائر، ولأجل ذلك فهو مستعدٌ لانتظارها طوال عمره. وعندما يجيء الوقت، وتنضج الثمرة، سوف يكون الأمر مختلفًا جدًا.

إنها مسألة وقتٍ حتى يدرك الصغير بأنه هو، نظام شجاع الدين القادم من كراتشي، الشخص الوحيد الذي بقي له في هذا العالم.

الفصل التاسع

هَدير

يومٌ عاشر

أبها. شقق الرّاحة

17 ذي الحجّة 1431

545: صباحًا

هل تعرفُ تلك اللحظة التي يقولُ فيها أبٌ لابنه: كـــلّ شـــيءٍ على ما يرام؟

أطفأ عقب السّيجارة بالدرابزين عن يمينه، وأرســـل عينيـــهِ في السماء. كانا جالسيْنِ على الدرجاتِ المفضية إلى الحديقة الخلفيـــة؛ براحٌ عشبي في منتصفهِ حوض دائري مليء بالصبّاريات. الشّـــمس توشك أن تشرق، غلالة من الضّباب تغطي كل شيء، ومن حولهما عشرات الأعقاب المطفأة.

مضى على مجيئهم إلى عسير سبعة أيّامٍ عجاف، وعِرة، مضنية. سبعة أيّامٍ من اللا شيء، تخللتها زيارات متعاقبة إلى المراكز الأمنيـــة. الانتظار، والمزيد من الانتظار. أحس فيصل بأنه معلّقٌ من عنقه بحبلٍ، يرفس في الفراغِ دون أن يموت. لو أنّه يموت؟ هـــل تعـــرفُ هـــذه اللحظة؟ هزَّ سعود رأسه ولم يعقّب. نفث فيصل الدخان من صدره وأردف: في الأفلام، عندما يقتل المجرم أو يلقى عليه القبض، وينقـــذ الشرطيّ الطيّب الطفل المختطف، يمدُّ إليه ذراعيهِ وهو يقول له بـــأنّ

كل شيءٍ صار على ما يرام. صمت لحظة. اختلج صوته؛ إلى أيّ حدٍ يكذب الكبار يا سعود؟

كانت الكلمات تتدفق من داخله، على غير العادة. إنها المرة الأولى التي يجد فيها نفسه ممتلئًا بما يمكنُ قوله، بعد أن جفت اللغة وتجمّد الزّمن. لقد مرّت عشرة أيام، وباتَ يعرفُ أكثر؛ لن تجيء أبدًا تلك اللحظة التي يصبحُ فيها كلّ شيءٍ على ما يرام. تخيّل الآن، ذلك الشرطي يخبر الطفل؛ كل شيء على ما يرام، وفي اللحظة التي يندفع فيها الطفل إلى ذراعيّه، تمرُّ سيّارة مجنونة وتودي بهما معًا. يضحك. إن الواقع هو بهذه الدرجة من السُّخفِ فعلا، وفي اللحظة التي تظنُّ فيها بأنك نجوْت، تكون قد هلكت. رفع سيجارته في وجه فيصل وأردف؛ إيّاك أن تأمن المستقبل، إيّاك..

مدَّ سعود يده يطبطب على ظهره. هذه المرّة لم تكن عندهُ كلمات يقولها. لم يكن بمقدوره أن يكون الشرطيّ الطيّب، أو البطل الخارق، أو سبع الليل، أو الرجل الوطواط. لا يستطيع أن يقول؛ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. كيف يسعه ذلك بعد ما حدث؟ همهم وحسب؛ الله كريم.

تابعَ فيصل؛ ليس من حقّك أن تعطي طفلك أمانًا كاذبًا، ولكن أتدري أين المشكلة؟ المشكلة أنَّ الأمان كلّه كاذب، الأمان كذبة. حتى لو خبأت طفلك في غرفة بمليون قفل، بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إليه وأن يؤذيه، أصغر وأحقر فيروس في هذه الحياة قادرٌ على أن يودي بحياتِه. هل فكّرت قط بما نفعله؟ زفرَ. ما كان ينبغي أن نحضره إلى مكّة.

تنهّدَ سعود، رفع عينيه إلى السّماء، كانت أولى أشعة الشمس تنتشرُ في الأفق. لأوّل مرة في حياتي أحسدك لأنك أعزب وبلا أبناء.

همهم فيصل. اكتسى التعبُ وجههُ فجأة. تردّد سعود قبل أن يسأله؛ كيف حال سميّة؟ مطّ شفتيه؛ إنها أفضلُ حالاً منّي، يبدو أن الله يساعدها. أطرق برهةً ثم أردف؛ ليلةَ أَمس، اتصلت أختها تخبرها بأنها قادمة إلى السعودية، ردّت عليها سمية بألا تأتي، بأنّها لا تريد رؤية أحد قبل أن تجد مشاري. هل تصدّق؟ إنها لا تبرح سجّادة صلاتها أبدًا. تلكأ سعود قبل أن يعاتبه؛ شجاركما في الأمس.. الفندق كلّه سمع صراخكما. نكّس رأسه؛ الأمرُ خارجٌ عن سيطرتي. منذ وصولها إلى عسير وأنتما في شجارٍ دائم، ربما سيكون أفضل لو تجنّبتما لوم بعضكما البعض. هزّ رأسه. هل تلومها فعلاً؟ لم يرد. سادت دقائقُ صمتٍ، اخترقها غناءُ الجداجد صاعدًا من أعماق العشب. تأمّل فيصل كومة الأعقاب المطفأة على جانبهِ، إنه يدخن كالمجانين، كأنه يريد أن يحترق. رفع السّيجارة أمام أخيه وعلّق؛ كانت فكرة عبقرية. ما هي؟ السيّجارة تحت الجِسر، كان تصرّفا ذكيًا جدًا. لم يبدُ شقيقه سعيدًا بالإطراء؛ أرجو أن تكفَّ عن التدخين بعد عودتنا إلى الكويت. هزَّ فيصل رأسه؛ البعض منا يساعده الله، البعض الآخر.. عليه أن يساعد نفسه. يا لقلة الحيلة يا فيصل، تساعد نفسك بهذه! نخرَ؛ بالضبط! قلة الحيلة تعبيرٌ معقول جدًا.

عقد سعود حاجبيه؛ ما قصّة هذا الزعل بينك وبين الله؟ ألم تكن ذاهبًا للحجّ كما أذكر؟ أشاح بعينيه؛ كنتُ. وما الذي تغيّر؟ لا أدري. هزّ سعود رأسه؛ إنني أصبر على هرطقاتك رأفة بحالك. صعّر خده. هل تذكرُ يوم وفاة الوالد يا سعود؟ أذكُر أنا لا أنسى ذلك اليوم. ولا أنا. أنا لا أنساهُ لأسباب مختلفة عنك. ماذا تقصد؟ نفث

الدخان من أنفهِ. عندما جهّزوه للدّفن، هل تذكر كيف لفّوا رأسه بقطعة قماش؟ إنهم يثبّتون الفكّ بحيث لا يرتخي ويبقى فمُ الجثمان مفتوحًا. ما حدثَ هو أن شفته السفلى كانت مدفونة أسفل شفتهِ العليا، هل تذكر؟ لا، لا أذكر. كان شكلهُ هكذا. قلّد وجه والده الميّت. هل تذكر الآن؟ ما الذي تريدُ قوله فيصل؟ يبدو الميت وكأنّه يبتسم، ولكنّه في الحقيقة لا يبتسم، العجيب أنّ جميع من دخلوا الغرفة يومها لوداعه قبل نقله إلى المقبرة، حسنًا، الجميع خرجوا مبتسمين، يمسحون دموع التأثر، ويهللون؛ تبارك الله! وجهه مبتسم! ضحكَ ذاهلاً؛ لم يكن مبتسمًا سعود، كان ميتًا وحسب! قهقه والدّموع تطفرُ من عينيه. نظر إليه شقيقه مشفقًا؛ ما بك فيصل؟ ما الذي تحاول قوله؟ عرفتُ وقتها بأن الناس يرون ما يريدون رؤيته، وأنا، رغم أنني أردت أن أرى ما يرونه، إلا أنني لم أقدِر. نشقَ بأنفه، مسح عينيه بساعده. هل هذا هو الإيمان يا سعود؟ أنا لا أستطيع رؤية ما تراه سميّة، لقد خلتني مؤمنًا طوال عُمري، ولكن الآن. ربّت شقيقه على كتفه؛ يعودُ كلّ شيءٍ بعودتِه. ابتسم؛ وماذا عنك يا سعود؟ ماذا عنّي؟ أراكَ تصلّي. إنّها تريحني. الصلاة؟ نعم. هنيئا لك.

أطفأ شقيقه سيجارته الأخيرة قبل إنهائها؛ ستكف عن التدخين إذا عاد مشاري، يجب أن تكون قدوة له، يكفينا مثال سيء واحدٌ في العائلة.

"مشاري" همس بالاسم مرارًا؛ مشاري، مشاري، مشاري. رغم أن حياتهم في الأيام العشرة الأخيرة تتمحور حوله، إلا أنهم نادرًا ما ينطقون اسمه. وفكّر فيصل بأنهم صاروا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن شخصٍ ميّت.

مرّ أسبوع. تمتم فيصل؛ أسبوعٌ في عسير، ثلاثة أيّام في مكـــة. غمغم سعود. لقد أحصى الأيام في رأسهِ أيضًا. عشرةٌ كاملة.

أتساءلُ طوال الوقت، ما الذي رآه في الأيام العشرة الماضـــية؟ ثمّ.. ثمّ ماذا؟ ثمّ أتمنى أن يصلني خبر وفاته. تشنّجت أصابع سعود، هز رأسه؛ لا، سوف يعودُ، سوف يكون كل شيءٍ على ما يرام، سترى.

ابتسم فيصل؛ يا لها من كذبة جميلة، كذبة الشرطيّ الطيّب.

أبها. شقق الرّاحة

17 ذي الحجّة 1431

8:34 صباحًا

عاد إلى الغرفة، فرأى سميّة واقفة على سجادة صلاتها، تؤدي ركعتيّ الضحى، متسربلة بعباءتها السوداء.

ركعت، فرأى أنها هزلت كثيرًا. صَغرَت عجيزتها، نُحل كتفاها، تلاشت الزغاديد التي اعتاد تحسّسها في ظهرها كلما أحاطها بذراعه. أحسَّ، على نحوٍ مزعج، بأنه برفقة امرأة أجنبية. امرأة مُحَرَّمة.

فكّ أزرار قميصه، فتح الدولاب ليخرج دشداشة جديدة ليومٍ آخر، سوف يقضيه مع سعود ومازن، مثلما فعل في الأيَّام السابقة، متردّدًا على المراكز الأمنية. حاول أن يسترجع ما كانت تبدو عليهِ سميّة قبل اختطاف مشاري؛ كانت شحيمة، بضَّة، طريَّة الزندين، مكتنزة الخدّين بغمّازتين رائعتين. اختلس نظرة إلى المرأة النّحيلةِ التي تريحُ جبينها فوق صورةِ الكعبة على سجّادتها الخضراء. كانت تطيلُ السُّجود. يراها مؤخرا تتسربلُ بغطاء رأسها حتّى أمام سعود. عرفَ بأنها قد تحجّبت.

أنهت صلاتها. سمعها تبسبس بالاستغفار والأدعية؛ اللهم أنتَ السلام ومنكَ السَّلام. عادت الأيدي الفولاذية الخفيّة تقبض على عنقهِ. راقبها بطرفِه؛ هدوءها، انسلال السّنِ من بين أَسنانها، صمتُها الكثيف. إنها ترفلُ بسكينةٍ غريبة. لا تغادر سجادتها؛ تصلّي، تقرأ القرآن، تقومُ الليل. لقد كان الله معها. لم تكن سماؤها صامتة كسمائِه.

عندما وصلت إلى عَسير، قبل سبعة أيامٍ، استقبلها في بهو الفندق بوجهٍ جامدٍ وجسدٍ متخشّب. لم يتبادلا التحايا، ولا النظر. كانت تنظرُ إلى حذائها عندما سألتهُ؛ وين الغرفة؟ حمل عنها الحقيبة واقتادها إلى الشقة، ثم إلى غرفة نومِهما. عندما رأت أنه اختار غرفةً بسريرين منفصلين لم تعلّق، كأنّ هذا هو ما تريده.

إنّها المرة الأولى التي يفترقا فيها في الفراش. حتى عندما كانا يتخاصمان في النّهار، كانا يعودان إلى دفء سريرهما في الليل، كمن يعلن صلحًا. في البداية ينامان متباعدين، وكلٌ يولي الآخر ظهره، ثم يستيقظان في صباح اليوم التالي، ورأسها على صدرهِ، ويده على جبينها. لم يكن أحدهما يتذكّر كيف انتهيا هكذا، لكنّ الخصومة تصبح بلا معنى بعدها. سميّة الدافئة، العطِرة، التي يتشمّم في رقبتها دهن العود، وفي شعرها دهن الزعفران، وفي راحة يدها مسك العروس. زوجته. أم ولده. التي لابد وأن يطيّب خاطرها في كل ما تشتهيه. كيف أصبحت بعيدةً هكذا؟

أغلق باب الدولاب وهمّ بالخروج. سمعها تسأله:

وينك؟

ثمّ حاولت أن تلطّف حدة سؤالها:

ما شفتك من أمس.

كنت بالحديقة مع سعود.

طول الليل؟

أومأ. ارتفع حاجبها الأيمن. إنها تحصي ساعات نومِه؛ ساعات نومِه التي بلغ عددها الصفر تقريبًا، لولا الاغماءات العارضة التي تعتريهِ.

لازم تنام شويّ.

هزَّ رأسه. إنه لن ينام أبدًا. لقد قرّر ذلك منذ أيامٍ. ليس مستعدًّا للدخول إلى ذلك المكان؛ حيث الكوابيس التي تجعل واقعه يشعّ. نهضت تطوي سجّادة صلاتها بيدين واهنتين، وضعتها على الطاولة وجلست على طرفِ السرير، بدت متردّدة قبل أن تسأله:

صليت الفجر؟

ابتسم نصف ابتسامة؛ إنها لا تسأله عن صلاة الضحى، إنها تسأله عن فرضِه، تريد أن تعرف إن كان باقيًا على العروة إياها أم لا وضع يدهُ على مقبض الباب.

فيصل.

نعم.

ترى إذا ما دوّرت عليه ما راح تلقاه.

أرسلت عينيها، عبر النافذة، إلى السّماء.

شعر بالدّم يتدفق حارًا إلى صدغيهِ، ارتجفت أطرافه، قبض أصابعه بقوّة يجاهد كيلا يلكم الباب أمامه. إذا لكمهُ سوف يكسره. كيف يسعها أن تبطن له اتهامًا كهذا؟ هي من بين الناس جميعًا؟ ألم يكن في طريقهِ للبحثِ عنه عندما نادته، هي التي لا تغادِر سجادة صلاتها أصلاً؟ تعتقد بأنها إذا سجَدَت بما يكفي سوف يطرقُ أحدهم بابها ويعيد إليها ولدها سالما معافى. في حين أنا، أنا.. أنا الذي يهيم في الجحيم. أنا الذي لا ينتظر المعجزات الإلهية، بل يخرج ليصنعها، أنا ابن الكلب الذي..

سميّة.

كان يجاهد لكي يخرج صوته هادئًا بقدرِ الإمكان.

أنا أدوّر عليه طول الوقت.

ابتسمت.

أنا ما أقصد الولد.

أبها. شقق الرّاحة

17 ذي الحجّة 1431

8:56 صباحًا

كان سعود ينتظرُ في غرفةِ الجلوس عندما بلغه الصراخ.

انفتح باب غرفة الزوجين، فاندفع فيصل خارجًا تتبعهُ سميّة وهي تهزُّ سبابتها في وجهه؛ كيف يستجيب الله لدعائك وأنت لا تصلّي؟ كيف؟! فتح باب الشقّة ليخرج عندما جذبته من ظهره، تشده من دشداشته تهزهُ، الخوف ينضح من عينيها:

فيصل إنت مؤمن؟ إنت مؤمن؟

دفعها عنه:

وَخْري عنّي سمية.

قبض على يديها ثمّ دفعها بعيدًا. ارتطم ظهرها بالجدار، عادت تتعلق بكتفيهِ؛ كيف يستجيب الله لدعائك وأنت لا تصلّ.. صرخ فيها:

أنا ما دعيت الله يرجّع لي ولدي.

اتسعت عيناها هلعًا، تنظر إليه غير مصدّقة. خرج صوتُها مبحوحًا وهي تصيح في وجهه:

مشاري ما راح يرجع إذا ما صلّيت!

حاول سعود أن يفكّ اشتباك الاثنين؛ سميّة خلاص، روحي الدّار سمية. سميّة خلاص كافي، خليه بحاله. ولكنها عادت تلوّحُ

في وجهه وتردّد؛ مشاري ما راح يرجع إذا ما صليت! انفجر فيها:

سميّة أنا كنت أصلّي طول عمري، ولدي ليش راح؟!

تراجعت خطوة وهي تتملى فيه مذعورة. انتفخت أوداجُه ونتأت العروق في جبينه. اقتربت منه خطوة وهمست:

راح بسبّة ذنوبنا.

رفس ظهر الأريكة، لكم الجدار، صرخ؛ بسبب ذنوبنا؟! بسبب ذنوبنا؟! همست ثانية؛ ربّك يختبرك. صار يقذف الوسائد والطاولات؛ يختبرني؟! يختبرني ياخذ ولدي؟ يختبرني ليش؟ ليش يختبرني ليش؟! قبض سعود عليه بذراعيه: هدّي أعصابك بو مشاري! هدّي نفسك! روحي الدّار سميّة، خلاص. روحي. اقتربت منه وجلة، تتأمل الدموع وهي تسحُّ من عينيه. انتفخ جفناه وجف ريقه: سمعيني سميّة. نظر في عينيها العميقتين السوداوين. تأخذانه إلى مجاهلِ الخوف والجوع، كيف يستطيع صياغة الأمر بألطفِ شكلٍ ممكن؟ كان يلهثُ كمن يلتقط أنفاسه من مكانٍ سحيق. اسمعيني سميّة. أسمعك. تسمّرت عيناه على عينيها. همس؛ لا أحد ينجح في هذا الاختبار. خرج صوته هادئًا، شبه ميّت. ارتخت قبضة سعود، بدأت تنشج، متشبّثة بدشداشته. كانت ذقنها ترتعشُ، وقد تلاصقت رموشها من فرط البلل. حاولت أن تلمس وجهه بكفيها. أشاح. خرج صوتُها هامسًا؛ فيصل إنت كفرت؟ صعّر خدّه، أفلت نخرة؛ الكافر يملكُ يقينًا لا أملكه. وجد نفسه يضحك. نظرت إليه تائهة. هل تؤمن بالله، فيصل؟ هل تؤمن بالله؟ السؤالُ المتاهة. حتى هو لا يملك إجابة به. نظرت إليه بكلّ الرَّجاء الممكن، تستجدي عودته إلى

خارطة اليقين. بحث في داخله عن جواب مطمئن، كلمة من شأنها أن تبدّد من عينيها كل هذا الخوف، ولكنه لم يشعر بشيء إزاء سؤالها، باستثناء السقوط في هاوية الفراغ، في الخفةِ المفزعة. تحوّل صوتها إلى الهمس؛ أن تخسر ولدك، فهذا مما يدمي القلب، ولكن.. أن تخسر الله؟! زمّ شفتيه، أشاح بعينيه. كيف يشرح لها بأنّه الطرف الذي تم التخلي عنه؟ في حين امتلأت هي بحضوره فجأة، وصارت تراه في كل مكان، تحدثه طوال الوقت، تعتقد بأنَّها تسمعه. هي التي لا تبرح سجادة صلاتها وكأنها وجدت في ذلك المستطيل القماشيّ الأخضر كل نعيم الدنيا، كيف يشرحُ لها كلّ هذا التيه؟

دنت خطوةً منه. احتضنت وجهه بكفّيها، أراد إبعادها لولا نظرت إليه بعينيها الهائلتين، المشرّعتين على الرّعب والحب معا. فيصل. ازدردت ريقها، أحس بحرارة أنفاسها على وجهه. هل تعرف نتائج ذلك شرعًا؟ نعم، يعرف. تعرف حكم تارك الصلاة؟ أومأ. فرّت من عينها دمعة:

وهذا اللي تبيه فيصل؟ ننفصل؟ عقب كل هالعمر؟ عقب العِشرة والخِلفة؟

حاصر وجهها بكفيه، اعتصر خدّيها. نكّست بصرها.

حطّي عينك بعيني.

أمسك ذقنها بيدِهِ، رفع وجهها إليه؛ الخوف يلمعُ في عينيها الحمراوين.

أي خِلفة، سميّة؟

ولدنا!

- الولد راح.

اعتصر البكاء وجهها:

ولدي ما مات!

ليته مات.

ولدي بيرجع.

ما راح يرجع.

لازم تثق بالله..

الله؟

إي!

نظر إليها فاغر الفم.

بس وينه؟

أخذوه عيال الحرام، بس بنلقاه، بيرجع!

ابتسامة غامضة شقت طريقها إلى شفتيه.

أنا ما أقصِد الولد.

أبها. شقق الرّاحة

17 ذي الحجّة 1431

9:33 صباحًا

اندفع خارجًا، ينــزل الدّرجات على عجــلٍ. هرعــت وراءه تناديه؛ فيصل! تسمّر مكانه. لحظة! قالت كأنّها تعتذر. رفع عينيــه ورآها تتكئ على الدرابزين من علٍ، تطلّ عليه بعينيها الدامعتين، وقد تورّم وجهها من فرطِ البكاء. هل تعتقد بأن كل شيءٍ سيعود كمــا كان؟ مطّ شفتيه. إذا عاد مشاري، هل تعود؟ ازدردت ريقها. هــل نعود؟ هز كتفيه؛ ما أدري سميّة. قالها ثمّ نــزل بقية الدرجات خببًا، كأنّه يفرُّ من سؤالٍ آخر.

كان كلٌ من مازن وسعود في انتظاره. جلس سعود في المقعــد الخلفي للسيارة، بعينين محمرتين وأنفٍ متورّم. لم يستطع البقــاء في الشقة لحظة واحدة، بعد أن سمع الذي سمع. فتح الباب وفرَّ ركضًــا بمجرّد أن تحدّثت سميّة عن الطلاق. كان يمسح أنفهُ بمنــديلٍ أخفــاه بمجرد أن لمح وصول شقيقه. كابد فيصل لكي يبتسم لأخيهِ وهــو يفكّر بالعبء الرازح على كتفيه؛ سعود الذي لا يبكــي، الشُّــرطي الطيّب، سبع الليل! كل شيءٍ يفلتُ الآن من يديهِ العاجزتين. صاح به مازن:

فينَكم يا شيخ؟

- فيه أخبار؟

أيوه فيه.

اتسعت حدقتاه:

بشّر؟!

اركب انتَ دحّين، أحكّيك في الطَّريق.

صعد إلى المقعد الأمامي. غادرت السيّارة مواقف الفندق. في الطريق أطلعهم مازن على آخر التطوّرات؛ قامت الشرطة ليلة أمس بهدم إحدى العشوائيّات المشيّدة على السفوح؛ فيها عشراتٌ من الرجال والنساء من الأفارقة. كانت العشوائية عبارة عن مجموعة خلايا، غرف متجاورة من الصّفيح والخشب، حيث يمكنك أن تدخل غرفة وتخرج من غرفة أخرى على مبعدة عشرات الأمتار وتجد نفسك في الوادي. ولكنّ الشرطة حاصرت المكان، طلبت منهم تسليم أنفسهم. عندما لم يخرج أحدٌ قامت الشرطة بدكّ المكان على رؤوسهم. هرب كثيرون، الذين تأخروا في الهرب ماتوا تحت الأنقاض. خمسة عشر جثة استخرجتها الشرطة لاحقًا، وألقت القبض على البقية الذين هربوا. رجالٌ ونساء..

توقّف مازن فجأة عن الكلام، صاح فيه الأَخَوان:

وبعدين؟!

أومأ بذقنهِ إلى بوابةِ مركز الشرطة:

العسكري يبغى يشوفَكُم بسرعة.

محافظة رجال ألمع. مركز شرطة حسوة

17 ذي الحجّة 1431

10:11 صباحًا

كان الضابط في انتظارهم؛ تفضل يا أبو مشـــاري! أشـــار إلى الكرسيّين أمامه. جلس الأخوان متقابلين. ظل مازن واقفا قرب الباب. طلب الضّابط ماء لضيوفه، وفكَّر فيصل بأن هذه هي اللحظـــة الـــتي يسمع فيها المرء خبر وفاة ابنه. وإلا، لماذا يطلبُ له الضابط كأس ماء؟ الأرجح أنهم وجدوه ميتًا تحت أنقاض العشوائيات التي قامت الشّـــرطة بهدّها. لقيتوا الجثمان؟ كان مستعدًّا لسماع الأسوأ. وفكّر بأنه في حال سمع بأن ابنه مصاب، أو يرقد غائبًا في وحدة العناية الفائقة، فلن يكون الأمر بالغ السوء بالنسبة إليه. وفي حالِ مات.. فلن يكون الأمر أســـوأ من جحيمه هذا. رفع عينيه إلى وجه أخيه، كان يحدّق فيه غير مصدّق بأنه يتحدث عن موت ولده كشيءٍ مفروغٍ منه. مرة أخرى التفـــت ناحية الضابط؛ لا تخفِ الأمر، أعرفُ بأنه مات. هزّ الضابط رأسه:

اذكر الله يا رجّال.

بهت وجهه؛ يذكر الله؟ وهل نساهُ؟

تدخّل سعود:

أي أخبار عن الولد يا حضرة الضابط؟

أومأ الرّجل. المباحث حقّقت مع مجموعة ممن ألقـــت القـــبض عليهم بالأمس. وشى بعضهم ببعض. أشار بعضهم إلى وجود امرأتين

تدور حولهما شائعاتٌ غريبة. كانتا جديدتين في المكان، لم تعملا في الحقول، ولم تكونا ممن يصنّع الشمة، وكان معهما الكثير من الرّيالات. استفدنا من المنشور في عملية التحقيق مع المقبوض عليهم، وذكر كثيرون بأن للمرأتين علاقة برجلٍ اسمه جرجس، يتزعّم عصابة تختطفُ الأطفال. احتبست أنفاسه، طبطب شقيقه على يدهِ يهدئ من روعِه. واصل الضابط كلامه؛ حقّقت المباحث مع المرأتين. أخبرنا المرأتين بأن التهمة ثابتة وأن الشهود كثر، وأننا سنشنقهما لا محالة، ولكنّ الاعتراف يمكن أن يخفف العقوبة. اعترفتا أخيرًا. أحس ببرودة تلسع عينيه. تعالى وجيبُ قلبه. أراد أن يسأل ولكنّ فمه تجمّد. خرج السؤال من شقيقه:

لقيتوا مشاري؟!

نفى الضابط بهزّة من رأسه. شعر بجسده يخور. امتدت يدُ أخيه تشدُّ على يده. أردف الضابط؛ عرضنا صورة ولدك على المرأتين، كلٌّ على حدة. كلاهما قالت بأنها ليست مسؤولة عن اختطافِه، وأنها لا تختطف إلا الأطفال السّود.

نهض من مكانه واتكأ بساعديه على مكتب الضابط يسأله وهو ينظر عميقًا في عينيه: وين الولد؟ ارتفع كتفا الضابط؛ تقولُ بأنها لا تعرف، أو أنّها تكذب. سوف نعرفُ ذلك مع التحقيق، أردتُ فقط إطلاعك على آخر المستجدّات، لقد أصبحنا أقرب إلى ولدك وهذا.. أريدُ أن أراها. قاطعه فيصل. يجب أن أراها. حتى لو رأيتها فلن تتعرّف عليها. هتف سعود؛ أنا أتعرّف عليها! لقد كلّمتني. كرّر فيصل؛ نريدُ أن نراها الآن.

محافظة رجال ألمع. مركز شرطة حسوة

17 ذي الحجّة 1431

10:40 صباحًا

ها هو الباب يُفتح.

يصيح الشرطيّ في المرأتين للدخول. قلبك يثبُ من مكانه، تلتفت لتراهما عن كثب؛ امرأتان سوداوان، ضامرتان، مرضوضتان. تمتلئ نشوةً لا تفهمها؛ لقد أبرحتا ضربًا طوال الليل. تثبُ من مكانك يسبقك أخيك، تقفان مقابل المرأتين المسمّرتين على الجدار المحاذي، تختلسانِ إليك نظرات خائفة. تجتهد لكي يبوح وجهك بقرفك كلّه. تعبس بقدرِ اللعنات الطافحة في دمك. قوةٌ غريبة تنسكبُ فيك. يدٌ تشدّك إلى الوراء؛ كان مازن. لماذا لم تشعر بنفسك وأنت تندفع باتجاههما؟ سيب الموضوع لأخوك. يهمس في أُذنك، كأنه يعيدك إلى رشدك. يرى البروق تسطعُ في عينيك؛ أنفاسك المتلاحقة، ارتجافةُ أطرافك، هذه المرّة، بسبب جيشانِ الدم المغليّ في داخلك، جلدك يسخن وعضلاتك تنفر.

يقتربُ شقيقك من المرأتين، تحوّلت يدهُ إلى قبضة. يدنو من الأولى؛ ايش اسمك؟ تنكّس رأسها؛ هاتي. تتفحصها بعينيك؛ عينان جاحظتان، وجهٌ نحيل، شفتان رفيعتان مزقهما الصراخ. في زاوية فمِها جرحٌ طازج، عندما تتكلّم ترى أسنانها الناقصة. ينظر إليك سعود، يهزّ رأسه نفيًا. ليس صوتها. يدنو من الثانية، يسألها؛ وأنتِ؟

تشيحُ بعينيها وتردّ؛ أدانيا. ترى أسنانها المخضرّة، وحلقات التجاعيد الصغيرة التي انفرطت حول فمِها. كان لها وجهٌ يشبه الجوع. وجه جمجمة. ينظر شقيقك إليك؛ ولا هذه. لا تعرفُ كيف، انقذف جسدك كالسّهم ناحية المرأتين. تصرخ وأنت تهيلُ عليهما الضربات؛ تدرون منو أنا؟! تدرون منو أنا؟! قفز عليك مازن، وتكالب عليك ضابطان. مازن يصيح فيك؛ هدّي نفسك فيصل! ولكن السؤال يذبحك؛ تدرين منو أنا يا بنت الكلب؟! يخرج شقيقك عن طورهِ، يطعن إحداهما في بطنها بركبتِه، تنكفئ إلى الأمامِ ضامّة جسدها، يهرع شرطيٌّ لمنعِه، الضابط يصيح؛ خلّوهم. تطلقك الأيادي، تذهب إلى الأخرى وتركلها. تتكوّر بين قدميك. يتعالى الصراخ. الضابط ينهض من مكانه حاملاً هراوته؛ هذا أبو الولد اللي خذيتوه. تزمجرُ مردّدًا؛ أنا أبوه! أنا أبوه! والله ما أردِّه إن جا يذبحكم، يقول الضابط. ترى الذعر في وجهي المرأتينِ، تصيح فيهما؛ منو فيكم أخذت ولدي؟! منو؟! ناحت المرأتان بين قدميك؛ مش أنا، مش أنا، روينا هي اللي.. سعود يصرخ؛ وين روينا؟ ما نعرف! ما نعرف! سعود يصفع الوجهين. يعطيه الضابط هراوة، يلقيها. يريد أن يضرب بيده، يده جائعة. وين الولد؟! كانتا تتلوّيان من الألم، تنوحان، ترفعان أيديهما المقيّدة بالأصفادِ إلى وجهيهما؛ ما أعرف! ما أعرف! تقبض بيدك على عنق إحداهما، وتضربُ رأسها بالجدار؛ وين ولدي؟! مازن يصيحُ فيك؛ حتدبحها يا فيصل! جهنّم! سعود يصرخ؛ وين ولدي؟ الضابط يصرخ؛ فين الولد؟ مازن يصرخ؛ فين الولد؟ خبطت رأسها بالجدار، داخت، زاغت نظراتها؛ بصقت إلى وجهها، رأيت زبد فمك الأبيض يلتصق بجفنيها. تهاوت فسحبتها من كتفيها وسمّرتها

على الجدار. خرج صوتها مختنقًا؛ راحوا بعيد. تضغط على رقبتها أكثر، تزرقُّ وتسعل مرة بعد مرة. تزأر. وين راحوا؟ تراها تفتحُ فمها، ترخي يدك. عبروا البحر. قالت بالكاد، اختنق صوتها في النهاية. هل قالت بحر؟ صرخ سعود في وجهيهما؛ البحر؟ البحر! تهزان رأسيهما. متى؟ من أسبوع. بدأت إحداهما تبكي وترطنُ بلغتها، طلّعوها! صاحَ الضّابط. بقيت الأخرى محاصرة بينك وبين أخيك. قولي! صفعها سعود، صفعتها أنت، توالت الصفعات؛ قولي! قولي! أيّ بحر؟ لم تكن تفهم شيئًا، المرأة ظلت تردّد؛ البحر! البحر! جاء صوتُ مازن من طرف الغرفة؛ عبروا البحر على فين؟ سال خيطٌ من الدم من زاوية فمِها؛ راحوا سيناء. تعلّقت السواعد في الهواء، القبضات المضمومة انفرطت؛ شعرت بنفسك تسقط في حفرةٍ سحيقة؛ سيناء؟ قدماك تخوران، كأن عضلاتك قد ضمرت فجأة. ولدك في سيناء، وأنت هنا؟ زمجر سعود وهو يخبط رأس المرأة في الجدار، كأنّه لا يريد أن يصدّق. وضعت ذراعك بينهما تمنعه؛ لا تذبحها! سعود يصرخ. ما الذي تفعلونه بالأطفال في سيناء؟ ما أعرف! أمسك الهراوة وضربها ضربتين في بطنها. ما الذي تفعلونه بالأطفال في سيناء!؟ زمجر. تكوّمت المرأة على نفسها وأخذت تنشج. تكلمي! صاح الضابط. ما الذي تفعلونه بالأطفال في سيناء؟!

تحشرج صوتُها؛ نبيع أعضاءهم.

مستشفى أبها الخاص

17 ذي الحجّة 1431

2:05 مساءً

لم يكن يذكرُ الكثير. يذكرُ السطوع الباهر الذي غمرهُ فجأة، وصورٌ تفجّرت من مكانٍ سحيق؛ جثمانٌ أصفر، جفنين سوداوين، إحرامٌ أبيض، حجرٌ أسود، ساعدٌ مبتور، كفنٌ أبيض، قماشٌ أخضر. وملايين الحجّاج في الحرمِ يصلّون؛ الصلاة على الميّت يرحمكم الله. أراد أن يبلغ الجثمان، أن يحتضنه، وأن يكشفه. كان القماش يغطّي كل شيء؛ الجموعُ هدرت؛ اللهمَّ لا تحرِمنا أجره ولا تفتنّا بعده. فز من نومِه. إنه الكابوس نفسه. كان مازن إلى جانبِه، ينظر إلى وجهه بقلق، عيناه متعبتان.

جالت عيناه في المكان تبحثان عن سعود. صاحبه يسأله:

كيفك دحّين؟

لا توجدُ كلماتٌ قادرة على منحِ جواب لسؤالٍ كهذا. تفحّص المكان، رأى نهاية سريرهِ الأبيض، وعمودًا معدنيًّا علّقَ في طرفه كيس المحلول المغذي، وشاشة سوداء ترصدُ نبضات قلبه، وتقيس مستوى الأوكسيجين في دمِه.

أنا في مستشفى؟

أيوه، أغمى عليك.

- من متى؟

يعني صار لك ساعتين تقريبًا..

سعود وينه؟

رجع لمركز الشّرطة.

وسميّة؟ عرفت؟

لسّه.

فرّت دمعة من زاوية عينهِ، كان يحدّق في السّقف. لقد مات ولده. كان يظنُّ بأنَّ الأمر سيريحهُ، أن يموت ولده. لكن أن يموتُ مفتّتًا إلى أجزاء؟ أجهش وهو يضرب صدره بقبضته. يريدُ أن يشقَّ جسده نصفين من فرط الألم. نشج:

مشاري راح.

قبض مازن على ساعده:

مرَّه بدري تقول هادا الكلام.

صار لهم أسبوع.

يمكن إنّو حي.

صحيح. إما أن يكون قد مات، أو أنه سيموتُ قريبًا، سيقطّعونه إلى أجزاء، يبيعونه كالذبيحة، ثم يلقون ببقاياه إلى الكلاب. ستذهب أعضاؤه إلى أطفال آخرين. سوف ينتشر في كلّ العالم ولكنه لن يتمكن بعد من رؤيته ولمسه وشمه واحتضانه. في تلك اللحظة اعترتهُ التشنّجات، ارتعدَ جسده في اهتزازاتٍ مجنونة، حدّق في السقف بعينين شاخصتينِ. وثب مازن يثبّته من صدره على السرير مناديًا؛ دكتور! دكتور! هرع ثلاثة من الممرّضين إلى الغرفة، شدّوا جسده إلى السرير وحقنوا ساعدهُ بمهدّئ. غاب.

رأى نفسهُ يخوض في بحرٍ تطفو على سطحهِ الأذرع والسيقان،

رأى أعينًا وأكبادًا وقلوبًا طافحة على بحرٍ أحمر، بحر كأنه الدم. كان يبحث بين الأعضاء الطافية عن تلك التي تخصُّ ولـــده، إذا جمعهـــا سوف يسترجعُه. رأى رأسًا يلعب بها الموج، كأنها رأس مشاري. همَّ يلتقطها، أدارها إليه؛ رأى وجهًا أسمر دقيق الملامح، بشفتين رقيقتين وقرطين ذهبيين متدليين من أذنين جميلتين. فتح الوجهُ عينيه، صرخ، أسقطه من يده وأخذ يركض، استيقظ وهو يرفس في السّرير، يرفسُ ويلهث.

مستشفى أبها الخاص

17 ذي الحجّة 1431

3:14 مساءً

كان يرفس. تكوّم اللحافُ في آخر السرير وظهر عري ساقيه. فيصل! فيصل! فتح عينيه. كان سعود يربّت على خده برفق. أنفاسه تتلاحق. بمجرّد أن رأى شقيقه احتضنه ونشج. سمع شقيقه يهمس في أذنه.

شِد حيلك ياخوي، أبيك قويّ، أحتاجك قويّ.

مشاري راح!

لا ما راح، إن شا الله ما راح..

نظر إلى وجه أخيه غير مصدّق أنه ما زال متمسّكًا بهذا الأمل، الأمل المضحك، الهش، العنيد. إنه لن يصدّق موت مشاري ما لم يرَ جثمانه بعينيه. وهو لم يعد بوسعه أن يعيش في خديعة الأمل. لقد مر أسبوع على عبورهم البحر، ما مدى احتمالية ألا يكونوا قد قتلوه وقطّعوه وباعوا أعضاءه؟ هل قتلتَها؟ سأله. هل قتلتها بعد أن فقدتُ وعيي؟ هل فعلت؟ تمنّى من كلّ قلبه أن يكون قد فعل. قرّب إليه سعود كوبًا بلاستيكيًا؛ اشرب فيصل. أراق القليل على يده ومسح بها وجه أخيه:

اذكر الله فيصل، اذكر الله.

نظر إليه شاخِصًا. لقد كنّا نبحث عنه هنا في الوقتِ الذي غادر

فيه إلى سيناء. من يستطيع أن يرسم خرائط التيه هذه؟ أن تأتي إلى المكان الصحيح، في الوقت الخطأ، ما معنى ذلك؟ رفع رأسه عن الوسادة؛ قالت تجارة أعضاء، صح؟ هل سمعتها أنت أيضًا؟

هزَّ سعود رأسه غير مصدّق؛ كان يجب أن أعرف! نظر إليه مازن؛ ماذا تقصد؟ لقد قالت شيئا غريبًا في المكالمة، قالت إذا *بلغت الشرطة سوف أقطّع ولدك وأبيعه؛ قلب، كبد، عين.* لم أتصوّر للحظةٍ أنها تقصدُ الأمر حرفيًّا. ولكنّنا لم نبلّغ الشرطة! اعترض مازن. هذا صحيح، يبدو أن خلافًا قد نشب بين أفراد العصابة. استدعاني ضابط المباحث قبل ساعة ليطلعني على ما وصلوا إليه. قبل ستة أيام، عثرت قواربُ أمن السواحلِ على جثّة رجلٍ أفريقي طافية في البحر، في رأسهِ رصاصة. بحثوا أكثر في المنطقة، وجدوا امرأة جريحة على الشاطئ، امرأة أفريقية سمينة، مطعونة في بطنها، فقدت الكثير من الدّم. لم تعثر قوات الأمن على المسدس الذي قتل الرجل، ولا السكّين التي مزقت بطن المرأة. لم تكن السجلات تتضمن أية بيانات عن الاثنين. دفن الرّجل بسرعة، وأدخلت المرأة إلى المستشفى. كانت متورّمة في بطنها وفي أطرافها، جسدها يزخر بالكدمات. بعضها كان بسبب الضرب، وبعضها الآخر من شدّة النزيف. كانت خيوط الدم تسيلُ من فمها، وبطنها. لم تخرج من غيبوبتها منذ ستّة أيام، يقول الأطباء بأنَّ احتمالات نجاتها مُنخفضة.

هل هي المرأة التي أخذت مشاري؟ أومأ سعود؛ أخذوا المرأتين إلى المستشفى للتعرّف على المرأة. كلتاهما قالت بأنّها روينا، التي اختطفت الولد الأبيض. لا تعرف المرأتان شيئا عن اتصال روينا بنا، ولا عن الخلاف الذي نشب بين أفراد العصابة على الشاطئ. لقد

انتهى دورهما تقريبًا.

أغمض فيصل عينيه؛ امتلأ فجأة بوجهِ مريم. كان يبزغ من أعماقهِ، ويسبب له وخزاتٍ مؤلمة. سأل مازن؛ وماذا سنفعل الآن؟ السّفارة في القاهرة اتصلت بالحكومة المصرية، والمباحث في عسير تتواصل مع المباحث في مصر لنقل الملف، حتى يتسنى لها التحقيق في أمرِ مشاري.

اغرورقت عيناه وهو يسمعُ ذلك الاسم. ضغطت يدُ أخيه على كتفهِ؛ أريدك أن تنهض الآن، أن تذهب إلى الفندق وتعدَّ حقيبة صغيرة، سوف نسافر في أقرب فرصة.

أما. شقق الرّاحة

17 ذي الحجّة 1431

8:15 مساءً

فتح سعود باب الشقّة، دخلا. كانت سميّة في غرفتها، على سجّادها الخضراء، والمصحف بين كفّيها. تناهى إليه صوتُ ترتيلها الدافئ لسورة الرّحمن، اغرورقت عيناه؛ هل يخبرها؟ لم يقدِر، كيف يخبرها بأن ولدها أُخِذ إلى سيناء من أجل قتله وتقطيعه وبيعِ أعضائه في المستشفيات وكليّات الطب؟ أحس بدوار، أمسكه أخوه: استريح فيصل. أردف؛ ليس مطلوبًا منك أن تفعل أي شيء، أنا أتصرّف.

اقترب سعود من غرفة نومِهما، طرق الباب نصف الموارب؛ أم مشاري. دقائق وخرجت، متسربلة بعباءتها وحجابها الأسود، المصحف بين يديها. سألت وجلة:

فيه أخبار؟

حيّاك الصالة.

اكتسى وجهها بالخوف.

خير؟

تعالي سميّة قعدي شوي.

خطت متردّدة إلى أريكة غرفة الجلوس، جلست على المقعد المحاذي لزوجها، تجولُ بنظراتها بين الأخوين.

- لقيتوه؟

اتسعت عيناه؛ يا ليقينك العجيب سميّة. عندما سمع لأوّل مـــرة عن أخبارٍ عن ولده، كان أول فكّر فيه أنه قد مات. امرأته تسأل عنه حيًّا، كانت متأكدة من نجاتِه. من أين لها كل هذه الثقة؟ هزّ ســـعود رأسه؛ حدثت بعض المستجدّات سمية. نعرفُ الآن أن الخاطفين عبروا البحر الأحمر باتجاه سيناء. اتسعت حدقتاها؛ سيناء؟ لماذا سيناء؟ رفع سعود كتفيه؛ لا ندري. هرب بؤبؤاه يمينًا. زمّت شفتيها؛ ما الـــذي تخفونه عني؟ لا شيء. أنا أمّه ومن حقي أعرف. أعرف بأنّكِ أمـــه سمية، لهذا نبلغك بما نعرفه. لماذا تحكُّ جبينك؟ اللعنة سميّة، هل أنـــتِ محقّق في مخفر؟ إنك تزدرد ريقك. عطشان. ألا تخفي عنّي شيئا؟ لا سَعَل؛ لا شيء.

نظرت إلى فيصل غير مصدّقة. لم ينبس بكلمة منذ عودته. ما بك؟ ما بهِ فيصل؟ افتعل سعود ابتسامة؛ لا شيء، إنه متعبٌ فقط، لقد قضينا وقتًا عصيبًا في المخفر. كانت تمسحه بنظراتها؛ ماذا حلّ بك؟ قُـــل. أراد أن يتكلّم، قاطعها سعود؛ اسمعيني سميّة، سوف نسافر أنـــا وفيصـــل إلى سيناء، هل يمكنكِ إعداد حقيبة بسرعة؟ مازن ينتظرنا تحـــت. هـــزت رأسها؛ طبعًا. ثمّ أردفت؛ سآتي معكما. لا سميّة. نحتاج أن تبقي هنـــا. ارتفع حاجباها؛ لماذا أبقى هنا، وولدي في سيناء؟ فتح فيصل فمه أخيرًا:

ردّي الكويت سميّة.

إذا ردّ لي ولدي أردّ الكويت.

اعترض سعود:

لا ما ترِد. سميّة تظل بعسير.

نظر إليه شقيقه شزرًا. جادله؛ الأفضل أن تبقى سمية هنا تحسّـــبًا لاستيقاظ روينا. من روينا؟ بوسعِ مازن الاهتمام بالأمر، فلتعد هي،

لا معنىَ لوجودها وحيدة في عسير. عادت تسأل؛ من روينا؟ أجابها سعود؛ إنها الخاطفة، إنها غائبة عن الوعي في المستشفى، إذا استيقظت سوف نعرف منها المزيد عما حدث لمشاري. عاود فيصل القول؛ بوسع مازن أن يهتمّ بذلك، الأفضل لسميّة أن تعود. تمتم سعود؛ بصدق، أنا أستحي أن أطلب من مازن أمرًا كهذا، وهو لم ير أسرته منذ عشرة أيّام، الرجل لم يقصّر، ويجب أن نكمل البحث من دونه الآن. على الأقل فليأتِ أحدٌ من أهلها للبقاء معها. هزّت رأسها؛ لا لا أريد رؤية أحد. كيف تتدبّرين أمركِ من دون رجل؟ غمغمت؛ الله ما ينسى عبيده. نهضت من مكانها؛ لن أعود إلى الكويت إلا بعودة ولدي. غابت في الغرفة. أين تذهبين؟ جاءهُ صوتها من خلف الباب نصفِ الموارب؛ سأعدّ حقيبة فيصل.

الفصل العاشِر

جَزير

يومٌ حادي عشر

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

6:15 صباحًا

رن جرسُ المنبّه طويلاً دون أن يسمعه.

عندما فتح عينيه كانت أشعة الشَّمسِ تتسلل من النافذة العلوية. كيف نام هكذا؟ هوى بيدِه على المنبّه وأخمده. صداعٌ غريبٌ يتركّز في جبينه، وألمٌ أسفل ظهرِه. شعر بالغضب بسبب النور الذي يخترقُ عتمة المكان؛ هل حلَّ يومٌ جديد بالفعل؟ إنّه يــوم زرع الــذرة. في الحقيقة، كان يفترض أن يزرع الذرة بالأمس، ولكنه لم يفعــل. لا يدري ما الذي اعتراه، أشرقت الشمس ولما يصلِّ الفجر بعد. لم يعد جسدهُ يوقظه، كأنه فقد التناغم بينه وبين الأرض.

سحب نفسًا عميقا، اعتدل جالسًا. نظر إلى الصغير الذي ينــام مقيّد اليدين والقدمين على يمينه. لقد قضى الليلة في الصــراخ حــتى اضطر أن يحشو فمه بإسفنجة. امتلأ وجهه بنمشٍ أحمرٍ غريب. مرّرَ عينيه على الكدمات الزرقاء التي تتزاحم على ساعديهِ وساقيه. كــان عاريًا بالكامل، وقد نتأت عظامُ ظهره المقوّس، بعد أن نام ملتفًّا على نفسهِ، مثل حلزونٍ دبِق.

لم يتصوّر أنّ الأمر سيكون بهذه الصعوبة. كانت ليلة كرٌّ وفر، ركَض وتقافز في المكان. بصق، صرخ، قـذف الأشـياء وأحـدث فوضى اضطرّته أن يقيّده وأن يكمّم فمه حتى يرتّـب المكـان. في النهاية، حتى هو، عندما فرغ من حاجتهِ، نام متكدّر الخاطر. لم يكن يحبُّ أن يضربه، ولا أن يقيّده، ولكنّه لم يترك أمامه خيارًا آخر.

ذهب إلى الحمّام، فتح الدّش، انهمرت عليه المياهُ الباردة، رفـع رأسه لتسيل على جبينه وكتفيه. حاول بالأمسِ أن يحمّم الصغير، لم يستحمّ منذ مجيئه، الصبيُّ القذر! ولكنّه أخـذ يـركض في المكـان ويبكي. عندما قبض عليه، مدّده على الأرض لكي يخلع عنه ثوبـه، ثوبه الوسخ الذي لم يغيّرهُ منذ أسبوع، تمسّك الأحمق الصغير بثيابـهِ حتى تمزّقت. سحلهُ إلى الحمّام بصعوبةٍ وهو يصيح فيه؛ أنت قـذر! تحتاج إلى حمّام، رائحتك نتنة! ولكنّ الصغير لم يكن يسـمع، هـو متأكد بأن الصبي بات يحفظ بعض الكلمات، ويفهم، تقريبًا، كل ما يقولُه، ولكنّه ولدٌ عنيد، غبيٌّ جدًا، لا يعرفُ مصلحته.

أراد أن يحمّمه على نحوٍ جيّد، أن يدعك جلده بصابونة لوكس الزهرية، ويغسل شعره بالشامبو مرّتين، أن يدهن جسده بكريم نيڤيا أيضًا. لديه بودرة تيلك معطّرة، كان بوده أن يضعها علـى بطـنِ الصغير، مؤخرته وإبطيه، أراد أن يدلّله وأن.. أن يداعبه، وأن يقضيا وقتًا جميلاً، تحت الماء، كلٌّ يصوبنُ الآخر. ولكن الأحمق الصغير يحوّل كل شيء إلى معركة، حتى اضطرّ أن يمسكُ برشّاش المياه على مبعدةٍ منه ويكيل عليه الماء البارد. صار الصغير يشهق بعـد أن تكـوّر في زاوية الحمام. لم يستطع غسل شعرِهِ، ولا دعك جسدِهِ، ولا لمسـهِ حتى. انسلّ خارج الحمّام، وأخذ يصرخ فيه ويقذف القدور والملاعق

والمساند. ثم أمسك بالسفرطاس وسكب الأرز والمسالا على الأرض، وسّخ ساقيهِ وقدميهِ وأصابع يديه. كان عليه أن يؤدّبه. كان عليهِ أن يريه بأن ما فعله غير مقبول، وأنه لا يستطيع التصرّف هكذا، مثل قردٍ صغير؛ انظر ماذا فعلت! انظر ماذا فعلت! من سيقوم بترتيب كل هذه الفوضى الآن؟ انتزع حزامه الجلديّ من وسطهِ وهوى به عليه. تلوّن جسد الصغير ببقعٍ زرقاء حزينة. تكوّر على نفسهِ ويداه على رأسهِ، كان يصرخ فيه؛ ولدٌ سيّء، ولدٌ سيّء! وكانت رؤية الحزام وهو يلسعُ طراوة اللحمِ العاري تجعل الدماء تتدفّق بسرعة في شرايينه. سرت كهرباء مفاجئة في جسده، ألقى الحزام من يدِه، أسرع إلى الحمّام وأقفل الباب.

تركهُ عاريًا. كان قد مزَّق ثوبه على أيةِ حال، ولا يوجد معنى لغسلِ ثوب ممزّق. التفَّ الصغير باللحافِ، واندس بين المساند. فكَّر بأنَّ الأمر قد يكون أفضل هكذا، أن يتركه عاريًا، يتقافز هنا وهناك، مثل عُصفورٍ منتوف. سوف يشتري له ملابس جديدة في النهاية، فهو لا يريدُه أن يمرض، ولكن لا مانع من إبقائهِ هكذا لبعض الوقت.

كلّ ليلة تصبحُ مقاربته أصعب. لقد حدث الأمر بشكلٍ جيّدٍ في المرّة الأولى، عندما لم يكن الصبي يدرك شيئا مما يحدث، ولكن الآن. إنه يبقى مستيقظًا ويحشُر نفسه في الزاوية، يركض ويجأر، يضطرُّ لربطهِ ويدفن رأسهِ بالوسادة ويكمِّم فمه. لا يريد أن يضطر إلى القسوةِ معه، ليس هذا ما تخيّله تمامًا. ولكنّه مع ذلك يحس بتلك الكهرباء الغريبة، يعجبه الأمر ويخيفه.

خرج من الحمّام يتأزّر بالمنشفة. ارتدى بنطلونه على عجلٍ، يمَّمَ شطر لوحةِ الكعبةِ وقضى ركعتيّ الفجر لم يصلِّ الضّحى. عندما

فرغ من صلاتِه التفت إلى الصغير، كان فمهُ يصطكّ وذقنه ترتعش. صاح فجأة في نومِه، بكلمة عربية غريبة. لم يفهم. غطّاه بغطاء سريرِه، بعد أن فكّ حبل النايلون الأزرق عن يديه وقدميه.

سوف يتركه وحدهُ الآن، ويعود إليه بعد ستٍّ أو سبعِ ساعات. وحتى ذلك الحين، سوف يفكّر في أمرِه. فتح الباب المعدنيّ وغادَر. صر الباب وهو يعاود إغلاقه، إقفاله بالمفتاح. دسَّ المفتاح في أَصيصِ نبتة صبّارٍ قريبة، ويمّم باتجاه غرفةِ المؤن.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

9:40 صباحًا

أيقظهُ امتلاء مثانتِه. فتح عينيه وأحس بصمتِ المكان، اطمأن. لقد خرج الغريب. اعتدل جالسًا، بصعوبة، يتملـى عريـهِ المبقـع بالكدماتِ، كانت اللطخات الزرقاء تؤلمه، وكان قلبه يؤلمه أيضًا.

رأى أنّ الرجل قد فكّ وثاقه. نهض وهو يئن مـن الجـرحِ في داخله. وقف أمام المرحاض ليتبوّل، وهو يرى البقع الزرقاء والحمراء تنتشر حول عضوه. كان هناك دمٌ ينـز من مؤخرته. يؤلمهُ أن يتبوّل، ولكن التبرّز يرعبُه. قبل يومين أحضر الرَّجل زجاجة زرقاء، وبلّل بها قطنة صغيرة، وطاردُه بها في الغرفة، وفي النهاية قيّد قدميـه ويديـه، وتركه ممدّدًا على بطنه، ومسح بها على جرحه. لقد جعله يصرخ.

مشى يباعد بين ساقيه باتجاه الدولاب. فتّش عن شيءٍ يستطيع ارتداءه، كل الملابس كبيرة. ارتدى فنيلة قطنية بيضاء بعلّاقين. تصلُ إلى منتصفِ ساقيه. كان يتضوّرُ من الجوع، فتح الإنـاء النحاسـي وأكل لقمتين من عجينة الموز. جاشت معدته واغرورقت عيناه.

سوف تمضي ساعاتٌ طويلة حتى يعود الرّجل، وبمجرّد أن يعود سوف يعود الألم. حمل المساند ورصّها فوق بعضها بعضًا ثم صـعد عليها، تشبّث بلسان النافذة العلوية وأطلّ على الحقل. رأى الرّجـل يمسك خرطوم المياه ويسقي أشجاره. جالت عيناهُ في المكان؛ هنـاك

غرفٌ عديدة، متراصّة، على جانب الحقل. ألا يسكنُ بها أحد؟ أخذ ينادي؛ هيه! هيه! هيه! التفت الرّجل ناحِيته، صاح فيه؛ چِپ! كان يفهم هذه الكلمة، نــزل بسرعةٍ من المساند، والجـــرحُ في أعماقــهِ يكويه. صار يئنُّ وهو يعيد ترتيب المساند ورصّها على شكلِ جدار؛ الخندق الذي يصنعه كلّ يوم، لكي يختبئ خلفه، وفي نهايةِ الأمر يأتي الرّجل، مثل الذئب في الحكاية. بلمسةٍ واحدةٍ من يده يهدّ الجدار، ثمّ يأخذهُ إلى فرشته الإسفنجية ويؤلمه.

فكّر بأنه يحتاج إلى سكّين. ولكنّ الرجل أخذ كل الســكاكين معه قبل أربعة أيام، عندما رأى واحدةً بيده، ضرب ذراعــه بخشــبة المكنسة، وسقطت السكّين، وصارت على ساعدِه لطخة سوداء.

عندما انتهى من صناعة خندقه تمدّد على بطنه، إنهـــا الطريقـــة الوحيدة التي يستطيع النوم فيها الآن. الجلوس يوجع. دفـــن عينيـــه بساعدِه وأغمض، فكّر في أشياء بعيدة، في اليوم الذي سهر فيه مـــع عمّه للتفرج على فيلم باتمان، الجزء الثاني منه. كان الجوكر يرعبـــه. تذكّر كرستيان بيل، سيارته الرائعة، وعاء الفشار، غطـــاء الســـرير الكحلي المريح. لم يتذكّر وجه عمّه. كانت الوجوه تبتعد وتغطّيهـــا لطخة بيضاء غريبة، كان يتذكّر من أبيه الشعر الذي يمتلئ به صدره، ومن أمّه رائحة دهن العود، ولكن الوجوه، أين ذهبت الوجوه؟ لماذا تختفي الوجوه كالأحلام؟

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

2:50 مساءً

لم يعد يحسُّ بملمس التربةِ بين أصابعهِ.

ما الذي حدث لي؟ أمسك بقبضةٍ منها وفركها بيديه، شمّها، ثم قذف بها أمامه. إنّه مجرّد تراب، بالأمس لم يكن كذلك. ماذا حدث ليَدي؟ لقد انتهى من زرع نصف الحقل بالذّرة الرفيعة، ومع ذلك يكادُ لا يتذكّر شيئا مما فعله في الساعات الماضية، كان يعملُ كالمنوّم، أصابعه اشتغلت من ذاكرتها الخاصة، وركض عقله بعيدًا. حاول أن يسترجع ملمس البذور وبرودة الماء ورائحة الأرض؛ لا شيء. ما الذي حدث؟ تساءل وهو يرفع عينيهِ إلى السماء الزَّرقاء الشاحبة، زفر؛ لقد لعنني هذا الشيطان.

أطبق الضيق على صدرهِ، جلس عند حافّة الحقل، سابحًا في العرق، يتأمّل المكان. حاول أن يسترجع إحساسه بالحقل والجبال ورائحة الملح في الهواء. كأن حواسّه انطفأت، والأرض لم تعد تكلّمه. كلّ المتعة التي كان يجدها في الزراعة تبدّدت، وصار الشيء الوحيد الذي يستحوذُ على حواسِّهِ هو.. ترى، أين أخطأت؟ تساءلَ وهو ينهض من مكانه، باتجاه شجرتي المانجا. كانت هناك ثمرة ناضجة تتدلّى من غصنٍ رطيب. أمسكها براحتيهِ وشمّها؛ لقد نضجت أخيرًا. وجد نفسه يبتسم.

قطفها وصارَ يتشمّم عبقها ويمسح بها وجهه؛ الثمرة التي انتظرها طويلاً، إنها جاهزة. انتابه خاطرٌ مطمئن، بأن كل الثمار سوف تنضج في النهاية. يجب ألا يفقد المزارعُ البارع صبره أبدًا. فكّر، وهو يرسل عينيهِ ناحية النافذة في غرفته؛ لم يعد الصغير يراقبُه. أرادَ أن يقضم الثمرة، ولكنّه تراجع في اللحظة الأخيرة. سوف يأكلها، طبعًا، ولكنه لن يفعل ذلك هنا. سوف يأكلها في الداخل، أمام الصغير، ويجعل ريقه يسيل.

ابتسم؛ لماذا لم يفكّر بالأمر قبل اللحظة؟ صار يعرفُ أين أخطأ. لقد أفسد الصغير بتدليله له، كان يطعمه ويحمّمه ويحنو عليه، حتى أنّه حاول أن يطبّب جرحه! صحيحٌ أنه قسى عليهِ أحيانًا، ولكنه كان لطيفا أكثر. هؤلاء الصغار الملاعين، إنهم يفهمون الحنان ضعفا. وجد نفسه يقهقه لهذه الفكرة، هز رأسه غير مصدّق أن الأمر فاته؛ يعتقدُ هذا الشيطان الصغير بأنني ضعيف، قد أكون رقيق القلب، ولكن بإمكان رقة القلب أن تنتظر. سوف يعرف هذا الملعون من منّا السيّد، ومن الخادم. أحس بهياجٍ غريبٍ في جسده؛ يجب أن يخاف، أن يخاف أكثر، إلى الحدّ الذي يجعله يفعل كل ما أطلبه منه. وفكّر في المتع اللذيذة التي يمكن أن يمنحها له هذا الصغير لو أنّه لبى له رغباته الصغيرة، غير المؤذية. لو أنّه أصبح مطواعًا أكثر وكفّ عن الرّفس والصراخ. كانت الخيالات تتدفّق في رأسه بشكلٍ لا يرحم، وأحس برغبةٍ عارمةٍ في العودةِ إلى الغرفة، فورًا.

سار جذلا وهو يصفر لحنًا سعيدًا، يقذفُ ثمرة المانجا في الهواء ويتلقّفها. لقد توصّل إلى ما ينبغي فعله؛ سوف يحرمُ الصغير من الأكل، الأكل مقابل الحُب! إمّا أن يرضخ هذا الملعون، ويكفّ عن الركل والبصق في وجهه، أو أنّه سيجوع، سيجوع كثيرًا.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

3:50 مساءً

كان الصبي مختبئا خلف جدار المساندِ عندما عاد إلى الغرفة. ضحك عندما رآه، الوغد الصغير، مرتديًا فنيلته البيضاء الداخلية، كانت تبدو كفستانٍ قطنيٍّ خفيف، وتشفُّ عن ساقيهِ المسكينتين.

ومثل كلّ يوم، كان بالكاد يلمس الجدار حتى يتهاوى على رأس الصغير. كانت هذه اللعبة تضحكه، رغم أن الصغير يبكي ويلتصق بالجدارِ. كانت رؤيته مرتعبًا وملتصقًا بالجدار تدوّخه، ولكنّه هذه المرّة قرر أن يتريّث. بدأ الصغير في صراخه مردّدًا الكلمة الوحيدة التي يجيدها؛ چپ! چپ! قهقهَ؛ متى ستتعلم كلمة أخرى؟ قال له تعال هنا؛ إدهر آو. الكلمة التي يقولها دائمًا وهو يطبطب على الوسادة؛ تعال إلى الفراش يا ولد. سالت خيوط البولِ على ساقيه وشكّلت بقعة بين قدميه. كان بولهُ مشوبًا بالدّم. تكرّر الأمر كثيرًا، كلما قال له إدهر آو، تبوّل على نفسه. ولدٌ قذر! تركه وجلس متكئًا إلى الجدارِ، ينظر إليه بطرفِ عينه، وهو يخرج من جيبه ثمرة المانجا الناضجة.

رفع يدهُ عاليًا؛ إنها لذيذة جدًا، هل تريدها؟ رقّص حاجبيه؛ آو! كان الصّغير يقطّب حاجبيه وينظر إليه شزرًا، وقد أحاط ساقيه المطوّيتين بذراعيهِ، دافنا نصف وجهه خلف ركبتيه. تمايل في جلستهِ

عدّة مرات قبل أن يتمدّد على بطنه. ابتسم؛ هل تؤلمك؟ لن يؤلمك لو أنك كففتَ عن التصرّف كالقرود. بالمناسبة، عندي دواء، ولكنني لن أركض وراءك. تعال إذا أردت. قال وهو يومئ بذقنه إلى زجاجة الكحول على رفّ دولابه. رفع حاجبًا واحدًا؛ ألن تأتي؟

نتف بأسنانهِ نتفةً من جلدِ المانجا، بصقه جانبًا، ثم سلخ عنها غشاءها كاشفًا عن باطنها الأصفر اللحيم، المتدفق بالعصائر. هذه ليست لك، إنها لي. قال، ثم عض على الثمرة بنواجذهِ، سال ماؤها داخله ممتزجًا بريقه. اتسعت حدقتاه؛ إنّها حامضة! كأنه لا يصدّق الأمر؛ كيف أخطأ في أمرٍ كهذا؟ لقد شمّ عبقها، لمس بشرتها، تفحّص لونها، لقد انتظرها مدّة كافية! كان متأكدًّا من أنها ناضجة! قطّب حاجبيه وقذف بالثمرةِ في زاوية الغرفة، بصق اللقمة من فمِه؛ من العار أن يأكل المزارع ثمرة غير ناضجة، من العار أن يخطئ المزارعُ في أمرٍ كهذا! تأمّل في أصابعهِ ذاهلاً؛ ما الذي اعتراني؟ ثم صار يرمق الصبي بعينين حانقتين؛ كلّ هذا بسببك! أيها الشيطان الصغير! لقد أفسدتَ كلّ شيء! كل شيء! لم يبدُ على الصبيِّ أنه فهم، ولكنه مع ذلك بادله الصراخ مردّدًا؛ چپ! چپ! صاح نظام؛ چپ هوجاو! قردٌ ملعون!

نهض مسرعًا وغادر المكان. صفق الباب بعنفٍ فتردّد دويّه المعدني في القفر. صار يلهث، أمام حقله، ممتلئًا بالذعر. إذا كان عاجزًا عن تمييز الثمرة الناضجة من الثمرة الحامضة، فكيف سيحصد الدخن؟ كيف سيقطف السنابل؟ كيف سيحزم القصب؟ كيف سيجفف العرانيس؟ كيف سيصفّي الحبوب؟ كيف سيقوم بأي شيء، كل شيء، وقد فقد هذا الشيء الوحيد الذي يملكه؛ إحساسه؟

نظر إلى الأرضِ، كانت سيقان الدّخن قد بدأت تخترقُ سطح التربة وتبزغ إلى فوق. كيف سيعتني بها؟ لقد لعنه هذا الشيطان الصغير، لقد لوّثه ولعنه! غطّى وجهه بكفّيهِ، كانت راحتاه دبقتانِ بماء المانجا الحامض، امتلأ فجأة بذكرى سيّده الراحل، وملأهُ الخزي.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

7:30 مساءً

بمجرّد أن غادر الرّجل، هرع الصبيّ إلى ثمرة المانجا المرميّة في الزاوية. عضّها بأسنانهِ وقفل عائدًا إلى مكانه ليعيد بناء خندقه. ترى ما الذي أغضبه؟ كانت حامضة، ولكنّه مع ذلك أحبّها. الجوعُ يقرصُه. لم يجلب الرّجل غداء جديدًا اليوم، وكان قد قضى على البقايا البائتة في قاع قدور النّحاس، لعقها حتى آخر حبة أرز، وآخر نتفة عصيدة. لقد حلّ الظلام في الخارج ولم يحصل على غدائهِ بعد.

أكل المانجا الحامضة ومصمَص النواة حتى انتصبَ وبرُ عظمها، ألقى بها بعيدًا، توجّه ناحية الثلاجة. كانت فارغة. لقد أكل كل الفجل وكل الخيار وكل الطماطم. لم يملأها الرّجل بالخضار، لم يقطف شيئًا من الحقل منذ الأمس، لم يحضر بيضًا، ولم يأتِ ليأكل ويضع له الغداء. ترى، ألم يأكل؟

حاول أن ينسى جوعه، تمدّد على بطنهِ وأغمض عينيه. حاول جاهدًا أن يتذكر الوجوه التي غابت، ثم التقط أنفه خيط رائحةٍ زكيّة؛ بصلٌ وزيت. الرجل يطبخ إذن، وسيجيء بعد قليل ويحضر له الطعام. رص المساند فوق بعضها البعض، صعد وهو يئنٌّ من الألم وسالت قطراتُ دمٍ بين فخذيه. وقف متشبّثا بطرف النافذة، رأى اللمبات مضاءة في إحدى الغرفِ المطلّة على الحقل، كان ظل الرّجل

يروح ويجيء. كان يطبخ الغداء رغم أن الليل قد حَل. سال ريقه. رغم الألم الذي يندح في جسدهِ، ظل متشبّثا بقضبان النافذة، واقفا على أطراف أصابعه، يلاحق الظل بعينين جائعتين.

فتح الباب. خرج الرَّجل وجلس على الدّكة، بين يديه إناءٌ مليء بالطعام. تساءل؛ ماذا يأكل؟ خبز منقوعٌ في المرق على ما يبدو، تساءل إن كان في الإناء بعض اللحم. سال لعابهُ وهو يرى الرجل يمضغ طعامه ويقلب لسانه في فمِه، اتسعت عيناه عندما رآه يمصمص فخذ دجاجة. خلال دقائق، امتلأ المكان بالقطط، تحلّقت حول الغريب وصارت تموء. عندما فرغ من مصمصة العظم ألقى بهِ إليها. وجد نفسهُ يتلمّظ؛ ترى لماذا لا يدخل ويأكل في الغرفة؟ في تلك اللحظة، وكأنما عرف الرّجل بأمر وجوده، رفع عينيه صوبه وحيّاه. سأله؛ هوكا؟ أرادَ أن ينزل ويختبئ بين المساند، ولكن الجوع شلّه. صاح؛ يوعان! يوعان! ابتسم الرّجل وردد وراءه ساخرًا؛ يوعان! يوعان! حاول أن يتذكّر ما كان يقوله له عندما يجلب له الطعام؛ كهاو. رفع صوته بالصراخ؛ كهاو! كهاو! قهقه الرّجل وضرب بيدهِ على ركبتِه. ثمّ أخرج من الإناء قطعة لحم، وألقى بها للقطط. تكالبت القطط وتعالى مواؤها في الفضاء، اقتتلت اثنتان في اللحظة التي قبضت فيها الثالثة على قطعة الدجاج وفرّت بعيدًا، تبعتها بقيّة القطط وظل هو يردّد؛ كهاو! كهاو!

ارتفع حاجبُ الرّجل، برطم بكلماتٍ غريبة، ولكنّه هزّ رأسه موافقًا من فورِه. ابتسم الرّجل راضيًا، عاد إلى المطبخ، فأخذ يناديه؛ نظام! يوعان! كهاو! نظام! شدّ قضبان النافذة بيديهِ، يحاول خلعها. كان يبكي.

عاد الرجل بعد دقيقة، ومعه إناءٌ آخر، ممتلئ بـــالخبز والمـــرق وقطع الدجاج. رفع له الإناء وصار يرطن. هزّ رأسه دون أن يفهم؛ نعم، نعم، أريد أن آكل، أريد أن آكل.

الابتسامة التي ارتسمت على وجه الرّجل جعلت قلبه يهوي.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

18 ذي الحجّة 1431

9:42 مساءً

كان الصغير ينتظرُه، واقفا خلف جدارِ الوسائد، يمدُّ يدهُ من خلال إحدى الفروج، يريد أن يلتقط منه الإناء.

هل هذا ما ظنّه فعلاً؟ ضحك. جلس متكئا على الجدار ووضع الإناء أمامه. فتح الغطاء الفخّاري، فانتشر البخارُ في الهواء، وتضوَّعت في المكان رائحة المرق.

ردّد الصغير من وراء جدارِه؛ كهاو! هزّ له رأسهُ؛ آو. يعرف الصغير جيّدا ما تعنيهِ هذه الكلمة. طبطب بيدِه على المكان على يمينهِ؛ إدهر آو. صارت عينا الصغير تجولان؛ مثل قرد تائه يريد أن يأخذ الطبق ويعود إلى قفصهِ المضحك. أعاد تغطية الإناء وهمّ ليغادر. صاح الصغير؛ كهاو! كهاو! كان مذعورًا. أشار بسبّابته إلى المكان الذي سيجلسُ فيه؛ آو.

تلكأ قبل أن يغادر مخبأه، سار بساقين مرتجفتين، متباعدتين، أطلق أنّةً وهو يجلس في المكان الذي حدّده له. رأى على الأرضِ قطرات دم. ولدٌ شاطر، ها قد صرت تسمع الكلام. نظر إليه الصغير بوجهه النّحيل الذي تملؤه القروح، خرج صوته متوسّلا؛ كهاو نظام. أومأ؛ حسنًا، لأنك تصرّفت بشكلٍ جيّد، سوف تحصل على الطعام. لم يبدُ على الصبي أنه فهم، كانت عيناه مثبّتتين على الإناء الفخاريّ، وقد دوّخته الرائحة.

جلس قبالته، وضع الإناء بينهما وفتح الغطاء، تصاعد البخار دافئًا. هجم الصبي بيديهِ على الطعام، ضربه على ظاهر يدِه ليؤدّبه. سحب يديهِ بذعرٍ، ثم مدَّ يُمناه على مهلٍ، وهو ينظر إليه. بسم الله. ذكّره. بسم الله. قال الصبي. أعطاهُ إشارةَ الموافقة، أكل الصبيّ لقمة واحدة ثمّ عاود تغطية الإناء. بس! قالها بحزم. قبض الصبيُّ على الإناء بيديه الملطّختين بالمرق؛ لا! لا! كهاو، نظام، كهاو! ارتفع حاجبهُ الأيمن يسأله؛ زيادة؟ هزّ الصبي رأسه. لقد فهم هذه الكلمة. نهض من مكانه حاملاً الإناء، تعلّق الصبيُّ بساقيهِ. دفعه عنه، شغّل الفيلم؛ كارينا كابور ترقص بتنورتها الخضراء المذهبة. تهتز مثل أفعى ملساء. تبدّلت ملامح الصبي؛ كان يعرف ما الذي يعنيه حضور كارينا كابور إلى الغرفة. هز رأسه؛ هذا صحيح، أنت تفهم ما يعنيه ذلك. عاد إلى فرشته الإسفنجيّة حاملاً الإناء، تمدّد على ظهره وباعد ما بين ساقيه. وضع الإناء بين فخذيه وطبطب عليه؛ كهاو. سال خيطانِ أحمرانِ من البول على ساقيّ الصغير؛ هرع يختبئ خلف جدار وسائده. كان يرتجف.

هذه المرّة لن يركض وراءه، لن يضربه، لن يقيّد أطرافه. سوف يفتحُ غطاء القدر ويترك للرائحة أن تفعل فعلها. إذا كان يريد أن يأكل، ولا بدّ له أن يأكل، فسيكون عليه أن يأتي إليه، وأن يفعل له ما يريد.

تركه يتضوّر من الجوع، وراح يغمس إصبعه في الإناء ويلعقهُ مرارًا، فيم أخذت عيناه تراقصان كارينا كابور. كان متأكدًا من أنه أجدر من سلمان خان بمشاركتها الرقص، وكان يجدُ القميص الأحمر لسلمان خان سخيفًا جدًا. أحس بكدرِ النهار يتبدّد مع الطعام

والموسيقى؛ في الجزء الثاني من الرقصة، المفضّل عنده، كانت ترتدي كولتا بيجاما بيضاء رقيقة تشفّ عن جسدها، وصارت يدها تمسح على جذعها صعودًا ونزولاً حتى جعلت جسده يتصلّب.

فكّر بأنّ الصغير قد صمدَ أطول مما ينبغي. التفت نحوه، كان ينظر إليه بحنق؛ استخرج فخذ دجاجة وأكله. أشاح الصبيُّ بعينيه. ليس مستعدًّا لدفع ثمن الطعام بعد. لا بأس، سوف ينتظر، كارينا كابور أطلقت شعرها ثانية، وصارت ترتدي تنورة خضراء مذهبة، وبلوزة بنفسجية لامعة تغطّي نهديها وجزءاً من كتفيها الجميلين. راحت تراقص يديها الصغيرتين في الهواء، أظافرها مطلية بالأحمر الصريح؛ الأحمر الذي سال على ساق الصبيّ، الأحمر الذي يحبُّه.

يومٌ ثالث عشر

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

20 ذي الحجّة 1431

6:03 مساءً

لم يأكل الصبي شيئا منذ ثلاثة أيام، لقد ذبُل ونحل. نتأت عظام صدرِه، وفقرات ظهره. جحظت عيناه بعد أن اسودَّ محجراه. لقد سقط في الحمّى للمرّة الثانية، ولا يبدو أن في نيّته الخروج منها.

إنه يقلقه. ينظرُ إليهِ كل ليلة أثناء نومه ويتساءل؛ هل سيموت؟ لم يكن في نيّته أن يقتله، أراد أن يروّضه فحسب. كان يعرف بأنه من الصعب عليه أن يحتفظ به إلى الأبد، ولكنه ليس مستعدًّا بعد للتخلّي عنه.

عندما عاد من الحقل حاملاً الإناء الفخاريّ الذي يعبقُ بعجين الموز الدافئ، كان الصَّغير لا يزال نائمًا، وقد تجمّع الزبد الأبيض في زاويتي فمه. هزّ كتفيه؛ قم يا ولد، ألن تأكل؟ كان يريد للصغير أن يأكل، حتى لو لم يدفع له ثمن الطعام. انهض! كُل! كهاو! لقد أحضرتُ لك عجينة الموز. فتح غطاء الإناء وقرّبه من أنفِ الصغير؛ أترى؟ قم الآن وكل شيئًا، هل تريدُ أن تموت؟

بالكاد فتحَ الصبي عينيه، ثم تراخى جفناهُ ثانيةً وغـــاب. شـــعر بالذُّعرِ ينتشرُ تحت جلده؛ سوف يموت! وضع راحته علـــى جـــبينِ الصغير، كان يشتعلُ، وكانت القروح تنتشر حول فمِه، والنـــدوب تتزاحمُ على ساعديهِ وساقيه. رفع طرف الفانيلة ورأى جلده ملتـــهبًا أسفل بطنه، والجروح تملأ باطن فخذيه. سوف يموت؛ تمـــتم فـــاغر الفاه. لقد التهبت جروحه ولم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيّام. هـــرع إلى الدولاب وأخرج منه زجاجة الكحول، بلل بعض القطن ومسح بـــه على جلدِ الصغير، لسعتهُ برودة السائل فأطلق أنّةً واهية. نهض ثانيـــة وعاد بكأس ماء، قرّبه من فمِه وبلل شفتيه. يني لاركا. لم يكن يريد أن يشرب.

ماذا سيفعل الآن؟ لم يخطر بباله أن الأمور ستصلُ إلى هذا الحد. لقد مضى عليه عشرة أيامٍ عنده كانت كفيلة بقتله. لاركا، قم الآن. ضربَ على خدّيه برفقٍ وهو يردّد؛ لاركا، لاركا. عصـــر ذاكرتـــه وحاول أن يتذكّر اسمه الذي لم يناده به قط. مشاري! فتح الصـــبي عينيه، عاود إغلاقهما.

أحس بالضيق؛ سوف يموتُ ويدفنه بصمتٍ في بقعةٍ منسيّة من حقلهِ. مسح أنفه بطرفِ إزاره؛ لا تمت الآن. حملهُ بين ذراعيه وأخذه إلى الحمّام، مدّده على الأرض وسكب عليهِ الماء البـــارد. ارتعـــش جسده وتأوّه ثم تقوّست شفتاه إلى أسفلٍ وصار ينادي؛ ماما.

ابتهج لرؤيته يستفيق ويبكي. عاد به إلى الغرفة ملفوفًا بفوطـــة، مدّده على الفرشة الإسفنجية، صرخ ولوّح بذراعينِ ضـــعيفتين؛ لا، لا أمسك بيديه؛ ششش، لاركا. التقط نتفة من عجين الموز بأصابعهِ ودسّها في فمِ الصغير. سمع صوت فرقعة لسانهِ في فمهِ، يلامس سقف

حلقِه. هلل وجهه؛ كهاو لاركا، كهاو. دس في فمِه لقمة أخـــرى، وبدا وكأن جسد الصغير المغيّب تحت طبقاتٍ من الموت، قـــد بـــدأ يسترجع وعيه ويستيقظ. يجب أن تأكل، أنت هزيلٌ جدًا.

تورّد خدّا الصبي وابتلّت عروقه. أكل نصف العجينة ثم عـــاد للنوم، كان يتنفس بهدوء. يا لك من ولدٍ عنيد. قال وهو يضع منشفة مبللة على جبينه. عنيدٌ كالحِمار. داعب غـــرّة الصـــغير بأصـــابعِه، استيقظ الصبيُّ بغتة عندما لامسه، صرخَ وبدأ في الرّفس. تبعثر الغطاء وتكوّم في نهاية الفراش، أراد أن يعود إلى خندق الوسائد. ضمّه إليـــه يوشوش في أذنه؛ ششش لاركا، ششش. ولكنّ الصبيّ لم..

الفصل الحادي عشر

نَشير

مطار شرم الشيخ الدولي

18 ذي الحجّة 1431

6:15 صباحًا

وصلتْ الطائرة إلى مطار شرم الشيخ الدولي.

نهض الرّكابُ من مقاعدهم، صاروا يستعيدون حقائبهم الجلدية وحواسيبهم المتنقلة من الخزانات العلوية. حملوا أكياس النايلون وحقائب الظهر، واصطفّوا في الممرِّ الممتدّ بين رتلي المقاعد بانتظار فتحِ البوابة.

تخشّب جسدُهُ على المقعد، يحدّق في الشّاشة المثبتة على ظهر الكرسي المقابل. كان يرى على سطحها الصقيل انعكاس وجهه؛ رُعبَ عينيه، خطوط فمِهِ.. وجيشان معدته. أحس بأنه ما زال معلّقًا في السماء، وأن داخله يهبط. قوة جاذبة تشدّ أحشاءه إلى أسفل، عميقًا نحو الجُرح.

هذه أرضٌ أخرى، غيرُ مطوية، تنتظره.

ظهرت على الشاشة خريطة للمنطقة، أخذ يحرك إصبعه متتبّعًا المناطق التي عبرها في الأيام الماضية؛ الكويت، مكّة، عسير، شرم الشيخ، وقريبًا جدًا؛ شمال سيناء. هل يمكن أن يكون مشاري قد عبر كل هذه الأميال، مثله؟ اقترب شابٌ من طاقم الطائرة، همس؛ البحث الجنائي المصري في انتظارك. تسارعت ضربات قلبه. لا يريد أن يعرف ما يخبئه له هذا المكان. لو أردتَ أن تغادر الطائرة قبل الرّكاب؟ يضيف المضيف. هزّ رأسه نفيًا. شقيقه يسأله:

ليلحين بطنك يعورك؟

اكتفى بهزّ رأسه. علّق سعود:

طول عمرك تخاف من الطيّارة.

ولا أحب ريحتها.

إنها طريقتهما الجديدة للالتفافِ على الأمر، ألا يجعلاه علّة العلل. يتلقى سعود مكالمة من السّفارة في القاهرة، يطمئنهُ بشأن وصولهما. نعم، الجماعة في الانتظار. يقفل الخطّ، يلتفت إليه يسأله:

شلونك ألحين؟ أحسن؟

وجيبُ قلبه يدوّي في أذنيه منذ ستّ ساعاتٍ؛ ابتداء بمطار أبها الدولي، مرورًا بمطار الملك عبد العزيز في جدة، وانتهاء بشرم الشيخ. ثلاثُ مدنٍ في ستّ ساعات، كم ساعة استغرق الخاطفون لعبور البحر؟ حرّك إصبعه صعودًا على سطح البحر الأحمر في الخارطة، منذ جازان وحتى قناة السويس. كم ساعة يا ترى؟

أحس بكف شقيقه تهبط على كتفه، وبعينيه تتفحّصان وجهه. سعود يريد أن يترجّل من الطائرة فورًا ليضرب في الصَّحراء تنقيبًا عن أعضاء الصبي الذي..

مستعد؟

لا

استعد.

هجس باختلاف نبرةِ أخيه منذ هبوط الطائرة، إنها المرة الأولى التي يأمرهُ فيها بأن يتمالك نفسه. قضى معه الرحلة محاولاً مساعدته، وعندما كان يقيء، كان يفتح له الكيس الورقيّ ويدنيه من فمه،

وبيدِه الأخرى كان يمسحُ على ظهره ويقسمُ له بأنهما اقتربا كثيرًا، وبأن النهاية باتت وشيكة، وسمّى وصولهما إلى هذه المرحلة "تطوّرًا"

هكذا كانا يسمّيان ما حدث؛ الأمر. كأنهما اتفقنا ضمنًا على المحافظة على لغة محايدة. بدأ "الأمرُ" في. ينتهي "الأمر عند. حدث تطوّر في "الأمر فكّرَ في كل الكلمات التي يمكنه استخدامها للتعبير عن "الأمر بدقةٍ أكبر؛ المصيبة، الكابوس، الفجيعة. كان بحاجة إلى لغة محايدة، مطفأة، للتعبير عن ألمِه الذي لا يحتمل، في محاولة مضحكة للسيطرة عليه.

لازم تكون مستعد.

أومأ برأسه. الأمر لا يعود لك، جاهزيّتك لا تغيّر من حقيقة الأمر سواء كنت مستعدًا، أو غير مستعد، سوف يدهسك العالم بأظلافهِ ويسحقك. السؤال هو؛ كيف تستعدُّ لحقيقة أن ولدك إما أن يكون قد مات، أو على وشك؟ نهض سعود من مكانه، ونظر إليه. لا زال ملتصقًا بمقعده. كان رتل المسافرين قد غادر الطائرة. مدّ سعود يده وفكّ الحزام عن وسطه.

يالله قوم..

نهض بصعوبة، كأنه ينتشلُ نفسه من مستنقع. وضع يده على كتفِ شقيقه وترك له أن يقوده خارج الطائرة.

الطريق إلى العريش

18 ذي الحجّة 1431

6:30 صباحًا

بمجرّد أن نـــزلا سلّم الطائرة، دنا منهما شابٌ أسمر نحيـــل، في منتصف العشرين، يرتدي قميصًا قطنيًا أبيض وبنطلونًا رماديًا، ويعلّق معطفًا خفيفًا على ساعده. صافح الاثنين؛ أنا مصطفى وجدي، مـــن مباحث شمال سيناء. المكلّف بالقضية.

حيّاه سعود.

أنا عمّ الولد وهذا أبوه.

أهلاً وسهلاً.

أومأ فيصل. كان الكلام قد جفَّ في فمِه. شـــفتاه مطبقتـــان. "اتفضلوا" قال الشاب، وهو يسبقُ الاثنين إلى سيّارته. أحس فيصل بالتَّعب يعاوده. اتكأ إلى الجدار، أمام أسطوانة قمامة حمراء. نســـاءٌ شقراوات يعبرن أمامه. نسيمٌ صباحيٌ بارد، سماء زرقاء مضيئة.

شقيقه يهمس في أذنه:

كم تتوقّع عمره؟

ما أدري.

شكله اِصْغير.. بَزِر.

بدا سعود منـــزعجًا؛ ما الذي يعرفهُ هذا الصَّغير الذي فقـــس لتوِّه من بيضته الجامعية عن عصابات تتاجر بالأعضاء؟ ألقى فيصـــل

نظرة على المحقق الشاب. خطوته عجولة، وجههُ صارم، حاجباه معقودان.

تمتم بوهنٍ:

ما أدري.

كان الدُّوار يشتدُّ في رأسِه.

شِد حيلك فيصل، علامك دايخ؟

فتح الشابُّ بابَ التويوتا البيضاء: اتفضلوا. ركب الاثنان فانطلقت السيارة بين مساحاتٍ مترامية، معشوشبة. قال المحقّق بأنّ الطريق من مطار شَرم الشيخ إلى مدينة العريش يستغرق حوالي ستّ إلى سبع ساعات، أحيانًا يطول الأمر أكثر، أضاف؛ بسبب كمائن الشرطة والجيش، ولكن طالما أنّهم في صحبة محقّق جنائيّ.. كانت ملاحظة بلا معنى.

قال المحقّق بأنه استلم ملفّ القضية قبل ساعتين فقط، بسبب ظرفٍ طارئ تعرّض له المكلّف الأصلي. ظهر الاستياء على وجهِ شقيقه؛ إذن أنت لا تعرف شيئا عن الموضوع؟ هزَّ الشاب رأسه: قرأت الملفّ، ولكن الملف نفسه لا يحوي على الكثير، لو أننا نستغلّ ساعات الرِّحلة في الحديث عن الأمر؟ فرقَع سعود لسانه؛ لا نظر إليه المحقق بحيرة؛ لا؟ نظر سعود في عينيه بتحدٍ؛ في المخفر.

ساد صمتُ ساعة، والسَّيارة تقطعُ شارع شرم الشيخ دهب. كان الطريق معبّدًا، تتواتر على جانبيه الأشجار، وسلسلة من الفنادق. ظهرت على يسارهم زرقة البحر. تنفس فيصل الصُّعداء؛ البحر! غمغم لنفسه؛ من زمان ما شِفته. كانت ملاحظة مارقة، خارجة من سياق الفجيعة. هذا خليج نعمة. قال مصطفى موضّحًا.

كان المكان مليئا بالسّياح، في ملابس السباحة، يركبون الأمـــواج، يتمددون على الرمل، ويتدلون من السماء بالباراشوت.

بزغت الجبالُ الصَّخرية على اليمين، غـــابَ البحـــرُ وجـــاءت الصحراء. لمح فيصل فتى يرعى عددًا من الإبل. يرتدي جلابية رثة وله غرّةٌ كثيفة كتلك التي.. خيام منصوبة بالقرب من الشارع العام. حبال الغسيل تمتدّ بين الخيام وتمتلئ بالثياب الملونة. شجيراتُ إثلٍ تنبتُ على السُّفوح. أرخى رأسه إلى الوراء، السُّؤال يتردَّد في صَدره منذ الأمس؛ لماذا سيناء؟ الاسم يستحضر الكثير من الأمـــور؛ منطقـــة منـــــزوعة السلاح، كامب ديفيد، فراغ أمني. كلمات تقرؤها في شريط أخبـــار، وباستثناء أخبار الرياضة، ومجلس الأمّة، لم يكن يقرأ الكثير.

كانت الرِّمال الذهبية الناعمة تتجمّع بين الكتـــل الصـــخرية. تذكّره بالكثبان التي أخذ إليها مشاري في الرّبيع الماضي، قريبًا من بر الصبية. كان ولده يصعد الكثيّب ويتزحلق مقهقهًا. امتلأ بتفاصـــيل تلك الرّحلة؛ كان يتربّع مع أمّهِ على بساط السَّدو أمام دوّة الفحم، يشوي الكستناء ويخدِّرُ الشاي. سميّة تقفُ على مبعـــدة خطـــوتين، تغطي كتفيها بشالها الكشميري وتعقص شعرها الأســـود الطويـــل، تلاحق مشاري بعينين قلقتين؛ شويّ شويّ يمّه! بالعدال حبيبــــــي! وسعود، في قمّةِ الكثيّب يهمس في أذن الصغير. لا يحتاج المـــرء إلى كثيرٍ من الدَّهاء لكي يعرف بماذا كان يهمس؛ أمّك خوافة ما عليك منها. احتضن الصبي وتدحرجا معًا على الرّمل. كانت سنة أمطـــار، وكان البرُّ يرفلُ بأزهار النوير وأوراق الخبّيز. أحس بالذكرى تدهس قلبه. كانت حياة عادية، مثل أيّ حياةٍ أخـــرى. لمـــاذا تبـــدو الآن مستحيلة مثل خرافة؟

لاحَ البحر عن يمينهم للمرة الثانية قبيل بلوغهم مدينة نويبع، مشعًّا بزرقته الفيروزية. قال المحقّق بأن ميناء نويبع يقع على الضفّة المقابلة لميناء العقبة الأردني، ويرتبط معهُ بخطٍ بحريّ. أردف؛ لذا يمر به الحجّاج في موسِمِ الحج. أحس فيصل بقلبه ينقبض. الحج حتى هنا؟ شعر بأنه مطارد. كأنّه ما زال مكّة، يطوف حول الكعبة التي لا يراها. نظر إلى ارتعاشات يديه. يكاد لا يصدّق أنه قدم للحج قبل أحد عشر يومًا. كأنّ عامًا قد مرَّ، على آخر مرَّةٍ ألفى فيها نفسه مؤمنًا بشيءٍ ما. أرسل عينيه في السّماء، كان صمتُها لا يحتمل.

عبروا مجموعة من المنتجعات، مرورًا بمدينة طابا. ثمّ اختفى البحر، وجاءت الرّمال. صحراءٌ مترامية تملأ العين، رأى في أطرافها سلسلة هضاب. أشار إليها المحقّق؛ هذا جبلُ الحلال. نظر الأَخوان إلى الجبل. أردف؛ الحلال عند البدو يعني الغنم. قطَّب سعود: خليج نعمة، ميناء نويبع، جبل الحلال.. هل نبدو لك كالسيّاح؟! ابتسم الرجل بغموض. على مهلك يا باش مهندس، على مهلك. ازدرد المحقّق ريقه؛ كنتُ على وشك أن أقول بأنّ.. اشتباكات مسلّحة عديدة وقعت هنا. قطّب شقيقه؛ اشتباكات مسلّحة؟ أومأ المحقّق؛ بين الشرطة ومسلّحين، بعد تفجيرات طابا وشرم الشيخ، قبل عدة سنوات. استفاض؛ جبل الحلال من أخطر البؤر في شمال سيناء، فهو مخبأ للجهاديين، والهاربين من السُّجون، ومهربي البشر، وتجار السلاح والمخدّرات. وأين الأمن؟ سأله سعود. شبح ابتسامة لاح على شفةِ المحقق؛ أيُّ أمن يا باش مهندس؟ الجيش المصري ممنوع من التواجد هنا، ولا حتى دبابة واحدة يمكنها الدخول. لماذا؟ اتسعت ابتسامته. ما الذي تعرفه عن كامب ديڤيد يا باش مهندس؟ أطرق

شقيقه. يكاد لا يعرف شيئا. سأله؛ وماذا لو أنّ ولـــدي محتجـــز في الجبل؟ زمَّ المحقق شفتيه؛ لنأمل ألا يكون كذلك. أحس فيصل بقلبـــهِ يهوي. كيف سيعثر على مشاري هنـــا؟ ردّد المحقـــق كلمـــات لم يفهمها؛ المنطقة ج. تفجيرات الهلتون. اختطاف ســـيّاح. مـــزارع أفيون. تفاصيل مرعبة، تبدو ناشزة تمامًا عن منظر الفنادق الفارهـــة والسيّاح الذين يركبون الأمواج. كأنّهم في عالمٍ آخر.

بعد ساعةٍ أخرى أشارَ مصطفى بيده يمينًا وقال؛ هنا إســـرائيل. أحس فيصل بقلبه يضربُ بشدّة. كانت تلك هي المرة الأولى الـــتي تخرج فيها إسرائيل من نشرة الأخبار، وتصبح شيئًا قـــابلا للرؤيـــة واللّمس.

كل ما أراده هو أن يحجَّ، كيف وصل إلى هنا؟

مديرية أمن العريش (قسم أوّل)

18 ذي الحجّة 1431

12:32 ظهرًا

دخلوا إلى العريش من طريقٍ صحراويٍ مهجور، إلا من بعض البيوت الصغيرة التي تظهر بين الفينة والأخرى، وأشجار الزيتون النابتة على الضّفاف. قاد المحقق بقية الطريق صامتًا، وعندما مرّوا بمحاذاة مطار العريش الدولي، صاح بهِ العم؛ لديكم مطار في العريش! لماذا إذن لم نأتِ جوًا؟ شرح له؛ لا توجد رحلات بين العريش وشرم الشيخ، هناك رحلة أسبوعية إلى القاهرة، ورحلة دولية إلى السعودية لنقل الحجّاج العرايشة والفلسطينيين. رأى على المرآة الأمامية ملامح الأب تنكمشُ. لم يفهم ما الذي ضايقه من كلامه. كان العمُّ يرمقه بعينين عامرتين بالشّك، وأحس بأن ما من شيء يقوله أو يفعله، سوف يجعل هذا الرجل يثق به.

توغّلوا في قلب المدينة، فارتفعت في السَّماء رؤوس النّخيل، وأشجار الزيتون والأكاسيا. سرح الاثنان في الأبنية الإسمنتية ذات البلكونات الواسعة، وألوان الثياب المغسولة تتدلى على حبال الشُّرفات. متى نصل إلى المخفر؟ سأله الأب. عشرة دقائق فقط. أجابه.

توقّفت السيارة أمام البناء الإسمنتيّ ذي اللون المصفرّ؛ مديرية أمن العريش (قسم أوّل). كان الفناء يغصُّ، كعادته، بعشرات

المركبات. ما كلّ هذه السيارات؟ سأله سعود. سيارات تمت مصادرها لعدم وجود لوحات معدنية، أجابه. فتح باب السيارة مترجّلاً؛ اتفضّلوا.

وقف الرَّجلان في الفناء، يدوّران أعينهما في المكان، يتفحصان المباني القريبة؛ المدينة الجامعية، سكنِ الطلبة، والشقق السَّكنية ذات الشرفات، حيثُ أصص الزّرعِ وحبالُ الغسيل. بدا الإعياء على وجهيهما وهما يتبعانهِ إلى المدخل. سلّمَ على الشرطي الواقف عند البوابة، يفتّشُ أحد الدّاخلين. سار يسبقهما بخطوتين، إلى مكتبه في نهاية الممر. كان المركز يعجُّ بالضُّباط والمراجعين. أدار المفتاح في الباب، صاح مناديًا صبيَّ الشاي، دخل وجلس على مقعده ودعا ضيفيه للجلوس:

اتفضلوا اقعدوا.

تهاوى الأب عند الأريكة الجلدية القريبة، فيم بقي المهندس واقفا.

اتفضل يا باش مهندس.

رفض سعود الجلوس:

نتفاهم بالأوّل.

نتفاهم على ايش؟

ثمَّ أفصح العمُّ بكلِّ لديه؛ لا أريد أن تتولى أنت، يا أستاذ مصطفى، مهمة التحقيق في قضيّة ولدي. كان يشير إلى الصبي المخطوف بصفته ولده، رغم أنه عمّه. سكت قليلاً ثمَّ أضاف؛ مع كل الاحترام لك، أنت "لسَّه عيّل وأنا لن أخاطر بسلامة ابني مع محقِّق عديم الخبرة يعتقد بأن هذه القضية هي فرصته لكي يحصل على مجده الوظيفي. بدأ صوته يعلو. لقد أبلغتنا السفارة بأنه سيتم تكليف

فريق من الخبراء للتحقيق في الأمر، وبصراحة شديدة، أنت لا تبدو خبيرًا ولا حتى نصف خبير. عندما حاول أن يطمئنه بأنه سوف يبذل جهده كلّه لحلّ القضية، وأنّ كل ما عليه فعله هو أن يمهله الوقت الكافي ليبدأ التحقيق، بدأ الرجل في الصراخ، قال بأنه يريد أن يتفاهم مع من سمّاه "مدير المخفر"، والأرجح أنه يقصد مأمور القسم. رفع عقيرته بالصراخ؛ فين المدير بتاعكو؟ فينه؟ كان مُصِرًّا على الحديث بلهجة أهل القاهرة، رغم أنه، وهو السيناويّ ابن الصِّحراء، لا يجد صعوبة في فهمِ لهجة أهل الخليج. قالَ له بأنه سيشتكي عند المسؤولين الكبار، المسؤولين الكبار إياهم الذين أوكلوه بمهمّة التحقيق في الأمر، مدير أمن شمال سيناء، بلحمِه وشحمه. اختلس نظرة إلى الأب، كان يغطّي وجهه براحتِيه، يداه ترتجفان، حتى صار رأسه يهتز عاود النظر إلى العم. كان الرجل الواقف أمامه يرتجف من الغضب، والتعب، والألم، ومع كلّ كلمةٍ قالها تطاير الرذاذُ من فمِه، ونتأت العروق في جبينه. إنه يطلبُ فريقا من المتخصّصين في جرائم تجارة الأعضاء. لعله يريد شيئا يشبه الأفلام الأمريكية التي شاهدها. كيف يخبره بأنه محظوظ، لأنهم أوكلوا أحدًا للاهتمام بقضيّته أصلا؟

إيش تريد؟

هدأ المهندس لحظاتٍ ثم أردف؛ أريد فريقا من الخبراء في تجارة الأعضاء. أومأ متفهّمًا. سأنقل طلبك إلى المسؤولين. ضغط زرّ جهاز المحادثة وطلب من مساعدِه أن يكتب خطابًا رسميًا لمدير أمن شمال سيناء بهذا الخصوص. كان صبي الشاي قد وصل، حاملا كؤوس الشاي وقناني المياه. لا شكرًا، كلاهما رفض أن يشرب شيئا، رغم أن شفاههما تشققت من فرط الجفاف.

طيّب. بحث بطرفهِ عن الأب المنكمش في الأريكة، كأنّه غائب عمّا حوله. عاد ينظر إلى العم؛ أمامنا خياران يا باش مهندس، إما أن نجلس وننتظر تكليفا جديدًا من البحث الجنائي، وهو الأمر الذي قد يستغرق ساعات، ربما أيام، أو أن نذهب إلى المشرحة ونحقّق في الأمر، ريثما يصدر التكليف الجديد.

بهت الرّجلان. صوّب الأب إليه عينين مذعورتين؛ المشرحة؟ أطرقَ. مشرحة مستشفى العريش، أكثر الجثث التي نجدها في الصحراء تنقل إلى هناك. ردّد العمّ وراءه:

جثث؟

أيوه.

جثث في الصّحرا؟

أيوه.

جاهد لكي يحافظ على حيادِ ملامحه. ازدرد المهندس ريقه بصعوبة: يالله نروح.

لم يكد يلتقط مفتاح سيارته حتى رأى الأب يتشنّج. ارتجف جسده وسقط منكبًا على وجهه. هرع شقيقه يحتضنه وهو يصرخ؛ فيصل! فيصل! كان وجهه منكمش الملامح، كأنَّ روحه تنتزع منه بكمّاشة.

العريش. فندق سويس إن

18 ذي الحجّة 1431

1:46 ظهرًا

أنا آسف فيصل، أنا آسف.

ردّد عليهِ مرارًا وهو يدثّره باللحافِ الأبيض على سريره الفندقيّ.

لا تشيل هم، أنا أتصرَّف.

قال وهو يقبّل جبينه. كانت عيناه تغرورقانِ، رغم أنه أقسم ألا يبكي. أحس بأنه المسؤول عما حدث، بأنه دفع أخاه نحو ما لا يطيق. كانت شفتاه جافّتين ولسانه ثقيلًا. هرع مصطفى لجلبِ قنّينة ماء، قرّبها من فمِه.

لازم ناخده للدكتور.

هزّ فيصل رأسه؛ لا، ما في وقت. نظر إلى أخيه:

سعود.

آمر فيصل.

روح شوف شغلِك.

قال ثمّ أغمض عينيه. كان يريده أن يذهب، وحيدًا، حتى نهاية هذا النفق اللعين، أن ينزل إلى قاعِ الجرح، ويتقصّى الأمر. تمتم واهنًا:

- روح شوف ولدي حي ولا ميّت.

أراد أن يمنحه كلمات مطمئنة؛ ولــدك حــي. هــذا إجــراء احترازي. لا تفقد الأمل، ثق بالله. كلمات يعرف بأنها ما عــادت.. فيصل لا يريد أملاً ولا يأسًا، فيصل لا يريد سوى الحقيقة، وهــو، الشرطيّ الطيّب، ما عاد بوسعه إن يمنح أخاه أمانًــا مغشوشًــا، وأن يخبره بأن الأمور ستكون على ما يرام. كل ما يستطيع فعله هــو أن يخرج لمعرفة ما حدث، ثم يعود ليخبره إلى أيّ حدٍ بلغــت بشــاعة الأمر.

شلون أخلّيك بروحك؟ إنت تعبان.

أنا زين.

تفحصه مليًّا؛ كان مصفرًّا على نحوٍ مؤلم، تكــاثرت الغضــون حول فمه، وتوهّج البياض في ذقنه وفوْديه. تساءل هل سأفقده هــو الآخر؟ هل سأفقده؟ أستطيع أن أحتمل خســارة واحــدة، ربمــا. ولكن.. أن أفقد الاثنين؟ وضع مصطفى يده على كتفهِ:

لا تخاف، بيضَلّ رجّال منّا معاه.

نشق عدّة نشقاتٍ ومسح أنفه بكمّه. لن يبكي.

عاد فيصل يأمره:

روح شوف شِغْلك.

تامر.

قبّله على كتفِه وغادر.

مستشفى العريش العام

18 ذي الحجّة 1431

2:05 مساءً

كانا ينتظران مجيء السيّارة عند بوابة الفندق، عندما التفت سعود إلى المحقق يسأله؛ المستشفى بعيد؟ كانت فكرة الابتعاد عن شقيقه تخيفه. هزّ الرجل رأسه؛ عشر دقايق بس. أرسل عينيه إلى أشجار النَّخيل المتطاولة على الشاطئ. منحته رؤية البحر عزاء غير مفهوم، امتلأ صدره بالهواء الدافئ، المالِح، الذي لم يتذوّقه منذ غادر الكويت. يا باش مهندس؟ انتبه إلى المحقّق يناديه، واقفا عند سيارته، يحدجه بنظرة استعجال؛ ألن تركب؟ لم ينتبه لوصول السيارة. سحب مقبض الباب وركب.

وصلت السيارة إلى فناء واسعٍ مسوّر، مليء بالسيّارات، وعربات إسعاف. أوقف المحقق السيارة أمام بناء إسمنتي ضخم، له نوافذ رفيعة عاكسة تتقدَّمها بلكونات بدرابزين، حيث وقفت ممرّضة بالزيّ الأبيض، والحجاب الأبيض، والنقاب الأبيض، تراقب زحام الناس في الأسفل. كان عددٌ من النساء والأطفال يجلسون على أحواض العشب، تحت مظلات الصّفيح. رجال ونساء يتزاحمون عند مدخل المستشفى. أحدُ الأطفال يلعبُ بخرطوم المياه، شقيقه الأصغر يركض تحت الماء المرشوش ويكركر. أشاح سعود بعينيه. كانت هناك نقّالة معدنية على يمين الدّرج، تقشّر الطلاء الأخضر عن

سطحها، وظهر اللون البنيُّ المحروق لباطنها الصدئ. همَّ سعود بالدخول فاستوقفه المحقق. أشار إلى بناءٍ جانبيٍ صغير؛ المشرحة من هُنا. تبعه سعود إلى الداخل. راقبه يتبادل كلماتٍ مع أحد العاملين، ثم جاءهما طبيب بزيّ الجراحين الأزرق لاقتيادهما إلى المشرحة.

نزل سعود سلّمًا من أربع درجات، ثم داهمتهُ الرائحة.

صاحَ يغطّي أنفه بساعده، كأن الرائحة خبطت وجهه. أعطاه الطبيب كمّامًا غطى به فمه وأنفه. ما هذا؟! كان النتن ينخر رأسه، يصفعه. نظر إلى المحقق، كان هو الآخر يغطّي أنفه بكمّه ويغالب تقلّبات معدته. كان الزنخ رطبًا، ثقيلاً، مقرفًا، يملأ الهواء. قال الطبيب شارحًا؛ معظم الجثث التي تصلنا تكون متحلّلة. رفع كتفيه فيما يشبهُ الاعتذار؛ إمّا مقتولة بالرصاص أو ممزّقة. اتسعت حدقتاه، الرائحة تحرق عينيه. لم يفهم شيئًا. تقدّم الطبيب خطوة نحو ثلاجات الموتى. كانت بثلاثة جوارير معدنية. فتح الجارور السُفليّ فوجد فيه جثمانين متلاصقين. اعتذر الطبيب؛ عثروا على سبع جثث بالأمس عند السّلك الحدودي، ثلاجاتنا لا تكفي، نضطر أحيانًا إلى وضع جثتين أو ثلاثة في جارورٍ واحد. أحس سعود بأنه لا يفهمُ شيئا. ما الذي يحدث هنا؟ هل حدثت مجزرة؟ كشف الطبيب القماش عن أحد الجثث، كان شابًا أفريقيًا، محفور الخدّين، غائر العينين. مشرّع الفاه.

اتقتل مطخوخ بالنّار.. لاقينا جثته على الحدود بعدها بتلات أيام.

حدود؟ أيّة حدود؟ كل شيء ملغّم ومفخخ بالضياع. نظر إلى وجهِ الجثمان المكشوف، جمجمة سوداء، شبه متحللة، وجائعة جدًا. من هذا الرّجل؟ إنه لا يبدو مصريًا. تبادل الطبيب والمحقّق النظرات.

ورغم أن الكمّام يغطّي نصف وجهيهما، إلا أنــه رأى في غضــون الأعين آثار ابتسامةٍ غريبة.

انتَ ما بتعرفشْ حاجة عن الأوضاع عندنا.

سحب الطبيب بقيّة الجوارير، في كل جارور جثتين أو ثلاثــة. سار حول الجثث يكشف وجوهها، واحدًا بعــد الآخــر؛ وجــوه سوداء، كلّها، جائعة، كلّها، منذ الوجه الأوّل وحتى الوجه الأخير.

"وقف! وقف!" صاح سعود.

تدخل المحقّق:

احنا بندوّر على عيّل كويتي.

قليّل لما تجينا جثث بيضا.

الولد اهرَّب من قيمة أسبوع.

لو إجتنا جثة طفل أبيض كنت افتكرها.

تبادل سعود ومصطفى النظر، فيم انهمك الطبيب يغطّي الوجوه ويعيدُ الجوارير إلى بطن الثلاجة.

صعد سعود الدرجات الأربعة إلى خارج المشرحة. استند بظهره إلى الجدار وأخذ يلهثُ في الممر غير مصــدّق لمــا رآه. مستشــفى مصري، يمتلئ بجثث الأفارقة، بعضهم قتل بالرصاص، بعضهم مزّقته الضواري. ترى، ما الذي رآه هناك، على عمقِ أربع درجاتٍ فقــط من سطح الأرض؟ في مكانٍ سقط سهوًا من ذاكرة العــالم؟ كــل هؤلاء، ما الذي يفعلونه هنا؟ ولماذا يموتون إلى هذا الحد؟

دقائق ولحقه مصطفى. خلع الكمّام عن وجهه ونظر إليه.

انت كويّس؟

كويّس.

كان يكذب.

العريش. فندق سويس إن

19 ذي الحجّة 1431

7:00 صباحًا

سأشعر على نحوٍ أفضل لو أنك بقيت في الفندق اليوم أيضًا.

قال لهُ سعود وهو يزرّر له قميصه؛ لست مستعدًا بعد فيصل، يجب أن ترتاح، لا أستطيع التركيز في التحقيق وأنت معي. الرعشة لم تفارق أصابعه منذ نوبة الأمس. عندما فشل في تزرير قميصه طلب مساعدة أخيه، كان عاجزًا عن إنجاز أبسط الأشياء. ارتفع حاجباه؛ مشاري ولدي. حدق سعود عميقا في عينيه؛ ولدك ولدي. قاطعه؛ أنا أولى منكَ بـ.. ليست قصّة أولويّات يا غبي! دفع يد أخيه بعيدًا وقبض على الزّر الأخير، أدار ظهره مواجهًا المرآة. كان الزرُّ يهتزُّ في يده.

لم يسبق لأخيه أن شتمه. آخر مرّة فعلها كان في العاشرة، لقّنه يومها درسًا وأسقط له سِنًا. هذه المرّة لم تزعجه الشتيمة، كان يمكنُ أن يبتسم لولا ظَرْفِهِ. برطم لنفسه؛ أنا زين. كان الزرُّ يفلتُ من أصابعهِ. تعال هنا. سعود يلقّنه الأوامر على غيرِ العادة، سعود الأخ الكبير! اجلس هنا. جلس على حافّة السرير. فتح شقيقه الجارور وأخرج جوربًا، تأفّف؛ سميّة لم تضع لك إلا ثلاثة أزواجٍ! ابتسم نصف ابتسامة؛ لم نجلب من الكويت إلا ثلاثة أزواج. تمتمَ؛ لا يستطيع المرء أن يرتدي نعلاً نجديّة ويبحث عن طفل مفقود في

صحراء. وماذا كانوا يرتدون أجدادك للرّعي، حذاء أديداس؟ أنا مندهش لأنك تمزح. وماذا عنك؟ ماذا عنّي؟ جئت إلى مكة بزيّ مهندس البترول. مازن اشترى كل شيء. كيف حاله؟ اتصل ليلة أمس وصرخ في السمّاعة؛ فينكم يا جماعة؟ كان قلقًا. هز فيصل رأسه؛ ولد حلال.

جثا سعود عند قدمي أخيه وألبسه جوربيه، ثم نهض وأطبق الزرّ الأخير. أنت جاهز. قال وهو يضع يديه على كتفيه ويحدّقُ في عينيه. اسمعني الآن. أحس فيصل بابتسامةٍ صغيرةٍ تنبتُ على شفته، ابتسامة خارجة عن السياق، بالكادِ تُرى. رفع سعود حاجبيه؛ لقد تكرّرت النوبات أكثر من مرّة وأنت لم تحصل على تشخيص. أشاح بعينهِ؛ وهل يحتاج الأمرُ إلى تشخيص؟ اسمعني، نحن لا نعرف إن كان ما يعتريك أمرٌ عارضٌ أم أنه سيستمرّ، وأنا لا أستطيع أن أجازف بسلامتك، إذا أتيت معي، سوف تسمع وترى أشياءً لا أستطيع حمايتك منها. دفعه برفق: خف علينا يا سبع الليل. علا صوته؛ أنا لا أمزح. ولا أنا. ركع على ركبتيهِ واضعًا يديه على يديّ شقيقهِ الجالس أمامه، يقبض على ارتعاشات أصابعه اللا إرادية. فيصل ابقَ هنا، لأجلي، ولأجل مشاري. ابق هنا وسأكون عينيك وأذنيك، سأهتمُّ بكلّ شيء، أعدك، سوف أخرج إلى هذه الصحراء اللعينة وأستعيد ولدك، أقسمُ لك، فقط دعني أطمئن على سلامتك. دبَّ الضيق في صدره. سعود. نعم. ماذا حدث أمس؟ ازدرد ريقه. لم تخبرني بالتفاصيل. أخبرتك بما تحتاج إلى معرفته. لقد بدأت تغضبني. لا تغضب! قبض على يديه. ما الذي رأيته في المشرحة أمس؟ لا شيء عن مشاري. وغير ذلك؟ لا شيء يعنيك. أستطيع أن أتّصل

بالمحقّق الآن وأعرف منه كل شيء. ولكنك لن تفعل. ولماذا لا أفعل؟ لأنني أمنعك. متى أصبحت أخي الكبير؟ عندما بدأت تتصرّف كطفل. أنت تنسى نفسك. أرجوك فيصل، أقبّل يدَك. أنت حمار يا سعود. ليكُن. تعتقد جديًا بأنني سأجلس في الفندق وأتركك تبحث عن ولدي. ولدك ولدي يا حمار. أنتَ الحمار. أرجوك فيصل. قل لي ماذا رأيت في المشرحة أمس، لماذا أنتَ خائف؟ أنا خائف عليك، أعصابك تعبانة، لماذا ترتعش أصابعك؟ ها؟ إنّهُ الإجهاد. وماذا لو كان غيره، ماذا لو كان الباركنسون، التصلب المتعدّد، أو أي شيء لعين آخر؟ رفع يديه المرتعشتين أمام أخيه وابتسم؛ أنت طبيب؟ لا، ولكنك حمار ترفض أن يفحصك طبيب. أنتَ الحمار. ماذا لو استعدت ولدك ثم لم تعد قادرًا على احتضانه، هل فكّرت بالأمر؟ هل فكّرت؟ داهمه أملٌ مباغت؛ أنا مستعد لدفع الثمن. من قال بأن صحتك هي ثمن عودته؟ رفعَ كتفيه؛ من يدري؟ أنت مجنون مثل زوجتك. ابتسم. هل يمكن أن نعود الآن إلى الوضع الطبيعي، حيث أنا الأخ الكبير وأنت تنفّذ أوامري؟ نهض سعود من مكانه، فتح باب الغرفة، غمغم؛ بعد أن أجد مشاري.

مديرية أمن العريش (قسم أوّل)

19 ذي الحجّة 1431

8:05 صباحًا

الجماعة إجو يا حضرة الضابط.

همس الرّجلُ مُطِلًا برأسه عبر الباب نصف الموارب، ينتزعه من كومةِ الأوراق والصُّورِ المطروحة أمامه. بادر يلمُّ الوثائق من سطح المكتب، خبأها في الدرج، نهض واقفا، يسمع طقطقة عظامهِ. نظر إلى السَّاعة المثبتة على الجدارِ عن يساره؛ تجاوزت الثامنة صباحًا. لقد أمضى الساعات العشر الماضية، بين كؤوس الشاي الفارغة وأعقاب السجائر، يقرأ كالمجنون. أحس بتيبّسٍ في رقبته وكتفيهِ. ليلٌ طويلٌ من القراءة ولا زال تائهًا. لماذا يختفي طفلٌ في مكة ويبحثون عنه في سيناء؟ قضى الليل بطوله يقرأ في قضايا المتاجرة بالأعضاء. كان يسمع أخبارًا عن قضايا كهذه، مثله مثل أي سيناوي آخر، ولم يصدّق أكثر ما سمِع. أصبح اليوم يصدّق أكثر مما رأى، فكّرَ في تلك الصحراء المترامية بعيدًا عن عين البحر، خارج العريش، أيّ سرٍ تخفي؟ سرح في خارطة شبه جزيرة سيناء المعلّقة على الجدار المقابل؛ كلّ تلك الجثث التي لم ينتبه لها أحد، موتٌ مجانيٌّ وكثير، على مبعدة أميال قليلة من المكان الذي يقفُ فيه الآن. حيواتٌ تنتهي في الصمتِ المطلق، تدفنُ في الصمت المطبق. رملٌ يبتلع الأموات عميقًا. لا أحد يسمعُ صراخ أحد. تذكّر نفسهُ يوم أمس عندما تم تكليفه بالملف، قبل المهمّة ممتنًا للفرصة النادرة، عينه تلمع من

فرطِ الحماسة؛ عين العالم على الموضوع، الحساسية السياسية لملف سيناء، صورة مصر في المحافل الدولية، استنفار خليجي. إنها فرصته لكي يصنع صيتًا. ولكن الآن، بعد عشر ساعاتٍ من التحديق في صورٍ لجثث مخاطة البطون، لم يكن بمقدورهِ أن يتحاشى السؤال، السؤال نفسه الذي طرحه المهندس سعود يوم أمس؛ لماذا أنا؟

دخل الرجلان. صباح الخير، صافحه سعود. لا يبدو غاضبًا كما كان. وضع نسخة من جريدة الأهرام على الطاولة، على الصفحة الأولى تصريحٌ لوزير الداخلية؛ "مصر تجنّدُ فريقًا من الخبراء للتحقيق في اختفاء الطفل الكويتي" جاهد لكي يخفي ابتسامته. فريق الخبراء! هو ومساعدوه، وربّما صبيُّ الشاي. سأله المهندس:

وصل الفريق؟

لا لسّه.

قرّرَ أن يُبقيهم في العتمة، أن ينتظروا فريق الخبراء الذي لن يأتي أبدًا. متى يصل؟ يعرفُ بأن عليه أن ينظر في عين الرجل مباشرة، ألا يحك جبينه وألا يسعل، أن يجيب بصوت واثق؛ يوم أو يومين. تمتم سعود: خير إن شاء الله. لا يبدو المهندس منزعجًا من تولّيه زمام التحقيق ليومٍ آخر. تبدو متعبًا، ألم تغادر المكتب؟ ابتسم؛ كنتُ أقرأ. اختلس نظرةً إلى الأب، كان يبتسم بوهن، وجهه، كما رآه لأول مرة، موشكٌ على البكاء. كيف هي صحّتك؟ أفضل. أشار إلى الكرسيين المحاذيين لمكتبه:

فيه رجّال عايز أعرّفكم عليه. اتفضلوا اقعدوا..

جلس الاثنان. من هو هذا الرَّجل؟ شبكَ أصابعه ببعضها على المكتب؛ مهرّب سابق من البدو، اسمه هْويشِل. ردّد الأب وراءه؛

مهرّب؟! مهرّبٌ تائب كما يقولون، أضاف. اختلس الأب نظرةً إلى أخيه. بدا المهندس متوترًا. يسند مرفقه على سطح المكتب، يغطي نصف فمهِ بأصابعه.

سأل فيصل:

مهرّب حشيش؟ مهرّب سلاح؟

أجابهُ شقيقه:

مهرّب بشر.

يهرّبهم وين؟

يهرّبهم لإسرائيل..

إسرائيل؟! قطّب الأبُ جبينه. اكتسى وجهه بدهشة ساذجة. في كلّ مرة تظهر تلك الدهشة على وجهِ الاثنين كان الضيق يملؤه. كأنّهما مفصولان عن العالم، أم أن العالم برمّته مفصولٌ عنه؟ وأنّه قدره، وهو ابن سيناء، أن يعيش أيّامه في شريط إخباري مجنون؟ تفجيرات أنبوب غاز، جهاديون يختبئون في المغارات، عبوة ناسفة، اختطاف سياح، تدمير مزرعة أفيون، جثث عند السلك الحدودي. نظر إليه الأب؛ هل تعتقد بأن ولدي قد هُرِّب إلى إسرائيل؟ هز رأسه؛ من المبكّر قول ذلك، نحتاج قبل كل شيء أن نعرف طرق التهريب، وأن نتحسس أخباره بين القبائل. أومأ الاثنان موافقيْن. بدا المهندس معجبًا بالخطوات السريعة التي اتخذها. ملأته نظراته بالارتياح. ضغط زرَّ جهاز المحادثة على المكتب وأعطى أمره؛ استدعِ هويشل.

مديرية أمن العريش (قسم أوّل)

19 ذي الحجّة 1431

8:33 صباحًا

خير ان شا الله يا حضرة الضابط؟

سألَ البدويُّ الذي قدم لتوّه إلى المكتب، وجلس على الأريكةِ، وقد غاص رأسهُ بين كتفيه، ينظر إلى الوجوه بارتيــاب. تفحّصــه الأخوان؛ رجل أربعيني، يرتدي جلابية بيضاء وغترةً حمراء، معقوف الأنف، مجنون العينين. دس الرَّجل كفيه بين فخذيه ينظرُ إلى المحقّق، ينتظر أسئلته. خير يا هويشل. سكت مصطفى لثوانٍ، أطفأ سيجارته ثم قال مواجهًا الرجل: هويشل إنت اشتغلت في التهريب. وتُبــت! قاطعه بحدّة. رفع ثلاث أصابع في وجهِه: من تلات سنين! الحمدُ لله إنك تبت يا هويشل. الحمدُ لله. خلينا ندخل في الموضــوع فــورًا. اتفضّل. أشار المحقق إلى فيصل: هادا الرَّجال خطفــوا ابنــه. هــذا الرّجال؟ أيوه. هزّ البدويُّ رأسه: ما يسير. إِشو قصدك؟ هذا الرّجال مو هو أفريقي. احنا عارفين إنه مُش أفريقي. نظر الرجل إلى فيصــل مقطّبًا، يتفحّصه مرتابًا. كيف؟ كأنّه يسأله؛ كيف وصلتَ أنــت إلى هنا؟ أحس فيصل بتساؤلات الرجلِ تثقبه من الدّاخل؛ ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ هذا الجحيم ليس لك. لم يكن يعرفُ بأن هناك تمييز في العذاب أيضًا. مكانٌ للبيض، مكانٌ للسود. وهؤلاء الــذين يسحقون كلّ يومٍ تحت عجلاتِ العالم الجديد، الذين يعبرون جغرافيا

العطش وخرائط التيه لأجلِ أن يعيشوا، ولا.. ولده لا ينتمي إليهم. لا يدري، هل يفرح لذلك أم يغرق في الخزيِ حتى أذنيه.

أردف مصطفى:

بدنا إيّاك اِتساعدنا عشان نلاقي الولد.

في الخدمة.

ما زالت عيناه مسمّرتين على فيصل. أردف المحقق:

بدنا نعرف الطريق اللي كنت بتهرّب منه.

وين خطفوا الولد؟

في مكّة.

في مكّة؟!

التقارير تقول إنهم وصلوا سينا.

يعني عبروا البحر!

بدا هويشل أقل توتّرًا وهو يعدل من جلسته، شبك يديه فوق ركبته. شوف يا حضرة الضابط، هناك في سيناء ثلاثة طرق للتهريب لا رابع لها. نهض نحو الخريطة على الجدار، أشار بإصبعه الدقيقة إلى طرق التهريب؛ إما أن تعبر كوبري السويس، ثم تأخذ سيارة دفع رباعي حتى منطقة العجرة الحدودية جنوب رفح مرورًا بالطريق الساحلي. واخد بال حضرتك؟ يحرّك أصبعه متتبّعًا خطّ التهريب، يضيف؛ ثم بالوظة ورمانة وبئر العبد والعريش والشيخ زويد، بعيدًا عن الطرق الرئيسية. كل المهرّبين خبراء في هذه الطرق يا حضرة الضابط ولا توجد عليها أية حراسة أمنية. ينقل إصبعه؛ الطريق الثاني، عبر كوبري السلام أو معدية القنطرة. هنا. ثمّ ينقل أصبعه جنوب السويس ويتمتم؛ الطريق الثالث هو هذا، وهو الطريق الذي تريده

أنت. يأخذون المراكب الصغيرة إلى الشاطئ الشرقي من جنوب السويس، ومنها إلى وسط سيناء، وتحديدًا مركز نخل عبر الوديان، ومنها إلى سلك الحدود. سلك الحدود؟ سأل سعود. السلك بين سيناء وإسرائيل. هزّ مصطفى رأسه؛ وأين يذهبون بعدها؟ مسح الرجل الوجوه بعينيه، تلكأ ثم قال؛ إلى بيوت الأشباح.

أحس فيصل بدبيبِ الذُّعر يزحفُ تحت جلده. خرج صوته مبحوحًا؛ بيوت الأشباح؟ اختفى صوته في الحاء الأخيرة. أومأ هويشل؛ هكذا يسمّيها الأفارقة. ولدي ليس أفريقيًا. قال والدّم يتدفّق حارًا في صدغيه. غمغم البدوي؛ أدري. كأنه لا يصدّق قصة الاختطاف برمّتها. سأل سعود؛ ما الذي يفعلونه في بيوتِ الأشباح يا هويشل؟ زمّ الرجل فمه؛ يحتجزونهم رهائن، يبيعونهم بين بعضهم، كل قبيلة تسيطر على منطقة، تبيع الأفريقي لمن يليها، ومع كل صفقة يزداد سعره.

أنا لا أفهم. تمتم فيصل. امتلأ رأسه بصورٍ لولده، يباع ويُشترى، من خاطفٍ إلى آخر. منذ جنوب سيناء وحتى شمالها، منذ حدود البحر الأحمر وحتى أقاصي البحر الأبيض، منذ مكة وحتى إسرائيل. هل يمكن؟

سيناء. العريش

19 ذي الحجّة 1431

11:24 صباحًا

كان التهريب خياري الوحيد، قال هويشل. المهن الخطِرة لا يقومُ بها إلا من لا مهنة له. كانت عيناه تنظران عبر النافذة عن يمينه، إلى البحر. التويوتا البيضاء تقطع شوارعِ العريش، أشجار النخيل والزيتون تتعاقب على ضفتيّ الشارع. أنا لم أتاجر بالأفارقة، كنت أقدّم لهم خدمة، فأنا أعرف هذي الصَّحراء مثل باطنِ يدي، وأستطيع مساعدتهم على العبور، ولا علاقة لي بما يحدث في بيوت الأشباح.. قاطعه مصطفى؛ ولكنَّك كنت تسلّمهم لبيوت الأشباح يا هويشل، ألم تفعل؟ لم أكن أعرفُ بأنها معتقلات! نظر إليه مصطفى عبر المرآة الأمامية، يخترقه بعينين متشككتين؛ وربّما لم تكن تريدُ أن تعرف؟ لوّح هويشل بيديه؛ عفوًا يا حضرة الضابط، هل يبدأ هروب الأفريقي من سيناء؟ ألم تسأل نفسك من أين يأتون؟ ماذا تقصد يا هويشل؟ الأفريقي يأتي من إرتريا والسودان ونيجيريا وإثيوبيا، وقبله جاء الروسي والصيني والجورجي. لقد عبروا كلّ حدودنا البريّة والبحرية والجويّة، و لم يعترضهم أحد، ولا أحد يعترض المهرّبين أيضًا، هل تساءلتَ مرّة، لماذا لا يتعرّض لهم الأمن؟ لأنهم مسلّحون ويجيدون الاختباء. أجاب مصطفى. أفلت هويشل نخرة هازئة؛ ليس هذا السّبب الوحيد. ماذا تقصد؟ ليس كلّ ما

يُعرف يقال يا حضرة الضابط. هدأ الرجل فجأة. صمت دقيقة ثم أردف؛ متى فعلتم شيئا لأيٍ من قضايا الاختطاف التي تحدث كل يوم هنا؟ ها؟ هناك عشرون نقطة عبور بين الإسماعيلية وسيناء، لماذا لم يعترض أيٌّ منها طريق المهرّبين، ألم تسأل نفسك؟ قاطعه مصطفى؛ هناك فسادٌ في كلّ مكان، ولكن هذا ليس سببًا لكي تعمل في التهريب. صحيح! صاح هويشل؛ ولكن عندما تجد نفسك مخيرًا بين الجوع والتهريب، ثم تختار الجوع، تعال وحاكِمني. أخفض مصطفى عينيه، سادت دقيقة صمت، طأطأ هويشل؛ أنا رجلٌ متعلم، عندي شهادة متوسّطة، أعرف الإنجليزية والعبرية، ولديّ ستّ أولاد. كان عليّ أن أطعمهم. كنتُ أعمل في الزراعة، ثم رفعت الدولة أسعار المبيدات، ماذا ستفعل لو كنت مكاني؟ هل كان عملاً مربحًا؟ سأله سعود. تمايل رأس الرّجل؛ لقد عشتُ مثل ملك. كنت أربح عشرة آلاف دولار في اليوم أحيانًا، صفر مصطفى؛ عشرة آلاف يا ابن.. أردف هويشل؛ الأفريقي يدفع من ألف إلى خمسة وعشرين ألف دولار لتهريبه. إذا كان لديه هذا المبلغ، فلماذا يهاجر؟ سأله سعود. هو لا يملك هذا المبلغ، بل يستدينه، وهو لا يستدينه كاملاً، بل يستدين عادةً ستة إلى سبعة آلاف دولار، على أمل أن يسدِّدها إذا وجد عملاً في إسرائيل. أنا لا أفهم. ما الذي لا تفهمه يا باش مهندس، تخيل أنك تريد التسلّل إلى إسرائيل، وجودك على أرض مصر غير قانوني، ودخولك إلى إسرائيل غير قانوني. أومأ مصطفى؛ لا توجد سجلات تدل على وجودك، أنت رسميا لا أحد. ازدرد سعود ريقه. أردف هويشل؛ المهرّب الذي اتفقت معه لمساعدتك، بدلا من تهريبك إلى إسرائيل سوف يبيعك إلى مهرّب آخر، والآخر

إلى آخر، مع كل صفقة سوف يزداد سعرك، تتحول من متسلل إلى عبدٍ مملوك، وحتى تشتري حريتك عليك أن تدفع. كيـــف أفتـــدي نفسي وأنا مفلس؟ يتّصل الخاطفون بأهلك، أهلك يسمعون صراخك تحت التعذيب، يجمعون المال لتحريرك، يستدينون الآلاف، في المحصلة تنفق ما يصل إلى خمسة وعشرين ألف دولار. خمسة وعشرين ألـــف دولار فقط؟ اكتست الدهشة وجه هويشل؛ وهل هذه قليلة يا بـــاش مهندس؟ هزَّ سعود رأسه غير مصدّق؛ لقد عرضنا لمشـــاري فديـــة مليون دولار! ارتفع حاجبا الرّجل؛ مليون دولار؟ ألم يتّصلوا؟ أومـــأ سعود. بلى، اتصلت الخاطفة، ثمّ وُجدَت مطعونة وغائبة عن الوعي، ما نعرفه أن القارب غادر من جازان إلى سيناء. ضاقت عينا الرجل؛ المفروض أنهم وصلوا سيناء منذ أسبوع، لماذا لم يتّصلوا؟ لو كنـــتُ مكانهم، أقصد، لا مؤاخذة يا باش مهندس، هل يعقل أن يفرّطـــوا في طفلٍ يستطيع أهله دفع مليون دولار؟

العريش. جمعية الجيل الجديد لحقوق الإنسان

19 ذي الحجّة 1431

2:14 ظهرًا

أوقف مصطفى السَّيارة أمام بناء للمدرسةِ الإعدادية. تلفّت الشقيقانِ حولهما؛ مبانٍ إسمنتية، سيّارات مركونة كيفما اتفق، طالبات ينتظرن عند بوابة المدرسة. أشار المحقّقُ إلى بناء هزيل تعتليه لافتة؛ جمعيةُ الجيل الجديد لحقوق الإنسان. أردف شارحًا: في واحِد هنا عايزين نقابله، اسمه حمدي العزازي، خبير في مكافحة تجارة الأعضاء، هوَّ هادا اللي بدنا إياه. شعر سعود، لأوّل مرة، بأن التَّحقيق يسير في الاتجاه الصحيح. رمق مصطفى بنظرة إعجاب. اختلس نظرةً إلى أخيه. كانت الرجفة في أصابعه تتفاقم، دأبه كلما انفعل. اعتذر هويشل عن مرافقتهم. غمزه مصطفى؛ معرفة قديمة؟ ابتسم البدويُّ و لم يعلّق.

في شقةٍ بالدور الأرضي كان مكتب العزازي؛ حجرة متوسطة ومنضدة يلتف حولها مجموعة من الشباب والفتيات. على اللوحة الفلينية ثبتت عشرات الصور لرجلٍ ممتلئ، متكنز الوجه، له شعرٌ أبيض وشاربٌ رمادي، يتوسّط حشدًا من الفتيان والفتيات السّود، يبتسمون للكاميرا. همس مصطفى لسعود؛ إنهم يعطون دروسا في حقوق الإنسان. وأين هو الخبير؟ واصل مصطفى الشرح؛ في البدء كان مشروع انترنت للكتابة بأسماء مستعارة، انظر إليهم الآن! عظيم

يا مصطفى فعلاً، سيطر على إعجابك لو سمحت، أين هو رجلنا؟ أشار المحقق بذقنه إلى الرجل خلف المنضدة؛ هذا هو.

تفحص سعود وجه الرّجل؛ رجلٌ أربعيني ممتلئ، مكتنز الخدّين، مدوّر الوجه، أشمط الشارب، أبيض الشعر. رجلٌ عادي، مثل أيّ شخصٍ تلتقيه في الشّارع، يشبه المعلّمين المصريين الذين درّسوه في مدارس الكويت. رجلٌ لا يشبه الأبطال الخارقين في شيء. نظر إليهم الرجل مستفهمًا: أيّ خدمة؟ اعتذر مصطفى على المقاطعة؛ عفوًا، أستاذ حمدي، أنا مصطفى وجدي من مديرية الأمن، اتصلتُ بك صباح اليوم. مدّ الرجل يده لمصافحة المحقق؛ أهلا بك. أشار حمدي لمجموعته؛ نكمل لاحقًا يا شباب. اتفضلوا، قال وهو يتملى في وجهي الأخويْن. من منكما الأب؟ رفع فيصل يده. أستاذ حمدي. بادره مصطفى؛ حدثتك صباح اليوم عن قضية الولد الذي فُقد في مكّة، الدلائل تشير إلى أنه نقل إلى سيناء. التحقيقات التي أجراها البحث الجنائي في السعودية تقول بأنّها قضية تجارة أعضاء. اصفرَّ وجه فيصل. ناولهُ الرجل قنينة ماء. هز فيصل رأسه. لا يريد ماء. يريد أجوبة. نظر إلى الأوراق المتزاحمة على مكتب الرّجل، كانت هناك صورٌ لجثث سوداء، مخاطة البطون، حُشيت محاجرها بالقطن الأبيض. ما هذا؟! صاح فيصل هلِعًا. أسرعت يد الرجل لقلب الصور؛ عفوًا. أحس فيصل بأنفاسهِ تتلاحق.

العريش. جمعية الجيل الجديد لحقوق الإنسان

19 ذي الحجّة 1431

2:32 ظهرًا

قال حمدي العزازي بأنه يمكن أن يعرف بشكلٍ استباقيّ عن قضايا التهريب، ولكن ليس قضايا تجارة الأعضاء؛ نحن نعرفُ الآن، مثلاً، بأن هناك أربعة وأربعون محتجزًا لدى شخص اسمه موسى في قرية المهديّة برفح بانتظار تهريبهم. هزَّ رأسه؛ أربعة وأربعون إرتريا محظوظًا استطاع أهلهم افتداءهم من الخاطفين. مدَّ يده إلى قنينة الماء وعبَّ منها. لكن، في قضايا تجارة الأعضاء، من الصَّعب أن نعرف عن الأمر قبل وقوعِه، نحن نكتشف الجثامين بعد موتها بأيّام، تكون متحلّلة، وغالبًا ممزقة من نهشِ الكلاب، معظم الجثث التي ننقلها إلى مستشفى العريش هي من هذا النّوع. نظر فيصل إلى أخيه، أشاح سعود بعينيه. أردف حمدي؛ هذه تجارة ربحها فاحش، وتكلفتها رخيصة، هل لديكم فكرة عما يحققه تاجر الأعضاء؟ الكلية بثلاثين ألف دولار، القلب بمئة ألف دولار، الرئة بأربعين ألف دولار، العينين بعشرين ألف دولار، الخصية أو الرّحم بأربعين ألف، الأسنان بخمسة عشر ألف. قيمة قطع الغيار البشرية تتجاوز قيمة الإنسان الحيّ، وإذا كنا نتحدث عن أطفال، فهذا يعني أموالاً أكثر، لأن أعضاء الأطفال أكثر نُدرة، وتتضاعف قيمة العضو ثلاثة أضعاف بمجرّد أن.. نحن عرضنا مليون دولار لافتداء الولد! قاطعه سعود. مليون دولار

يا أستاذ حمدي، إذا كان المهرّبون يطلبون من الإرتري افتداء نفسه بعشرة آلاف دولار، فهذا يعني أن فدية مشاري تساوي فدية مئة إرتري. صمت سعود برهةً ثم رفع سبّابته إلى وجه الرّجل؛ وإذا جمعنا قيمة أعضائه.. أخرج جهاز الآيفون من جيبه وفتح تطبيق الآلة الحاسبة؛ ثلاثون ألف لكليته، أم أن هذا سعرُ الكلية الواحدة؟ لنقل ستون ألف لكليتيه، مئة ألف لقلبه و..

رفع فيصل رأسه، نظر إليه ذاهلاً:

سعود شقاعد تسوي؟

أربعين ألف للخصيتين.

تحسب قيمة ولدي بالدولار يا كلب؟

أربعين ألف للرئتين، كل فص بعشرين؟

چب يا كلب!

عشرين لعيونه.. كل عين بعشرة؟

وقّف يا حيوان!

خمستعش لأسنانه.

رفع سعود عينين ذاهلتين إلى أخيه. صاح فيصل:

أنت حيوان؟! قاعد تبيع لحم؟!

فيصل المجموع 275 ألف دولار، أقل من مليون!

كان ينظر إلى الوجوه فاغر الفم، كأنّه لا يفهم.

عيل ليش ما اتصلوا؟

أعاد الحساب ثانية، وثالثة، ورابعة. صاح فيصل:

صدّقت ألحين إن ولدي مات؟

- لأ ما صدّقت! وإذا ما شفته ميّت بعيني، ما راح أصدّق!

لأنك حمار.

هجم فيصل على شقيقه، زردهُ من قميصه، ضغطه على الجدار. دفعه سعود فسقط، عاود النهوض واشتبك الاثنان. تشاتما، تضاربا، كلٌ يقبض على عنقِ الآخر. وثب حمدي للقبض على سعود فيم أمسك مصطفى بفيصل. صاح سعود:

يا ويلك تقول مشاري مات! يا ويلك!

زأر:

مشاري ما مات!

أفلت فيصل نفسه من يدي مصطفى. اندفع إلى أخيه وقبض على ياقتهِ، ألصقهُ على الجدار وصرخ:

يا الثور! يا الحمار! إنت متى تفهم؟! متى؟! احنا عرضنا مليون دولار، ونقدر ندفع أكثر من مليون، نقدر ندفع مليون دينار! تدري كم يسوى المليون دينار؟ ثلاث ملايين دولار، يعني فدية ثلاثمية إرتري يا حمار! احنا نقدر ندفع أكثر، ويدرون إن احنا نقدر ندفع أكثر! بس ما اتصلوا، ليش ما اتصلوا؟ ليلحين ما فهمت؟ إنت حمار؟ إنت غبي؟ سعود مشاري مات! مشاري مات! مات! مات!

انهال بالصفعاتِ على وجهِ أخيه، تخشّب سعود في مكانه، مغمض العينين، يغالب دموعَه.

العريش. فندق سويس إن.

21 ذي الحجّة 1431

7:15 صباحًا

خرج سعود من الحمّام يلفُّ وسطه بمنشفة بيضاء. كان فيصل لا يزال ممدّدًا على سريره، مشرع العينين، يحدّق في السّقف.

أحس سعود بثقل الصَّمتِ الرّازحِ على صدره، إنه يومهم الرّابع في العريش، وما حدث أمس الأوّل في مكتب العـــزازي؛ الشَـــجار، الشَّتائم، الصَّفعات التي تواترت على وجهه. ما كان ينبغي أن يحسب سعر أعضاء الولد، ما الذي اعتراه؟ كيف وسِعَهُ أن يقوم بأمرٍ كهذا؟ بمجرد عودتهما إلى الفندق، تهاوى فيصل على سريرِهِ، وغابَ بعينين مشرّعتين. أطفأ سعود الأنوار، ثم انحنى على أخيهِ وقبّل رأســـه؛ أنـــا آسف. همس له وهرع خارجًا ليمضي الليلة أمام البحر، مع سجائره وزجاجته ودموعه.

ذهب صباح الأمسِ إلى مديرية الأمن، قضى اليوم بطوله مـــع مصطفى وهويشل. زاروا المشرحة للمرة الثانيـــة، ســـاروا بمحـــاذاة السّلك الحدودي، باحثين عن جثثٍ جديدة، مرّوا ببعض استراحات البدو، يتحسّسون أخبارًا عن الولد، وبقية الأطفال. لا أحد يعـــرف شيئا عنهم. عندما عاد إلى الفندق، كان شقيقه لا يزال مســـتيقظًا، يحدّقُ في السّقف. بالكاد تبادلا بعض الكلمات، أخبره عما فعلوه، ثمَّ غادر الغرفة ثانية، هاربًا إلى البحر عاد بعد أن سمع أذان الفجر، كان

شقيقه مستيقظًا. تبادلا كلمات بلا معنى؛ أنت مستيقظ؟ وأنتَ ثمل. ألقى بجسده على السرير، نام ساعتين. فيصل لم ينم.

حلَّ يومٌ آخر وشقيقه على حالِه. كانت رؤيته تؤلمــه. ومــع ذلك، كان بقاؤه في الفندق مصدر راحة، فهو يستطيع أن يبحــث بشكلٍ أفضل.. وحيدًا.

توجّه إلى غلاية الشاي وضغط الزّر، فتح كيس السُّكّر بأسنانه، أفرغه في الكوب. أنا رايح أشوف حمدي مرة ثانية. فيصل لم يعلق. اختلس نظرة إلى أصابع أخيه، كانت ترتعش. صبَّ الماء المغلي على كيس الشاي؛ سم بو مشاري. جلس على حافّة السرير، يديرُ الملعقة في الكوب. اعتدل فيصل جالسًا وتناول الكوب من يدِه. ارتشــف القليل. أطرق سعود:

اليوم رابع، وفريق الخبراء لا حِس ولا خَبَر.

نظر فيصل إلى الكوب بين يديه، تمتم:

ناس تموت، ولا حِس ولا خبر.

منذ شجارهما في مكتب العزازي وفيصل يتجنّب الحديث عــن ولده. كأنه يريد أن يتصالح مع فكرة موتِه، وهو.. المتشبّث بفكــرة حياته حتى النهاية، ماذا بوسعه أن يفعل، سوى أن يخرج إلى الصَّحراء كل يوم، مفتّشًا عن يقين، رغم شكوكه كلّها؟

هكذا ترسمُ الخارطة نفسها، واحدهم يهوي في اليأس، والآخر ينــزفُ في الأمل. اختلس نظرة إلى أخيه، نحوله البــالغ والخطــوط العميقة حول فمِه، الحزن السّحيق في عينيه. هل يحقُّ لــه أن يطالبــه بعيش لحظة أخرى مع فكرة المصير المجهول؟ من الأفضل لفيصــل أن يستسلم. اليأس لأمثالِهِ رحمة. أمّا هو، فلعله الشخص الوحيد الــذي

تبقّى لمشاري، وعليه أن ينوء بالجرحِ كلّه.

نهض ليعدّ لنفسه كوبًا من الشاي.

على فكرة، مازن يسلّم عليك.

الله يسلمه.

واتصلت على سمّية أمس.

لم يعقّب.

ما ودّك تعرف أخبارها؟

ردّت الكويت؟

لأ

جاها أحّد من أهلها؟

ما تَبــــي أحد.

قاصِر عليها شي؟ محتاجة فلوس؟

لأ

سكت، كأنّ هذا هو كل ما يريد معرفته عن زوجته.

سمية كل يوم تروح المستشفى.

نظر إليه مقطّبًا:

سمّية مريضة؟

لأ

عَيَلْ شفيها؟

ازدرد سعود ريقه. اصطنع ابتسامة.

تروح وتاخذ معاها المصحف، تقعد عند راس روينا وتقرا قرآن. تنطرها تصحا.

- سمّية تقرا قرآن عند راس روينا؟!

نظر إليه فاغرًا فمه، ثمّ صار يقهقه، حتى شرق بريقه. اختلط ضحكهُ بنوبة سعالٍ، وسالت دموعه غزيرة. احتقن محجراه وتورّد خداه وهو ينظر إلى أخيهِ، كمن يغرق في ضحكٍ طوفانيّ، يطلب المساعدة.

الفصل الثاني عشر

جَرير

يومٌ تاسع عشر

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

26 ذي الحجّة 1431

5:02 مساءً

كان المساء، وكان جالسًا تحت أشجار الجوافةِ، يتفصّد العــرقُ من إبطيهِ ومسامِ وجهه. مسح جبينه وخدّيهِ بطــرفِ إزاره وقعــد مستندًا إلى الجذع النّحيل لشجرة الجوافة، ورغم طراوة الهواء وعبق الأرض، كان مزاجهُ معكّرًا.

سرح بعينيه لمعاينة سيقان الدخنِ النابتة حديثا. سيجيء موعــد القص الأول قريبًا، وإذا جرى الأمرُ مثل السنة الماضــية، فســيمنحه المحصول ثلاث قصّات. فكّر بأن عليه شراء كمية جديدة من اليوريا. ثم انحرفت أفكارهُ بعيدًا، صوب الغرفةِ المغلقة في آخر الحقل.

كان يحاولُ أن يفهم ما حدث بالأمس. كان قد اعتنى بالصــبي جيّدًا، أطعمه وسقاهُ وضمّد جرحه وجلب له الدواء، وعندما بــدأ يستعيد عافيته صار يستعيد عناده. ما زال يجأرُ كالحيوان كلما حاول لمسه، الشيء الوحيد الذي تغيّر هو أن الكرّ والفرّ، الرّفس والصراخ وبقع الدّم، أشياء صارت تروقه، تدوّخه، تجعل الدماء تتدفّق مجنونــة في شرايينه.

لم يكن يفهم لماذا يطيبُ له أن يقاومه، أن يرفسِ بين يديه مثل جدي، أن يعض على ساعده، وكمّ اللذة التي استشعرها وهو يهوي بيده على الصبي ويضغطه من كتفيهِ على الفرشة الإسفنجية، لذة طازجة وغير مكتشفة، معتمة ودامية، كأنّه اكتشف في أعماقِه قارّة سوداء.

رأى في الأمسِ حلمًا غريبًا، كان سيّده الجنوبيّ الأصم يتكلّم، واقفا تحت أشجار الجوافة، يناديه. لم يكن يصدّق ما يسمع، كان صوته مختلفا عن همهماته التي اعتاد سماعها. هرع إليه وجلاً، وجد سيّده يمدُّ ساعده نحو البوابة ويصرخ فيه: چلِه جاؤ! كان يتكلم بالأردية، كان يطرده.

أرسل عينيهِ باتجاه الماعز التي أطلقها من الحظيرة. كان الذكر ينطحُ الأنثى صوب الجدارِ، وقد استجابت له قهرًا. عاد يفكّر في الصغير؛ كل صباحٍ، عندما يلقي عليه نظرة فاحصة، يشعرُ بالضيق أمام الجسد المدمّى، المليء بالقروح وآثار الجَلد. يقرّر أن يكون ألطف معه، ولكنّ هذا لا يحدث، يخرجُ الماردُ من أعماقهِ ويصير الشيء الوحيد الذي يراه هو بهجته الخالصة. إن مجرّد التفكير في تلك الحجرة المغلقة، والصبي المحتجز في داخلها، تجعله يرتعش.

إن الصبيَّ لن يطيعه أبدًا، بات يعرف ذلك الآن، ولكنّ هذا لم يعد يزعجه، على العكس هو يريده ألا يطيعه، يريد أن يراه هاربًا بعريهِ المضحك داخل القفص الذي قرّره من أجله، يريده أن يصرخ كالقرود، أن يرفس بين يديهِ مرارًا قبل أن يقضي فيه حاجته، ويريد أن يرى على جلده شيئا من الدَّم.

زفر. استعاذ من الشيطان الرجيم. ترى، لماذا تجيء اللذة بهذا الوضوح، ثمّ تجيء تبعاتها بهذا الالتباس؟ ما الذي يضايقه؟ نكّس

رأسه، رأى بين قدميهِ الحافيتين نمالٌ تتكالبُ على نملة. نملة حيّة تُقطّع إلى أجزاء. لقد رآى هذا المشهد مرارًا في حياتِه. تكون النملــة قــد فقدت ساقًا أو ما شابه، فأصبحت عاجزة عن الدفاع عن وجودها. قطّعوها إلى أعضاء والتهموها. لم يكن الأمر لأجل الأكــل، كــان متأكدًا. لقد فعلوا ذلك للانتقامِ من ضعفها. الحيواناتُ تفهمُ الأمــر جيّدًا. عاد ينظرُ إلى الجدي. تحاول المعزة تفاديه، يطلق ثغاءه الغاضب وينطح بطنها بقرنيه. يصعد على ظهرها فتكفُّ عن مقاومته. هذا ما يحدث كل يوم؛ في البدء تتجاهله المعزة، تحاول تفاديه، تهربُ منه، ثم ستعرفُ بأن عليها أن تدفع ضريبة ضعفها. إنها قــوانين العــالم. الضعيف يدفن ثمن ضعفه، إن الأمر هو بمثابــة اعتــذار، فالعــالم لا يتسامح مع الضعف، ولا يغفره، وإذا كانت هذه هي قوانين الطبيعة كما خلقها الله، فمن يكون هو ليقوم بكسرها؟

يومٌ واحدٌ وعشرون

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

28 ذي الحجّة 1431

7:20 صباحًا

استيقظ متأخرًا. ألقى نظرة على الصبيّ؛ كدمات جديدة. احتقانٌ في الجفنين. دم متجلّط في زاوية الفم. بثورٌ تتكالبُ أسفل بطنه. التفاصيل التي ما عادت تضايقه.

توجّه إلى الحمّام، يكادُ يعتاد التأخر عن عمله. ماذا سيحدثُ لو أنه لم يفق في تمام الخامسة فجرًا؟ الحقل سيبقى مكانه، والبذور والماء والسمادُ والشمس والقمر لقد أخلص لعادة سيّدهِ في الاستيقاظ في الخامسة، ولكن الآن، وقد رحل السيّد إلى الأبد، صار سيّد نفسه، وله أربابٌ يدفعون أجرته في حوالاتٍ مالية تجيئه من الرّياض، وليس عليهِ أن يقسو على نفسهِ بسبب ساعتينِ من النوم، خاصّة وأنه بات يسهرُ كثيرًا في الأسبوعين الأخيرين.

كان سعيدًا باسترجاع مذاق ليلةِ الأمس. الكهرباء الزرقاء العجيبة التي سرت في أحشائه، كلّ خليةٍ من جسده كانت ترقص. في كلّ خلية توجد كارينا كابور بالساري الأحمر، لقد بلغ من النشوة حدًا لم يعد يشاهد معه إلا السطوع، ثم رأى سوادًا ونجومًا. كانت

أفضل ليلةٍ على الإطلاق، ولن يشعر بالذنب بسبب متعةٍ مختلسة، في حياةٍ تملؤها الوحدة والصمت. اغتسل وتوضأ ثمّ قضى ركعتيّ الفجر. خرج إلى الحقل رائق المزاج. كان للهواء طراوة وإحساسٌ ملحي يحبّه، شمسُ الجنوب ترسلُ دفئها على الجبال البعيدة. لقد مرّ أسبوعان على زراعة الدخن، واليوم هو موعد التسميد الثاني. أخرج كيس اليوريا من غرفةِ المؤن. أدخل يدهُ في الكيس وقبض على المادة الحبيبيةِ البيضاء. همّ بنثرها على سطحِ التربة عندما لمح على سطحِ وريقات الدّخن بقعًا زغبية. تحسّسها بأصابعهِ غير مصدّق؛ لا يمكن! عفن؟!

ركع بين سيقان المحاصيل يتفحصّها بعينين مذعورتين، قفز راكضًا بين خطوط الدخن والذرة، تفحّص أحواض الخضراواتِ في زاوية الحقل؛ البصل، الخيار، الخس، البطاطا.. كانت مريضة كلّها، رازحة تحت وطأة البقع البيضاء.

لقد مات حقلهُ.

لم يسبق أن حدث ذلك له، لم يسبق هددته الدودة التي تقتلُ الزهيرات، ولا البيوض في القناديل المزهرة، ولا الخنفساء التي تتلف القندول، ولا ثاقبات الساق، ولا الجراد، الفئران، الطيور وخنافس الحبوب، الجفاف والرطوبة الزائدين، كل شيء. كان يعرفُ أعداءه على نحوٍ ممتاز؛ أعداء حقله. ولكن، هذي البقع؟ كيف استطاعت الوصول إلى حقله؟ أين كان ولماذا لم ينتبه؟ أحس بيدين قاسيتين تطبقان على صدرهِ، استرجع ما رآه في المنام، صوت سيّدِه يملأ أذنيه وهو يشير إلى مدخل الحقل ويصرخ؛ **چلے جاؤ!**

صارَ يركضُ كالمجنون يتفحّص نباتاته وهو يضربُ رأسه ويصرخ. اللعنة! اللعنة! سقط في هاويةٍ سوداء وهو يرفع ساعديهِ

بتضرّعٍ نحو السماء. ماذا سأفعل الآن؟ لقد حلّت به الكارثة، فهو يعرفُ هذا المرض جيّدًا، يعرفُ بأن الحلّ الوحيد الممكن هو أن يقتلع النبات المصاب، وأن يحرقه. والأدهى أنه يعرفُ شراسة العفن الأبيض. لا يمكنك أبدًا أن تعيد زراعة محصولك في أرضٍ سبق وأن ظهر فيها هذا المرض، الأرضُ التي هي حقله كله! سقط على ركبتيهِ قابضًا على رأسهِ، أخذ يضربُ التربة بيديهِ، كمن يحاول إيقاظ ميّتٍ من لحظة النزع الأخيرة.

لقد لفظه الحقل، لقد طردهُ. من هو خارج الحقل؟ من يكون إن لم يكن مزارعًا؟ لماذا تاه؟ عاود النهوض وأخذ يقتلع النباتات المريضة مزمجرًا. يلعن ويطلق صرخاته في الفضاء. سمع صوت ضحك. التفت ناحية البوّابة، كان أربعة من الفتيان الأفارقة يقفون عند مدخلِ حقله، ينظرون إليهِ وهو يقتلع زرعه ويكتمون ضحكاتهم. دبَّ الذعر في قلبه. ما الذي جاء بهم إلى هنا؟ لماذا عادوا؟ ركض نحوهم يصيح؛ لا! لا! ماذا تفعلون هنا؟! من أنتم؟ ماذا تريدون؟ لم يفهموا. أشاروا له بأيديهم؛ كأنّهم يحملون مجارف، يحرثون الأرض. إنّهم يبحثون عن عمَل. هزّ رأسه وهشَّ عليهم بيديه؛ **چلي جاؤ! چلي جاؤ!** غادروا يبرطمون. بعضهم يتهامس ويضحك. إيّاكم والعودة مجدّدًا! صاح فيهم.

التفت نحو الحجرة المغلقة. من الجيّد أنه لم يكن يلوّح بيديهِ من بين القضبان ويصرخ. أحس بقلبهِ يهوي في معدته. من الخطورة أن يحتفظ به أكثر. عليهِ أن يتخلّص منه بسرعة!

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

28 ذي الحجّة 1431

11:20 ليلاً

تسمّرَ لدقائق أمام الباب المعدني للحجرة المغلقة، يحسبُ خطوتهُ القادمة.

الهلالُ شاحبٌ والظلامُ عميق. عيناه حمراوان، أنفاسه مضطربة. كان يعرفُ ما هو مقدمٌ عليه، ويعرفُ أيضًا بأنه خيارهُ الوحيد.

ماذا كنت تتوقّع؟ يسأل نفسه. لم يكن واردًا أن ينجو أنت تعرف بأنها مسألة وقت، مع هذا الجسد المتقرّح النحيل. تعرفُ أنّك سوف تفيقُ من نومك ذات صباح، وتلقي نظرة على الصغير لتجد أنه قد فارق الحياة. سيكون له ذلك الشكل الباردُ للجثث الحزينة، فكٌ مرتخٍ وعينان مشرّعتان على جزعِ الرّحيل. ستضع رأسك على صدره لتتحسّس نبضه، ستجده باردًا ومتيبّسًا. ستلفّه بمنشفة وتدفنه تحت أشجار الجوافة. سيصيرُ جثمانه سمادًا لأشجارك، وفي النهاية، كما ترى، فإن الحقل ينتصر؛ الحقلُ يأخذ اللحم والدّم والعظم والرأس، وأنت تأخذ لذتك العابرة، وينتهي الأمر إلى الأبد. ينتهي وجوده المؤسف من دون أن ينتبه أحد. لماذا ترتجف يدك؟ أنت تعرفُ بأنّه يمكن لحياته الهشة، التافهة والمضحكة أن تُسحق فيم أنت تعتصرهُ بقبضتيك، وتعرفُ بأنّ الضعيف يدفع للقويّ ثمن ضعفه، أنّ الأمر صحيحٌ هكذا، طبيعي وبديهي، وأنك كنت ستقدّمه في النهاية

للحبّ الوحيد الممكن في حياتك؛ أرضك المزروعة بالدخن والذرة. كلّنا في النهاية نعود إلى الأرض، بعضنا يفعل ذلك أسرع من الباقين. هذا كلّ شيء. إذن، لماذا ترتجف يدك إذن؟ هذه لحظةٌ حتميّة، وأنتَ تعرفُ ذلك. هل ظننت أن بوسعك الاحتفاظ به للأبـــد؟ ومجـــيء الأفارقة اليوم، بأسمائهم وضحكاتهم الهازئة، أزعجك، أرعبـــك. مـــا الذي أعادهم بعد كلّ هذه الشهور؟ تتحسّس عنقك بأصابع مرتجفة. اللعنة. أنتَ فقط لم تتخيّل أنّ الأمر سيحدث بهذه السرعة، يؤسفك أن تفارقه بسرعة، فقد أمضيت معه وقتًا سعيدًا، ولكن عليك الآن أن تفيقَ من سكرتك وتستجمع أفكارك، كلما تمَّ الأمر بسرعةٍ كـــان أفضل.

تبسط قبضتيك أمام عينيك وتتملى في الجروح الصـــغيرة الـــتي تعمر راحتيك وأصابعك. كنت قد قضيت اليوم تذرع الحقل طـــولاً وعرضًا، تقتلع المحاصيل وتحرقها في نارٍ عملاقـــة، تلعـــن وتجـــأرُ في الفضاء. حقلك بوار، لا عائدات لهذه السنة. ماذا سيفعل ورثة الشيخ إذا عرفوا بالأمر؟ إذا حضر العفن الأبيض تمـــوتُ الأرض، العفـــن الأبيض يدمّرُ كلّ شيء؛ هذا الصبيُّ عفنٌ أبيض.

هل يمهلك الورثة لإعادة إحياء الأرض؟ أم يبادرون ببيعِ الحقل بمجرّد أن يلاحظوا المشكلة؟ وهل يمكنك أن تخاطر؟ ماذا لو توافـــد الراغبون بالشراء، واكتشفوا وجود الصبيّ، مثلما كدتَ تفتضح اليوم مع الفتيان الذين جاءوا يطلبون العمل. سينتهي بك الأمر متدليًا من رقبتك. تهزُّ رأسك. يجب أن ينتهي الأمر بسرعة. تلتقط المفتاح مـــن الأصيص بجانب الباب، أصابعك ترتجف. لماذا أنتَ متردّدٌ هكـــذا؟ فكّر بكل الأمور التي تغيّرت بمجيئه. لقد أشعل في أعماقك جوعًـــا

أبديًا، كارينا كابور لم تعد تكفيك، ملمس التربة ورائحة الهواء وعذوبة الماء، كل شيءٍ فقد مذاقه القليل، الباهت، بمجرد أن اكتشفت ملمس بشرته، وسمعت صرخاته. تدخلُ المفتاح في ثقبِ الباب وتسمع صرير انفتاحِه، تدخلُ غرفتك حيث الإضاءة الزرقاء المرتعشة لأسطوانة النيون تنتشرُ في المكان، مع رائحة الكاري والأرزّ تتضوّع من أوعية السفرطاس الفارغة. تناهت إليك آهة، رأيت الصغير في زاويةِ الغرفة يبلل قطنة بالمحلول الكحولي، اختلسها من دولابك، وأخذ يمسح بها على التقرّحات بين فخذيه. بجرد أن انتبه إلى حضورك قفز من مكانهِ مثل قرد، كوّرَ قبضتيه، ولوّح بهما في وجهك استعدادًا لتوجيهِ لكماته. دقّات قلبك تتسارع، هل يعقل أنك أضعف مما تظن؟ وهل تدفع ثمن ضعفك؟ تنظرُ إلى الصبيّ، ملطخًا بالبقع السوداء، يتألم في كلّ شبرٍ من جسده، ومستعد لمعركةٍ أخرى..

يومٌ ثانٍ وعشرون

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

29 ذي الحجّة 1431

12:03 بعد منتصف الليل

لم يسبق أن نظر إليه الغريبُ بهذه الطريقة.

كان من عادته أن ينظرُ إلى أطرافه، ساقيه، بين فخذيه، رموشه وأظافره. هذه المرّة كان ينظرُ إلى عينيه، وكانت عيناهُ محمرّتين، مليئتين بالعروق.

لوّح بقبضتيهِ في وجههِ وأطلق صرخاته التي ما زال يأمل أن تفلح في إبعاده. تمتم الرّجل بهدوء؛ آو لاركا. هذه المرّة لم يكن يطبطبُ على الفرشة الإسفنجيّة، ولم تكن كارينا كابور ترقص. اقترب الرجل خطوتين وقبض على ساعِده وجرّهُ خارجًا.

كانت المرة الأولى التي يغادرُ فيها الحجرة منذ مجيئه؛ تنفس هواء الخارج، دافئا ورطبًا. كان الليل كثيفا وقد امتلأت السماء بنجومٍ مجنونة. سار تشده يدُ الغريب دون أن يقاوم، قلّب وجهه في السماء ذاهلاً. قطعا الحقلِ الفارغ، رأى أثر النار التي أشعلها الغريبُ صباح اليوم وهو يقتلع الزرع ويضربُ صدره ويجأر. سار يباعدُ ما بين ساقيهِ، القروح بين فخذيه تلسعه، ومع ذلك كان مأخوذًا بما

يحدث، قلبه يخبطُ بجنون بعد أن لامسهُ الليل.

سار الرجل باتجاه الأشجار الثلاثة المحاذية للسّور عن يمينه، جره من ساعدهِ ليقف مستندًا على جذع الشجرة الوسطى. تسمّر مكانه يبحلق فيه، لم يكن يفهمُ شيئًا. رطن الرجل كلامًا لم يفهمه، ثم مال بجذعهِ والتقط شيئا من الأرض. اتسعت حدقتاه وهو يرى ذلك الشيء المعدني الصقيل يلمع في يده؛ سكينٌ كبيرة جعلته يشهق، تدفق السائل الدافئ بين فخذيه، لسع في طريقه إلى الأرض كلّ جروحِه.

زاغت عيناه وهو يرى على سطح المعدن انعكاس شارب الرجل وشفتيهِ. أراد أن يركض لولا أن خارت ركبتاه. سقط، تكوّرَ على جذعه، أحاط رأسهُ بساعديهِ وصار يصرخ.

انحنى عليه الرّجل وقبض على شعرهِ بيسراه، شدّ رأسه إلى فوق فامتد العنق الهزيل طريًا ومتأهبًا للنّحر. كان يغمض عينيه وهو يشهقُ مرارًا ويهذي، لم يكن يفهم كلمة مما قالها، رطن الرجل مرّة ثانية. لم يفهم، ولكنه حاول أن يومئ، أن يخبره بأنه يفهم وإن لم.. قال سأطيعك في كل ما تريد، سأفعل لك ما تحب، سأصبح خادمك. ردّد وعوده الهزيلة للرجل الذي لم يفقه كلمة منها، فتح عينيه فالتقت نظرات الاثنين، وللحظةٍ بدا أن كلًّ منهما يفهم الآخر على أفضل نحوٍ ممكن.

نظر إلى الرجل القابض على رأسه يلصق حافة سكّينه بعنقهِ، كانت عيناه مبللتان، وكانت هناك اهتزازة طفيفة في يده. خرج صوته متحشرجًا وهو يهمس؛ نظام شجاع الدّين. رأى اختلاجة صغيرة في فمِه، كأنه إذا ناداه سوف يكفُّ عن.. نظام شجاع الدين! همس ثانية، الدموعُ تسيلُ من عينيه؛ نظام شجاع الدّين، لا تقتلني.

جازان. مزرعة الشيخ إبراهيم حجاب

29 ذي الحجّة 1431

12:21 بعد منتصف الليل

ارتخت أصابعه في تلك اللحظة وسقطت السّكّين من يده. بسط راحتيهِ أمامه وحدّق فيهما غير مصدّق؛ هل يعقل أنــه لا يســتطيع قتله؟ ماذا اعتراه؟ لماذا ضَعُفَ؟ لم يغفر لنفسه؛ الأسوأ من القتــل ألا تكون قادرًا عليه. دبَّ الوهن في صدرهِ، وصار لقلبــه ثقــلٌ غــير مسبوق، مال بجذعه إلى الصبيّ، أسند رأسه إلى الجذع وأخذ يبتهل، بعينين زائغتين نحو النجوم التي تملأ وجه السماء. ساعدني يا الله، قال وهو يرفع كفيهِ بالتياعٍ فوق رأسه الحسير. عندما اســتجمع شــتاته وجد أن الصغير قد شرع في الرّكض. نطّ وتبعه ركضًا. سرعان مــا أدركهُ وقبض عليه. يدٌ تمسك بمعصمه وأخرى تشده من شعرِه؛ سار وراءه يدفعه بركبته باتجاه الحجرة. بدأ الصغير يســتجير ويصــرخ، كمن يُعاد إلى الجحيم. كمّم فمه بيدهِ وسار به إلى الداخل. ألقى به في الزاوية، ارتطم بالجدار، عاود الصبيّ النهوض وصار يذرع الحجرة جيئة وذهابًا، يضربُ الجدران بقبضتيهِ، ويطلق من أعمــاق صــدره صرخاته الملتاعة. ماذا سيفعل الآن؟ لقد تنفس هواء الخــارج، ورأى الليل، كاد أن يفقد حياتهُ ولم.. لقد ذهب إلى الموتِ وعاد، وصــار الصراخ جؤارًا وحشيًا مفرغًا من اللغة، صوتًا حيوانيًا نقيًا في ألمِــه. ماذا سيفعل؟ لا يستطيع الاحتفاظ به. كان سيقتله في لحظة لولا أنه

شرّع عينيه الكبيرتين عليه، ورأى فيهما الليلُ والخوفُ. لماذا أخافه خوفه؟ يحتاج أن يفعل شيئا. فقد الصبي صوابه، صار يقذفُ بكل الأشياء التي يستطيع التقاطها، السّفرطاس، الملاعق، علبة المناديل، زجاجة الكحول، أشرطة الفيديو وكارينا كابور بداخلها، ثم هرع إلى الجدار الآخر حيثُ صورُ نسائه، انتزعها ومزقها أمامه. كان يعلنُ عصيانه الشامل صراحة، وبدا بجسده الدامي مثل بثرةٍ متقيّحة.

فتح الدولاب واستخرج منه حبل النايلون الأزرق الذي استخدمه لتقييده به في الليالي. رفس الصبي بين يديه فيم هو يلفُّ الحبل حول قبضتيهِ، ثم حول قدميه. كان قد حَزَّهُ بشدّة حتى احتقن الدم تحت جلده. انتزع من إحدى المساند حشوة إسفنج ودفعها في فمِ الصغير ثم ألصقَ شفتيه بشريطٍ لاصق. عاد إلى الدولاب وأخرج فنيلة قطنية بيضاء، مزقها بأسنانه وصنع من مزقها عصابةً عصب بها عينيه. ألقى عليه نظرة أخرى، كان متكورًا على نفسهِ، تمامًا كما رآه أوّل مرّة. حمله على كتفهِ وخرج به ثانية.

مدّده على الكرسي الخلفي، ثم صعد خلف المقود وهو يرغي ويلعن. كانت أصابعه ترتعش من فرطِ الانفعال وهو يدير المفتاح في السيارة، تصاعد هدير المحرّك، وتدفق غناء عابدة بروين من المسجّل. أطفأه بسرعة. كان يحتاج إلى كثيرٍ من الصمت لكي يفكّر. سار على مهلهِ في شارعٍ يعرفهُ حتى وصل إلى شارعٍ رمليٍ يتفرّع يمينًا، يمتدّ طويلا بين المزارع والصباريات والتين الشوكي. كانت السيارة تختض على الطريق الوعرة، المتربة، تخترق طبقات الظلام. يجب أن يجد مكانًا نائيًا وغير مأهول، وهو ما لن يكون صعبًا في جازان. الأهم ألا يتمكن الصغير من تمييز طريق العودة، لو قدّر له، لا سمح

الله، أن ينجو. ما لم يستطع هو فعله، سوف تفعلهُ قوانين الطبيعة. الأرجح أن الذئاب لن تستغرق وقتًا طويلاً حتى تعثر عليه.

فكّرَ في كل الأماكن التي رآها منذ مجيئه إلى جازان، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. أيها خياره الأفضل؟ الكهف! تذكّر الكهف، على أحد السفوح القريبة، على مبعدة ساعتين من حقله، حيث اعتاد أن يذهب في موسم الأمطار لقطف الكادي. ابتسم بارتياح، لماذا يفكّر بذلك من قبل؟ كهفٌ مظلم، غائرٌ وصموت، تعمره الوطاويط.

مكانٌ مثاليٌ لكي تترك صبيًا للموتِ وحيدًا.

جازان. الكهف

29 ذي الحجّة 1431

2:15 بعد منتصف الليل

كان يحملُ الصبي على كتفهِ عندما وصلا إلى الكهف، وكانت العُصابة قد ارتخت عن عينيه، وصار قادرًا على رؤية المكان. توغل خطوتين في الظلمة، لفح وجهه الهواء البارد الرطب، امتلأ أنفه برائحة حامضة، وسمع رفيف أجنحة. كان يعرفُ بأنها تتدلى من السقف فوقه، مثل خطاطيفٍ سوداء تتربّص به. شعر بالحكّة في ساعديهِ وفخذيه ومؤخرة عنقه، أخذَ يهرش. يريد مغادرة المكان بأقرب فرصة، تحسّس بيديه الجدار الحجري، ثم أجلس الصبي وأسنده إلى الجدار. سلَّط على وجهه إضاءة هاتفه الخلوي. كان يحدّق فيه بعينين مذعورتين، باكيتين، ويطلق من خلفِ القماشة المحشوة في فمِه توسلاته المكتومة. لم يكن ليفهم شيئا مما قاله لو أنه حرّر فمه على أية حال. قال له هذه وطاويط تأكل الفاكهة والعسل، دماؤك لن تستهويها، ولكنني متأكد من وجود ذئاب في مكانٍ كهذا، لقد سمعت طوال سنواتٍ عويلها آتيًا من بعيد. كان الصبي يومئ له كما لو أنه يفهم. زفر؛ لقد انتهى كلّ شيء، لاركا. هزَّ الصبيُّ رأسه، كأنه يرفضُ ما قاله. أضاء وجهه بشاشة الموبايل، تفحّصه لمرةٍ أخيرة: سوف أتركك الآن. قال وهو يضع يده على رأسِهِ، يتخلل غرّته بأصابعه. كان شعره وسخًا ودبقًا. نزع عنه الشريط اللاصق، تفل الصبي الحشوة من فمِه وصار يردّد اسمه مرارًا؛

نظام، نظام! نظام شجاع الدين! نظام.. ابتسم بحزن؛ مشاري! كانت هذه المرة الثالثة التي يناديه فيها باسمِه منذ ثمانية عشر يومًا، فترة تعارفهما. بدأت الوطاويطُ تصفق بأجنحتها الجلدية الملساء، أخذ يغرز أظفاره في لحمه وهو يهرشُ ساعديهِ بقسوة. وداعًا لاركا، **خُدا حافظ**. تراجع إلى الخلف حبوًا، يخاف إن رفع رأسه أن يصطدم بوطواطٍ لعين. رفع الصبي وجهه ينظر إلى الوطاويط ويصرخ مذعورًا.

غادر الكهف، وخرجت بعض الوطاويطِ معه. أخذ يعدو خببًا، نزولاً إلى الوادي، حيث سيّارته. أطلق قدميهِ للركض، وخيّل إليه مع كلّ خطوةٍ تأخذه أبعد أنّ الوطاويط تتبعه. عندما ابتعد كفاية ورأى أنه بات بعيدًا، بين شجيرات العرعر، يلهث. تناهى إليه صراخ الصغير، نحيلاً بالكادِ يُسمع: نظام! نظام! صر بأسنانه؛ الأحمق! إنه ينادي الذئاب. استحث خطاه نزولاً، عبر بين الأشجار، يستضيء بشاشة هاتفه. صراخ الصبي يزداد نأيًا، ولكنه لا زال قادرًا على سماعه. لم يعد يردّد اسمه. تسمّرت قدماه وأرهف السّمع. ترى ما الذي يقوله؟ بصعوبةٍ ميّز تلك الكلمة: آو! آو! آو! إنه يقولُ تعال، وهو، في الأسبوعين الأخيرين، لم يعرف لهذه الكلمة إلا معنى واحدًا؛ الفرشة الإسفنجية المهترئة، الغطاء ذو المربعات الكحلية والخضراء، كارينا كابور عارية البطن، ويدهُ التي تجوس بشرته، تجتاحه، تعتصره، تفكّكه، تفتّته فتافيت، فتافيت. كان يعرفُ جيّدًا ما يعنيه ذلك، كان يدعوهُ، بكلّ الاستسلام الممكن، لكي يعيده إلى حجرته المغلقة. أيّ شيءٍ يبدو الآن أفضل من كهفٍ مظلمٍ، تسكنه وطاويط سوداء.

ثقلت قدماه. كفَّ لوهلةٍ عن المشي. يكادُ لا يصدّق أن الصغير قد خضع له أخيرًا، متأخرًا جدًا، بعد أن قرّر أن يتخلّص منه إلى

الأبد. تذكّر حقله، زرعه المبقع بالزغب الأبيض، أرضه التي اجتاحها الوباء. وجد نفسه يقهقه غير مصدّق، لقد نجح في ترويض هذا المتوحش أخيرًا، لقد نجح! ولكنّ ذلك حدث بعد أن تغيّر كلّ شيء. لقد دُمّر الحقل، وسيجيء أصحاب الأرض بمجرد أن يفطنوا بالأمر، والأفارقة تذكّروا حقله فجأة، وهو.. هو نفسه، هل سيعود بإمكانه يومًا أن يحبَّ أحدًا، دون أن يرغب بإيلامه؟ آو! آو! آو! آو! لا زال يدعوهُ، يقولُ له تعال، خذني إلى جحيمك، أنا لَك. آو نظام، آو.. آو.. هزّ رأسه أسفا؛ يا للخسارة، لاركا.

سار خببًا، يذرع التلّ نزولاً، كأن ثمة من يطارده. عندما وصل إلى السيّارة وشغل المحرّك، عرف بأنه لم يكن يهربُ من الوطاويط، كان يهربُ من الصّوت. كانت كلمة "آو تتردّد في جنباتِ صدره، كلما ارتطمت بضلعٍ كسرته.

أدار المقود وابتعد مسرعًا عن الجبل، عائدًا من الطريق ذاته، هذه المرة كان ينظر إلى المقعد الخلفيّ، عبر المرآة الأمامية، ولا يجدُ أحدًا. رغم ذلك ظلّ الصوت يملؤه. شغّل المسجّل، وامتلأت السيارة بصوت عابدة بروين، أجمل صوتٍ في باكستان، ومع ذلك كان غناؤها مخترقًا، مليئا بالثقوب، تتخلله صرخاتٌ حادّة، آتية من بعيد: آو نظام، آو! آو! آو!

عندما عادَ إلى بيتِه وجد منشورًا مثبّتًا على بابه، عليهِ صورة لصبيٍّ مبتسم بسنٍ ناقصة، يرتدي بلوزة حمراء، ويقف خلف سورٍ معدنيّ تتسلقه الأزهار. أخذ قلبه يضرب بسرعة وتصبّب العرق من جبينه. من الجيّد أنه تخلّص منه. تملّى في صورةِ الصبي السعيد المفقود، إنه لا يشبه صبيّه في شيء. قرأ مبلغ المكافأة؛ مليون دولار. من

الجنون أن يخاطِر. مزّق الورق ودخلَ حجرتهِ. وجـــدها فارغـــة، لم يعهدها بهذا الاتساع من قبل. كانت الفوضى تعمّ المكان ومع ذلك أحس بأنه متعب. متعبٌ أكثر مما ينبغي لكي يلملـــم نثـــار الأيـــام الماضية. تساءل إن كان يستطيع نسيان ما حدث؟ ربما يتظاهر بـــأنّ صبيًا هزيلا ومحمومًا وجريحًا لم يعترض طريقه صدفة، وأنه لم يأخذه إلى فرشته الإسفنجية و لم يفعل به ما فعل. كان الصّـــمتُ مطبقًـــا، تتخلله صرخات الصغير الآتية من داخله. شغّل صنبور الماء لمجـــرد أن يسمع في غرفته صوتًا، توضأ وصلى الوتر ثم ذهب إلى النوم.

ظلّ صوتُ الصبي يتردّد مدويًا في رأسه. كان داخلـــه مليئـــا بالصراخ، الصراخ في رأسه وفي قلبه، في عينيه وفي فمه. في صـــابونة اللوكس، في خرير الماء، في رفيف الوطاويط، في غناء عابدة بروين، في سرّة كارينا كابور، في الجبال والصمت. كان الصراخُ يتفجّر من أعماقهِ، تمامًا كما ينفر الدم من فوّهة جرحٍ طازج، حتى وجد نفسهُ يضغط أذنيه بيديه ويصرخ، يصرخ أكثر من الصراخ، يصرخ لكـــي يغلب الصراخ، ولكنّ حنجرته تيبّست وعروقه جفّت. كان وجـــهُ الصبي في كل مكان، يطارده مثل لعنة.

غفا لدقائق، من فرطِ التعب، ثم استيقظ هلعًا. رأى في المنـــام سيّده يقف تحت أشجار الجوافة ويرجعُ صرخات الصبـــــي مـــن داخله؛ آو! آو! آو! نطّ من مكانه، التقط مفتاح سيّارته وقفل عائدًا كالمجنون.

وصل خلال ساعتين. وقف عند مدخلِ المغارة، يكاد لا يصدّق نفسه؛ ما الذي أعادني إلى هنا؟ اللعنة! اللعنة لاركا! فتح ضوء هاتفه، جثم على ركبتيهِ وتسلّل إلى الداخل حبوًا. لماذا أفعل كل ذلك مـــن

أجلك؟ لماذا؟ أين أنت أيها اللعين؟ تحسّس ظلمة المكان بيديه وانحرف باتجاه الجدار الأيمن، اقترب خطوات أخرى ليتعثر بالصغير، ملتفًا حول نفسهِ، مثل دودة أرض. يداه المقيّدتان تغطّيان رأسه، وقدماه مضمومتان إلى بطنه. اقتربَ منه ولمسه في كتفِه، كان باردًا. قرّب ضوء هاتفه من وجه الصغير. كان شاخص العينين، مزموم الفم، يرتعشُ مثل عصفور. لاركا؟ همس، لم ينظر إليه، لاركا؟ لقد عدت. ألست سعيدًا بعودتي؟ وكأنه فقد سمعَه فجأة. ما بك؟ ألا تراني؟ لقد عدتُ. أنا نظام. هزَّه من كتفيهِ، ولكنه كان غائبًا، رغم عينيه المشرّعتين على الرّعب، كان قد تاه عنهُ تمامًا.

عرف بأن خطبًا ما قد حدث للصبيّ أثناء ساعاتِ غيابه، كأنه جُن؟ هل فقد السمع والنطق؟ ماذا جرى لك يا ولد؟ أتركك ساعات قليلة وتنساني هكذا؟ كانت عينا الصبي مسمّرتين على السقف، بؤبؤاه يرتجفان. لا، لاركا.. لا. أنا لم أعد لأجدك هكذا! ماذا سأفعل الآن؟ قبض على وجهه بيديه وهو يهمس؛ استيقظ لاركا، استيقظ. ولكنّ الصبي لم.. زفر؛ لماذا عاد؟ لم يعد يريد الاحتفاظ بالصغير. لديه مشاكل يقلقُ بشأنها. لا يفهم لماذا عاد، كل ما كان يريده هو أن يتخلّص منه، أن ينام في السابعة ويستيقظ في الخامسة، أن يزرع الدخن والذرة، وألا يتأخر عن صلاة الفجر. يكادُ لا يصدّقُ ما حدث له خلال الساعات القليلة الماضية.

لاركا؟ مسح على رأسهِ، يحاول انتشاله من غيابه. أنا عدتُ لاركا.. سنخرج من هنا الآن. هل تسمعني؟ مشاري؟ قرّب فمه من أذنه وهمس باسمه مرارًا. ولكنّ استجابة واحدة لم تبدر عن الوجهِ الملطّخ بزرقة الرّعب، باستثناء أنه أرخى جفنيهِ، وغاب.

لا عليك، لا عليك، أنا هنا الآن. حمل الصبي بين ذراعيه. هبط به الوادي باتجاه سيّارته، مدّده على الكرسيّ الخلفي وشغّل المحرّك. في تلك اللحظة لمح سربًا من الوطاويط يملأ السماء، كانت تعود أفواجًا إلى الكهف. رفع عينيه عاليًا وغمغم:

يبدو أن مئات الوطاويط قد ارتطمت بوجهك، لاركا.

الفصل الثالث عشر

مَصير

العريش. فندق سويس إن

26 ذي الحجّة 1431

6:36 صباحًا

تفتحُ الباب على مهلٍ، لا تريد تبديد العتمة في الدّاخل. تأملُ أن يكون شقيقك نائمًا، ولكنك تجده مستلقيًا على ظهره، بعينين مشرّعتين، يحدّقُ في السّقف. تقتربُ وجلا، تقبّله بين عينيه؛ صبّحك الله بالخير بومشاري. لا يرد. لم يغادِر صمته منذ ثلاثة أيّام، بدا وكأنّه يهوي في متاهة. هذا هو اليوم الثامن لكما في العريش، ويبدو فيصل رازحًا تحت طبقاتٍ من الصَّمت البليغ، الصَّمت الذي يقولُ كل ما يمكنُ قوله عن الأمل المغشوشِ والألم الحتمي وما بينهما. صوتك لا يصلُه، ولا محبّتك. لقد غاب تمامًا، وأنت هنا، وكلّ هذي الصحراء لك لكي تضيع في أعماقها، لكي يأخذك التيهُ ولا تستعيدك منه أبدًا.

بتّ تعرفُ الآن بأنّ الأمر أكبر منك، وأن أحدًا لا يستطيع إنقاذ أحد، ولا حتى نفسه. أنت وحدك الآن، ومشاري لم يعُد له غيرك. مذ جئتما إلى سيناء وأنت تقضي لياليك ساهرًا على شاطئ النخيل، مستندًا إلى جذعٍ ميّت، مع سجائرك وزجاجتك ودموعك، حولكَ مئاتٌ من أصدافِ البَحر. الموجُ يغني في أذنيك، الليلُ يتنزّل على قلبك.

تؤلمك تفاصيل العريش؛ مدينة نصفها بحر، نصفُها صحراء. مثل الكويت. كل شيءٍ هنا يحيلك إلى هناك؛ ملامح البدو، الغترة

الحمراء، الدشداشة البيضاء، كل شيءٍ يعيدك إلى وقتٍ كانت فيه الحياة ممكنة. تسرحُ في البحرِ الأبيضِ الهادرِ أمامك. تعي كم أنتَ بعيدٌ عن زرقة الخليج. تفرغ زجاجتك في جوفك، تطفرُ دمعة. مازن يتّصل في موعده، ومثل كلّ ليلة، تسهرانِ على الهاتفِ لساعات، تحدّثه عما رأيته وسمعته في هذا المكان، تقفلُ الخطّ قبل أن يغلبك البكاء. ما رأيته هنا، ما تراهُ كل يوم، يفوقك بكثير. حتى مازن لا يصدّق ما تقولُه. تخيّل.. تقولُ له، كل يوم نمشّط الحدود، نتظاهر بأننا نبحث عنه، ولكننا في الحقيقة نبحثُ عن جثته. صاحبك يزفر. ما الذي يجعلكم متأكّدين من موتِه؟ لا أريد أن أكذب على نفسي أكثر. ولكن لا يوجد دليلٌ على.. اسمع، حاول أن تفهم ما أقوله. أسمعك سعود. اتّصلتُ بالأمس على مؤسس مصلحة الطبّ الشرعي، الرجل يؤكد بأنه لا يمكن إجراء عملية لنقل الأعضاء في سيناء. ماذا تقصد؟ لماذا توجّه الخاطفون إلى هناك إذن؟ عملية نقل الأعضاء تحتاج إلى تجهيزات متطوّرة لا يمكن توفيرها هنا، ومع ذلك فهناك جثثٌ كثيرة نجدها بأعضاء ناقصة، لقد رأيتُ بعضها بعيني. جثث مُخاطة البطون، مقلوعة الأعين، محاجرُها محشوّةٌ بالقطن. كيف تفسّرُ الأمر إذن؟ كيف تفسّر كل هذه الجثث. تزفر عمليات نزع الأعضاء تحدثُ في المدن. لا يمكن! صاح مازن. القاهرة؟ تزدردُ ريقك؛ أو تل أبيب. تشعرُ بصمت صاحبك يزدادُ ثقلاً. أحد شيوخ القبائل، ممن عمل في التهريب، أبلغ هويشل بأنهم يقبضون مبالغ هائلة لقاء استلام الجثث من إسرائيل، حتى يقوموا برميها في الصّحراء. الجريمة لم تقع هنا، هذا المكان هو مجرد مقبرة، إنهُ مكبٌّ نفاياتٍ بشرية لشبكات الجريمة، وهو الأمر المثالي جدًا لهم، لأنَّ أحدًا لا

يستطيع التصدّي للأمر، هل فهمتَ؟ هل تقصد بأنّ الأطفال الـذين تبحثون عنهم، قد نقلوا إلى إسرائيل؟ ونحن ننتظرُ جثامينهم في سيناء، الأمر بهذه البساطة. هل يعلم فيصل بكلّ هذا؟ لا طبعًا، ولكن ما معنى إخفاء الأمر عنه؟ لقد سلّم بموتِ مشاري منذ أيّام. وهل سألت حمدي عن الأمر؟ طبعًا. الرّجل سألني؛ وماذا كنت تظن؟ يعتقد حمدي بأنها شبكة تضمّ وزراء وجنرالات وحاخامات من دولٍ متفرقة، يقول بأنّ هذه الجرائم تحدثُ منذ 1992، عندما لاحظ الفلسطينيون اختفاء جثث قتلاهم وعودتها بأعضاء ناقصة. ثمة وثائق تؤكد بأن جنود الاحتلال يسرقون أعضاء القتلى، ولكن يبدو أن الأعضاء الفلسطينية ليست كافية، وأنهم بحاجة إلى مزيدٍ من الجثث، من النوع الذي لا يثير ضجة. تصمت، تستلُّ من سيجارتك نفسا آخر. يقول حمدي بأن الجمعية أحصت عشرات الآلاف من المتسللين في السنوات الخمس الأخيرة، ولكن الرقم الذي تعترف به إسرائيل أقل من ذلك بكثير. أين ذهب البقية؟ أنا لا أفهم يا سعود. أنا أشرح لك. يقوم السمسار الإسرائيلي باستلام المتسلّلين من المهرِّب البدوي، يأخذهم إلى المستشفى لإجراء فحوصات، مؤكدًا لهم بأنهم قد وصلوا إلى بر الأمان، وأن هذا إجراء لسلامتهم وحسب. عندما يغمض الأفريقي عينيه ظانًا بأنه قد غادر مسرح الجريمة، تحدث الجريمة الكبرى. يتمّ تخديرهم، انتزاع الصّالح من أعضائهم، ثمّ إعادتهم إلى الصّحراء. هويشل يقول بأن السمسار الإِسرائيلي يدفع للمهرّب مبالغ طائلة لكي يستلم منه الجثث المفرّغة من أعضائها، يلقيهم الأخير في الصّحراء فيبدو الأمر كما لو أنّهم ماتوا في الطّريق، مثل آلافِ الآخرين.. تسمع صاحبك يحوقل، يتحسّب، يشتم، يلعن، أما

أنت، فكل هذه اللعنات ما عادت تسعك، الصمتُ وحده يكفيك. يسألك؛ وما الذي ستفعلونه الآن؟ حمدي يحاول الاتصال بجمعيات حقوقية في تلّ أبيب لتحسّس أخبار الأطفال، وأنا.. البكاء يغلبك، تختنق، تصمت. ألو؟ سعود؟ أنت بخير؟ تلتقط أنفاسك. لا أريد أن أرجع إلى الغرفة وأرى فيصل.

ولكنك ترجع إلى الغرفة، وتراه. شقيقك يتحوّل كلّ يومٍ إلى تمثال. الجمود يعتري كل شيء، إلا أطراف أصابعه.

تستحمُّ على عجل، تفتح الدولاب تبحث عن ملابس يومٍ جديد. هذا يومٌ آخر، حيث أيّ شيءٍ يمكن أن يحدث لأيّ أحد. بالأمس وصلتك رسالة من حمدي، أنت ومجموعة من المتطوّعين، تطلب حضوركم إلى "مقبرة الصدقة" لإعادة دفنِ الجثث التي نبشتها الكلاب. تزفر؛ مقبرة الصّدقة، سجن رمّانة، معبر رفح. كلّ يومٍ تتعرف على حلقة جديدة في هذا الجحيم الأسود. مقبرة الصدقة تقع خلف سور المقبرة الرسمية؛ حيث يدفن مجهولون، ويصلّي عليهم مجهولون. جهلٌ على جهلٍ، تلمحُ في آخره بصيصًا. قبل يومين كنتَ هناك، تضربُ قلب الأرض بالمجرفة والعرق يرشح من جلدك. تتساءل؛ هل لا زال الأمر متعلّقًا بالصبيّ؟ أم أنه متعلّقٌ بك، رغبتك في فعل شيء، أيّ شيء، إلا أن ترى الأشياء تفلتُ من بين يديك، وتنتهي إلى الأبد.

تجلس على طرفِ السَّرير، تميل بجذعك لارتداء جوربيك، تعتدل قاعدًا تنظرُ إليه، بصعوبةٍ تحكي؛ أعرف بأنك لا تريد الكلام. تجرحُ كلماتك حنجرتك. تستدرك؛ أقصد، أعرفُ بأنك لا تستطيع الكلام.. فيصل، أعرف ذلك، أفهمه، ولا ألومك فيه أبدًا، ولكنني

أعرفُ أيضًا بأنك تسمع كلّ ما أقوله، وأن الأخبار التي أنقلها همّك. عيناك مثبتتانِ على الباب أمامك. ومثل كلّ صباح، سوف تقص عليه مشاهداتك، ما رأيته وما سمعته. تبدأ بأخبار الكويت. الاتصالات التي وردتك. أمّك التي. أخبار الصّحف. تويتر وفيسبوك. سمية، مازن. روينا المعلقة بين الحياة والموت. ثم تبدأ في سردِ آخر التطوّرات؛ لم أخبرك عمّا حدث بالأمس فيصل. ذهبتُ لرؤية حمدي العزازي في الجمعيّة، كان في طريقه إلى سجن رمّانة، فذهبتُ معه. تزدردُ ريقك. تغمض، فتمتلئ بالوجوه السَّوداء الممصوصة، العامرة بالأخاديد. الأعين الحمراء والأسنان الناقصة، تغمض ولا ترى أثرًا لمشاري. يفزعك ألا تجده. تردف؛ طلبَ حمدي من السجناء أن يرسموا لوحاتٍ عما رأوه في بيوت الأشباح. لقد رأيتُ تلك اللوحات، إنها مؤلمة فيصل. تسكتُ برهة، تختلس نظرة إلى أخيك. كأنه لم يسمع حرفًا. ما الذي بوسعك قوله لكي تنتشلهُ من صمتِ الأمواتِ هذا؟ تواصلُ بعناد؛ وصلتنا أخبار عن شاب سوداني نجح في الهرب من بيوت الأشباح. كان مختبئا في مسجدٍ في رفح. اسمه محمد رمضان، اختطفوه من أسوان، ثم حبس في كوخٍ خارج العريش. طلبوا منه ثلاثين ألف دولار يا فيصل، وهددوه بأخذ كليته إن لم يدفع ما عليه. يقولُ بأنه شهد مقتل أربعة. عندما تصلك معلوماتٍ كهذه تتساءل عن هؤلاء الأربعة، هل هم من الذين دفناهم يا ترى، أم تراهم ما زالوا في العراء؟

تزفر. التفاصيل التي تملؤك جارحة. الأسماء، الوجوه، الألوان؛ الأسود ما أكثره. التحقيق عاجز عن اقتفاء أثر أطفال اختفوا منذ ثمانية عشر يومًا. وأنت، من فرط عجزك، بتّ تتطوّع في غسل

وتكفين جثثٍ متحللة، ممزقة، تنث نتانة لا تُحتمل. في البدء كانت الرائحة كفيلة بإبعادك، تخفي أنفك بكمّك وتركض خارجًا. تعتذر لحمدي؛ أساعدكم بالدّفن. يومئ لك ويبتسم متفهمًا. ابتسامته تؤذيك، تعود خببًا، تمسكُ بخرطوم المياه، ترى المياه تتدفق على الأجساد المسجاة، يتسلّل إلى قلبك شعورٌ بارد، ثمة جمال غريبٍ في غسل ميّت لن يعلم بموته أحد. تصوبنُ الأجساد المثقوبة بالرّصاصِ والأسياخ بماء السّدر. رائحة الكافور تنفذ فيك عميقًا. تبدأ بالرّأس، الجنب الأيمن، ثم الأيسر. تبقي القماشة البيضاء على عورتِه وتكتفي بوضع نهاية خرطوم المياه على بطنه لينسكب الغسلُ البارد على بقيّته. إحدى الجثث سقطت منها ذراع. كانت تحمل آثار عضّاتٍ لضوارٍ. وضع حمدي الذّراع داخل الكفن، وقال بأنه لا ينبغي أن يدفن المرء ناقصًا. تنقل الجثث إلى مقبرة الصدقة، حيث يقف حمدي للصلاة. تقف على يمينهِ وتتبعه، تشعرُ أن بوسعك أن تتبع هذا الرجل إلى آخر الصحراء. تحملون مجارف وتكيلون الرّمل على الجثامين، تضعون طوبة عند رأس كل قبر؛ اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده.

تفيض عيناك. من حقّ الجثث أن تُدفن يا فيصل، إنني أؤمن بالدّفن، عندما أدفن جثة مجهول، أشعر بأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يحافظ على تماسكي بعد كل الذي حدث. تسكتُ لحظاتٍ، تختنق؛ لو أنني عثرتُ عليه، ميتًا. أقسمُ لك، سأكون سعيدًا، أقسمُ لك. تمسح عينيك. أنا أقسمتُ ألا أبكي. ترى الاختلاجات تطفو على وجه أخيك، عيناه تلمعان. تمسح عينيك بطرفِ بلوزتك. لا يجب أن أضعف الآن، تقول محدثًا نفسك. أنا مرتابٌ في الأمر فيصل. تنهض نحو غلاية الماء. تفتح القنينة، تسكب الماء، تضغط الزّر. حمدي أيضًا مرتاب. تخيّل

فيصل، تصل الجثث إلى المشرحة مسروقة الأعضاء، ويصدر في حقّهــا تصريحٌ بالدّفن، تقيّد أسباب الوفاة في التحقيق على أنها "قيد البحــث"، ولكن الجثامين تدفن قبل البحث، ولا شيء يذكر عن الأعضاء المفقودة. لا تفحصها النيابة العامة ولا الطبّ الشرعي. كيف تبحــث في ســبب الوفاة إذا كنت قد دفنت الجثة بنفسك، و لَمَ العجلة؟ تفتح كيس القهوة بأسنانك وتفرغهُ في الكوب. تصبّ الماء المغلي. هويشل أيضًا مرتــاب، هويشل أكثر من مرتاب، بالأمس كنت أسأله عن انتشار السلاح بــين القبائل، صاح في وجهي؛ لأن القوات الأمنية ما نفعتش! لا جــيش ولا شرطة ولا قوات حرس حدود ولا أيّ حاجة. تحرّك الملعقة في الكوب. هل كنت تعرف بأنّ كامپ ديڤيد هي كلّ هــذا؟ طــرق التــهريب معروفة للجميع، لماذا لا يحدث شيءٌ لإيقافِ الأمــر؟ مــن المســتفيد؟ اللعنة. تجلس على حافّة السرير، بخار القهوةِ يلامس وجهــك، تقــرّب الكوب من أخيك؛ تشرب قهوة، فيصل؟ يغمض أخوك عينيه، صمته ما زال. تزفر؛ اسمعني جيّدًا، أنتَ لن تسمع مني كلامًــا كهــذا ثانيــة في حياتك، لذا من الأفضل أن تثمّن ما سأقوله. أريد أن أقولَ فقط بــأنني أتّفق معك، ربما لا يوجد هناك أمل، ربما ينتهي الأمر هنا، ولكنّ هذا لا يعني نهاية كلّ شيء. إنه قد يعني نهاية أشياء كــثيرة، نهايــة أبوّتــك، وزواجك، وإيمانك.. ولكن ليس أنا فيصل، ليس أنا.

تضع الكوب على المنضدة، قريبًا من رأسِه، تأمل أن يقنعه ضوع بخارها بشرب القليل. سوف أذهب الآن. تنهض نحو إلى الباب، يدك على المقبض، تلتفتُ لمرّة أخيرة؛ أتدري فيصل؟ ربّما.. لو أنك تفكّــر في طفلٍ آخر، طفل مفقود آخر لا يكون ابنًا لك، طفلٌ مثل.. مــريم أكبر، ربما سيكون من الأسهل عليك أن تنهض وتفعل شيئًا.

مديرية أمن العريش (قسم أوّل)

26 ذي الحجّة 1431

8:47 صباحًا

كانت سيّارة الأجرة تأخذ سعود إلى المقبرة، عندما اتّصل به مصطفى، يطلبُ حضوره العاجل. خير؟ تسارعَت خفقاتُ قلبه. شيءٌ ما في صوتِ صاحبه أنبأهُ أنّ الأمر هام. عندنا معلومات جديدة. أجابهُ من فورِه؛ أنا جايّك.

خلال نصفِ ساعةٍ كان سعود في مركز الشرطة، وكان كلٌّ من مصطفى وهويشل في انتظاره. شعر بقلبِه يهوي، عندما لم ير في وجهيهما ما يشي بإمكانية بشارة. هل وجدتم جثة؟ أشار له مصطفى بالجلوس: اتفضل اقعد.

جلس على طرف الأريكة، متوثّبًا. نظر إلى صاحبه يستحثه على الكلام. لدينا معلومات. قال مصطفى. معلومات عن ماذا؟ تبادل مصطفى وهويشل النّظر. تكلّم يا مصطفى! كان قلبه يخبطُ بشدّة. اسمع ما حدث يا باش مهندس. قال هويشل. اتصلتُ بعد لقائكم بعددٍ من المهرّبين، واستفسرت عما إذا كانوا يعرفون شيئا عن أطفال جيء بهم عبر البحر الأحمر. أخبرهم بأن أحد هؤلاء الأطفال من الخليج وأن أسرته سوف تدفع مبالغ ضخمة لكل من يدلي بمعلومة عن مكانه، ولكن أحدًا لم يعرف شيئًا عنهم. ليلة أمس اتّصل بي أحدهم وقال بأن لديه معلومات عن شخصٍ يطلق على

نفسه لقب "السّلطان"، وهو شخصٌ مقتدر يملك الكثير من المال والسلاح، يخبئ الأفارقة في كهفٍ يبعد تقريبًا مسافة أربعين كيلومتر عن مدينة نخل. مكانٌ ناء لا يوجد فيه أحد، يبعد عن العريش حوالي 150 كيلومتر. يقول بأنه ثمة بيت مهجور هناك، تتردّد عليه سيارات بيضاء طويلة، تشبه سيارات نقل البضائع، أو سيّارات إسعاف.. قاطعه مصطفى؛ لقد تحققنا من السجلات، السُّلطان هارب من حكمٍ بالمؤبّد وقد نبذه أهل قريته لما اشتبهوا بتورّطه في مافيا المتاجرة بالأعضاء، ولكن أحدًا لا يعرفُ مكانه.

ولكننا نعرفُ مكان الكهف، صحيح؟ سأل، وهو يشعرُ بيدين حديديتين تطبقان على قلبه. مش حتبلّغ أخوك؟ هز رأسه نفيًا. ما في داعي. اعتدل واقفًا؛ يجب أن نتحرّك فورًا. كان يريد أن يصل إلى نهاية هذا النفق اللعين، أن يحفر في كبدِ الصحراء ويستخرج من أحشائها البقية الباقية من أجسادهم الصغيرة حتى يتمكن من غسلها وتكفينها ودفنها والصلاة عليها. كان يعرف بأنهم تأخروا كثيرًا، أنَّ من غير الوارد أبدًا أن يرجئ الخاطف قتلهم وتشريحهم وانتزاع أعضائهم ثمانية عشر يومًا، أن الأعين والأكباد وفصوص الرئة والقلوب الصغيرة قد تكون الآن في طريقها إلى أمريكا، في ثلاجات بلاستيكية صغيرة، مليئةٍ بالثّلج المبشور.

سيناء. الكهف

26 ذي الحجّة 1431

12:04 ظهرًا

وصلوا إلى بناء بسيطٍ من طابقٍ واحد، مبني من الطوب والإسمنت، نوافذه مغطاة بالخشب، سقفهُ من صفيح. كان ينبتُ في الخلاء وحيدًا، صامتًا، غير بعيدٍ عن سلسلة من الجبال، وقد تناثرت من حوله كسورُ القرميد وأعمدة الخشب.

حاصرت دوريّات الشرطة البيت، وتأهبت للاقتحام. نزلت فرقة الشّرطة والتفّت حول البيتِ المغلق على أسراره. ركل مصطفى الباب فاقتحمت الشرطة المكان، لم ينتظر سعود أن يُسمح له بالدخول.

رأى سعود على الأرضية الكثير من معلّبات الفول والبازلاء. قشور بصل، علب عصير، فصوص ثوم يابسة، وأطباق بلاستيكية فارغة. دخل إلى إحدى الغرف، حيث سبقه مصطفى. رأى طاولة وكرسيًا مكتبيًا. فتّش في الأدراج، وجد مستندات لحوالات مالية من تل أبيب. وقف ينظرُ إلى صاحبه؛ كان يخبّئهم هنا قبل تهريبهم. أومأ المحقق. هل قال هويشل شيئًا عن سيّارات لنقل بضائع؟ نعم، سيارات بيضاء تحملُ ملصقات إعلانية. نظر سعود إلى الحوالات؛ إنها مبالغ كبيرة، أكبر مما كان سيحصّله لو أنه اكتفى بتهريبهم. لقد باعهم أحياء، واستعادهم جثثا. ارتجف بؤبؤاه؛ ولكن أين هم؟

هرع سعود إلى الخارج، ومع كلّ خطوةٍ تأخذه أبعد، كانت الصور تتدافع داخل رأسه، كأنّه شهد الأمر برمّته. غرفة عمليات معقّمة، مضاءة بشكلٍ جيّد، أسرّة بأحزمة للتثبيت. أوعية بلاستيكية محكمة الإغلاق، مليئة بالثلج المبشور، تستقبل الأعضاء الطازجة، الحارّة، الخارجة من فرن الحياة مباشرةً. مشارط، مباضع، وحتى وسائل خياطة الجرح؛ العلم في خدمة الجريمة. أغمض عينيه، رأى الأطفال مخدّرين، قيّدت أقدامهم وأيديهم إلى الأسرّة، نيامًا وأحياء على أتمّ ما يمكن. الباب يفتح ويدخل الطبيب، بزيَ الجراحين الأخضر. يمدّ يده بقفاز النايلون، تناوله الممرضة المشرط، يغرسه في البطنِ الصغير ليدلي بوجهة نظره فيما يجب أخذه وما لا القلب، الرئة، الكبد، الكليتين صالحتين أيضًا. يصعد إلى الرّأس؛ هذا وجه طفلٍ ميّت منذ دقائق. يفتحُ الجفنين بإصبعيهِ. يطلب مشرطا ويقطفُ عينيه. يلفّه بالقماش الأبيض ويتجّه إلى الطفل الآخر. سوف ينتهي بسرعة، خلال ساعتين أو أقل، سيكون قد حصدَ ثروة، وسيكون لديه الوقت الكافي لكي يعود إلى بيته مبكّرًا، يتناول عشاء طيّبًا مع زوجته وأطفاله، ويفكّر في الإجازة التي سيدفعُ ثمنها من عمولة نشاطه الإضافي.

لم يكن غاضبًا، كان يشعر بصفاء الأفكار تتدفق داخل رأسه، تأتيه من قلب المشهد، لم يفته شيء؛ رائحة الدم، احتكاك المباضع، خشخشة الثلج وهو يطمرُ عينين سوداوين. كان ينفذ عبر الزمن ويرى كل شيء. سمع مصطفى يسأله؛ وين رايح؟ لم يردّ، قدماه تتحركان من تلقائهما. ركل الباب وغادر. لحقه مصطفى وهو يشل. مشى كأنّ هناك من يستدعيه. هو الذي صار دفّانًا، لم يكن بوسعه إلا أن يبحث عن القبر.

نعم، قبر. قبر واحدٌ لكل الأطفال، ريثما يحضر أحدٌ من عـالم الكبار ويعيد كل واحدٍ منهم إلى مكانه، قبرٌ صغيرٌ ومـؤلم يخصّـه وحده. وجه مشاري يملأ عينيه. أحس فيهما ببللٍ مفاجئ، مسحهما بظاهر يدِه وهو يعدو باتجاه المرتفع الصخريّ على مبعـدة نصـف كيلومتر من البيت. انتهى الامتدادُ الرّملي عند المرتفع. ما هي أقوالك أيّها الجبل؟ فتح الجبل فمه فرأى مغارة. تمتمَ: هذا مثالي.

دخلَ الثلاثة في العتمةِ الباردة، مشوا على الأرض هونًا، يتبعون الرائحة التي لا يخطئها الأنف. وجدوا على الأرض معلبـات فـول وبازلاء، أكياس بصل، علب عصير، هياكل عظمية، وجثث متحلّلة. غطّوا أنوفهم بأكمامهم، توغّلوا في المغارة فرأوا في بـروزًا رمليًـا، بالكادِ يغطّي ما دونه. جثا سعود على ركبته، مسح التراب بيديـه، ظهرت ذراعٌ صغيرة، سوداء، مبتورة.

دس يديه في القبرِ، أخذَ يحفرُ سريعًا، يلقي بالرّمال يمينا ويسارًا، ينبش بطنِ القبر ويصيح: مشاري! أنا جيت بابا! أنا جيت!

العريش. فندق سويس إن

26 ذي الحجّة 1431

7:04 مساءً

كان فيصل ممدّدًا على ظهرهِ، لا يزال، عندما عاد سعود إلى الغرفة، مبلّل العينين، محمر الأنف. دخلَ الغرفة وجلاً، أشعل الأضواء، تنهّدَ، ثمّ جلس على حافّة السرير، وناداه: بو مشاري. حدس فيصل، من تحت طبقاتِ الصّمتِ الجاثمة على صدره، بما سيخبره به أخوه. أرهف سمعه لكل كلمةٍ قالها، عن البيت المهجور والحوالات البنكية، الكهف القريب، والقبر الجماعي.

أخبره شقيقه بأن البحث الجنائي قد عثر على سبعة وعشرين جثة، بعضها لرجالٍ ونساء بالغين، بعضها لأطفال. من بين هؤلاء، كانت هناك خمسة جثامين شبه متحلّلة لأطفالٍ قدّر الطبّ الشرعي أنهم فارقوا الحياة منذ أربعة أيّام. بعضهم كان بلا أيدٍ. أغلبُ الظن أنهم أطفالنا. ارتجف صوتُه.

أحس فيصل بالصّمت ينحسر. وبأنه استعاد فجأة قدرته على الإحساس بالألم. ثنى ذراعيهِ على جانبيه، حاول أن يدفع نفسه للجلوس. كان جسده ضعيفًا. مدَّ يده لأخيه:

سعود، أبـي أقعد.

دس سعود ساعِده أسفل ظهر أخيه، ساعده ليعتدل جالسًا. تمتم فيصل:

أبـــي ماي.

هرع سعود يناوله قنينة مياه. شرب جرعتين ثم ما لبث الماء أن سال على جانبي فمه عندما بدأ يصيح، مقوّس الفم، مثل طفلٍ تائه.

شعر كلاهما بأنه قد بلغ نهاية النفق الذي خاله سرمديًا. لقـــد عثروا على مكان الجريمة، وعلى الرفات، وبقي أن يتحقـــق الطـــبّ الشرعي من هوية الضحايا، أن يتسلموا البقية الباقية مـــن جســـده ويعودوا به إلى الكويت لدفنه.

خلاص يعني؟

تقريبًا. باقي شويّ بس.

مدّ فيصل يده باتجاه أخيه، احتضن الاثنان بعضهما وبكيا نهاية الطفل الذي مات في سابعتِه، مات قبل أن يعيش. البكاء الذي قاوماه طوال الأيام الماضية، طوال تسعة عشر يومًا على وجـــهِ التحديـــد، البكاء الذي غلبهما وغلباه في صولاتٍ وجولات، تدفّق مثل طوفانٍ وأغرق كل شيء. ضرب فيصل على صدرِهِ بقبضته وصاح: مقهور! مقهور! كان يفكّر بصنوفِ العذاب التي تجرّعها ولده. لو أنّه مـــات وحسب، مات وحسب! نشق سعود، نهض ليجلب علبة مناديـــل، وضعها بينه وبين شقيقه. لا أريد التفكير فيما رآه أثناء اختطافه، قال وهو يعصر عينيه في المنديل. أريد أن أتذكّره في تلك الأيام، عنـــدما يلحّ عليَّ لأخذه إلى سوق الحمام، وهو يقفز فـــوق المـــوج علـــى الشاطئ. وهو يتزحلق على كثبان الرّمل في الصبية، وهو يركض بين رشاشات المياه في حوش البيت، و.. شكله عندما تلتمع عينه وهـــو يرى باتمان ينهضُ من رعبِه، خارجًـــا مـــن الكهـــف، بـــين آلاف الوطاويط.

تدفق البكاء مالحًا وأغرق العالم. كان يجيء في موجاتٍ؛ نشيج فصمت، نشيجٌ فصمت. مرّت ساعات والاثنان يفتحان السدود للألم لكي يأتي ويأخذ مكانه الشرعي في المشهد. انتحبا حتى نال منهما الإعياء، عاد فيصل يتمدّد على ظهره، نهض سعود ليعدَّ لأخيه شايًا.

هل أخبرتَ سميّة؟ سأل فيصل. هز سعود رأسه؛ غدًا، إذا تعرّفنا على الجثمان، نتّصل بها ونخبرها.

مستشفى العريش العام

27 ذي الحجّة 1431

7:06 صباحًا

في صباح اليوم التالي كان مصطفى ينتظرهما في بهــوِ الفنــدق ليأخذهما إلى المستشفى لمعاينة الجثث. عندما نــزلا إلى البهو، كانت أعينهما محمرّة ومحاجرهما محتقنة. كانت خطوةُ سعود مستعجلة، فيم سار فيصل على مهلهِ كأنّه يخافُ السقوط. هكذا كانا عندما التقــى بهما لأوّل مرّة في مطار شرمِ الشّيخ.

فينكم؟!

نظرا إليه باستغراب. توتّره طاغٍ.

خير مصطفى، شصاير؟

نركب السيّارة بالأوّل.

في السيّارة أخبرهما بأنّ المستشفى أصدر تصاريح بالدّفن للرفات التي تمّ انتشالها مساء الأمس. قطّب سعود جبينه؛ بهذه السرعة؟ هــل قيّدوا سبب الوفاة؟ رفع كتفيهِ بحيرة؛ قيد البحث. انتفخــت أوداج سعود؛ ما الذي يحدث يا مصطفى؟ لمَ العجلة؟ أنت تعرف.. ســبعة وعشرون جثة، بعضها متحللة منذ أشهر، إنهــا أكــبر مــن طاقــة المشرحة، والثلاجات لا تعمل، والرائحة.. قاطعه ســعود؛ وهويــة الضحايا، وتحليل الــ DNA، والجريمة التي وقعــت؟ أنــا لا أفهــم يا سعود. أنا مثلك لا أفهم. كان ذاهلاً، كمن تعرّض إلى خيانة. هل

أخبرتَ حمدي؟ أومأ. لقد جُنَّ جنونه. ومتى الدّفن؟ ازدرد ريقهُ قبل أن يجيب؛ نقل البالغون منهم للدفن منذ ليلة أمس، أبقينا على الأطفال حتى يسعكما التعرّف على.. لم يُكمل. صمتوا جميعًا.

خلال عشرة دقائق كانوا في المشرحة، كانت رائحة اللحم المتحلّل تتفشى في المكان. أُخرجت رفات الأطفال من جوارير الثلاجة، وامتلأ الممر بمحققي الطبّ الشرعي وعناصر المباحث. نظرَ كلٌّ من سعود وفيصل إلى بعضهما بذهول، كانت الجثامين مخاطة البطون، محشوّة بالقطن في محاجرها، وكلّها سوداء.

وين ولدي؟! سأل فيصل، وهو يحدّقُ في الجثث غير مصدّق. هذه المرّة أيضًا لا أثر لمشاري. هل هذا يعني أنّه ما زال حيًا؟ أم أنّنا بحثنا في القبرِ الخطأ؟ أحس بارتجاجاتٍ مؤلمة في داخله، لم يدرِ إن كان سعيدًا أو حزينًا. كان تائهًا.

سمع شقيقه يوثق إفادته لمحقّقي الطبّ الشرعي، سرح في الجثث الصغيرة، كانت لها تلك الهيئة القصيّة للموت، العصيّة على الإدراك. خمسة أطفال اختطفوا، اغتيلوا، سرقت أعضاؤهم ودفنوا في قبرٍ واحد، دون أن ينتبه أحد. سمع نفسه يهتف؛ وين مريم؟! لا يدري لماذا تذكّرها. التفت الجميع ناحيته. لا أثر لمريم أيضًا، مريم محمد أكبر، طفلة هندية من دلهي، أين هي؟

غادر الشقيقان المشرحة يسبقهما مصطفى. جلسا على كراسي الانتظار، ظل مصطفى واقفًا، مستندًا إلى الجدار بكتفهِ الأيمن، عيناه معلّقتان في السّقف. هل هؤلاء هم أطفالنا؟ لا أدري فيصل! لا أدري! أردف مصطفى؛ أنا آسف جدًا، ظننتُ بأننا وجدناه. تحشرج صوت سعود؛ لقد ماتوا قبل أربعة أيّام فقط. نكّس مصطفى رأسه؛

هل تدرك معنى هذا يا باش مهندس؟ أربعة أيّامٍ فقط هي كل ما كان يحول بيننا وبينهم! همس فيصل؛ وين ولدي؟ كأنّه لم يسمع كلمةً مما قيل. كان سعود محتقنَ الوجه، وقد نفرت العروق في جبينه وظـــاهر يديه. نهض من مكانه وركَل الجدار. إنه يمكـــن أن يكـــون في أيّ مكان. وهذا الشيء اللعين لن ينتهي أبدًا، أبدًا! يجـــب أن نفكـــر في احتمالاتٍ أخرى، قال مصطفى. ربما يحظى غير الأفارقـــة بمعاملـــة مختلفة، الرقيق الأبيض، دعارة الأطفال، أو أو يموتون في الطريـــق. كان صوتهُ مجلّلاً بالعار.

نظر الشقيقان إلى بعضهما؛ والآن ماذا؟ ســـأل فيصـــل. هـــل نبحث عن قبرٍ جماعيّ آخر؟ وفكّر بأن نفق الجحيم الذي خال نفسهُ في نهايته، هو في الحقيقة بلا نهاية. نفقٌ يمتدُّ في الألم إلى الأبد.

استمسك الثلاثة بالصّمت. تحجّرت الغصّة في حلقه، البكـــاء الذي خاله من حقِه بالأمس، جفَّ فيه على نحوٍ مؤلم. أسند جبينـــه إلى راحته وأغمض، عندما أحس بارتجافة الهاتفِ الخلويّ في جيبـــه. نظر إلى الشاشة، سميّة تتصل. اتسعت حدقتاه. سميّة تتّصل؟ لم يسمع صوتها منذ أن غادر عسير. وضع الهاتف على أذنه وازدردَ ريقه؛ نعم سميّة. جاءه صوتها لاهثا؛ روينا اســـتيقظت مـــن الغيبوبـــة. روينـــا استيقظت! الشرطة تحقق معها الآن، روينا تقول بأنّ مشاري هـــرب قبل مغادرة القارب، مشاري هربَ فيصل، لم يعبر البحـــر! لم يعـــبر البحر!

أحس بأنه لا يفهم شيئا: ما الذي تقولينه سميّة؟ لا أفهم. سميـــة تصيح؛ مشاري هنا فيصل، مشاري في السعودية، ما الذي تفعلونه في سيناء؟!

الفصل الرابع عشر

نَمير

جازان. مزرعة الشيخ عيسى مفتاح

29 ذي الحجّة 1431

11:43 صباحًا

كشف التَّحقيق مع روينا عن تفاصيل المكان الذي غادر منه القارب، وفرَّ فيه الصغير. امتلأ المكان بدوريات الشرطة ورجال المباحث؛ مئات من الرِّجال والفتيان، بزي الشرطة والملابس المدنية، يمسكون بأجهزة اللاسلكي، يمشطون المكان سيرًا، منذ الشاطئ الرمليّ وحتى مزارع الدّخن.

شاركَ كلٌ من فيصل وسعود وسميّة في عملية المسح التي ابتدأت مساء أمس الأوّل. جاء مازن من جدّة، مع مجموعة من أقاربه وأصدقائه، وشكّلوا فرقًا تطوعيّة للبحث عن الصبي. أقارب، أصدقاء، أبناء عمومة وخؤولة، جاءوا من الكويت للمؤازرة. بحثت الفِرقُ في السّفوح، والكهوف، والسدود، والشواطئ، والعقوم الترابية، والحقول. طرقوا أبواب الأهالي والمزارعين وعرضوا صورته؛ حيث كان يبتسم مرتديًا بلوزته الحمراء، خارج حوش البيت، وأشجار الجهنمية تتسلق قضبان السّور. لم يتعرّف عليهِ أحد.

كان فيصل يشعرُ بالوهنِ، وقد احتدم الرُّعاشُ في أطراف أصابعه، وبدأ الخدر يزحف عبر ذراعيهِ، إلى رأسه. سقط على ركبتيهِ مرّتين، فاضطرّ إلى السير بجانبِ أخيه، ممسكًا بكتفهِ مثل أعمى.

سمية، تمشي وراءه، وتلهجُ بدعاء الضّالة.

بعد يومين من البحث، واثنين وعشرين يومًا على الاختفاء، وفيم الجميع يشارك في تمشيطِ الشواطئ للمرّة الثانية، اقترب أحدُ الضبّاط من فيصل وهمس؛ أبو مشاري، لدينا أخبار. أحس فيصل بقلبِه يهوي. داهمهُ دوار غريب، مثل مليون حاجٍ يطوفُ داخل رأسه. أحس بيدي شقيقه تقبضانِ على كتفيه؛ تماسك! تماسك! رفع رأسه ناحية الرّجل، يبحث في وجهه عن جواب للسؤال الواحد، الوحيد، الذي يأكله من الداخل:

حي ولا ميّت؟

امتلأ رأسه بالطّنين، رأى فم الرّجل يُفتح ويغلق مرارًا دون أن يسمع كلمةً واحدة. غاب وجهه في غبشٍ غريب، زغللة بيضاء تزحفُ إلى عينيه. أحس بيد أخيه تجذبه إلى الدورية، لحق بهما كلٌّ من سمية ومازن. كانوا يركضون. جلس فيصل في المقعد الخلفي وسمية عن يمينه. سعود في المقعد الأمامي. تبعهما مازن بسيّارته.

في الطريق، أخبرهم الضابط بأنّ أحدهم قد اتّصل بمركز الشرطة، وقدّم إفادة بشأن عثوره على صبيٍّ مجهول أمام داره. مزارعٌ يملك حقلاً صغيرًا غير بعيدٍ من هنا، كان خارجًا لصلاة الفجر، عندما وجد عند عتبة بابه ولدًا بين الخامسة والسادسة، عاريًا وملفوفًا ببطانيّة، مقيّدًا في قدميه ويديه.

مشاري! شهقت سميّة. قبضت يدها على يدِ فيصل، اشتبكت أصابعُ الاثنين، دفنت رأسها في صدرهِ وأخذت تنتحب. الحمد لله! الحمد لله! ظلّ متخشبًا في مكانه، شاخصًا، يرفض تصديق أيّ شيءٍ حتى يرى الصبي بعينيه. لقد علّمته الأيّام الماضية ألا يثق بهذا الأمل المباغت، الذي يتفجّر في القلبِ بلا رحمة، ويدميه.

سعود يسأل الضابط:

الولد ما قال اسمه؟

لا

تلكأ الرجل قبل أن يضيف:

الولد ما قال ولا كلمة، والشيبة يحسبه أصنج.

أصنج؟

استدرك الرّجل:

يحسبه أصم.

جثم الصّمت على صدور الثلاثة، ثقيلا تملؤه الهواجس. غاصت رؤوسهم بين أكتافهم، كلٌ في تيههِ. هل يمكن ألا يكون هو؟

بعد أربعين دقيقة، توقّفت السيّارة أمام جدارٍ حجريٍّ يتوسّطه بابٌ معدنيٌ أخضر. إلى جانبه حقلٌ مليء بعرانيسٍ الذرة. كان الشّيخ ينتظرهم عند الباب؛ رجل هزيل أسمر، أشمط الشعر، محدودب الظهر، تنبت من ذقنه لحية بيضاء. أنا عيسى مفتاح، قال الشيخ. أنا الذي اتّصل بالشُّرطة.

وين الولد؟

سأل سعود من فورِه.

موجود.

قال الشيخ، وهو يقتادهم نحو إحدى الغرف، بأن عجوزه قد أطعمت الصغير بعض "المفتوت" وسقته بعض الحليب، وأنه نائمٌ الآن. قال بأنّ الصبي لم ينبس بحرفٍ منذ مجيئه، وأنه حاول أن يعرف منه حكايته. سأله ما اسمك؟ كيف وصلت إلى هنا؟ من قيّدك؟ من ضربك؟ لم يبدُ عليه أنه فهم حرفًا.

هل كان جريحًا؟ سألَ سعود، مختنقًا. قطّب الشيخ حاجبيه الأبيضين الغزيرين؛ هناك ندوبٌ على جسده، وقروحٌ بين فخذيه، وبثور حول فمِه.

قاطعه فيصل:

وين الولد؟

فتح الرجل الباب. كانت سميّة أوّل من دخل.

على السَّرير في زاوية الغرفة، جلست العجوز، مغطاة الوجه، وفي حجرها صبيٌّ نائم. كانت تتلو عليه آية الكرسي، وتفلّي شعرهُ بأصابعها. اقترب الثلاثة من الصَّغير، ينظرون إليه بأعينٍ متوثبة، وشفاه معقودة على احتمالات البكاء المشرّعة على الأسبابِ جميعها. نظروا إليه و..

خرَّ سعود على ركبتيه، يطبقُ على فمه بكفّيه يجاهد لكتم أصوات بكائه. مال عليهِ مازن يحتضنه.

اقتربت سميّة من الطفل النائم، ركعت عند رأسه، احتضنت وجهه براحتيها وأخذت تقبّله. قبّلت خدّيه، جبينه، أنفه، فمه، ذقنه.. بصعوبةٍ فتح الصبي عينيه. رمش مرّتين، قلّب عينيه في الوجوه، مثل طفلٍ تائه.

جثا فيصل عند نهاية السرير، حيث قدميّ الصغير، دفن فيهما وجهه، مدّ ذراعيه يقبض على ساقيه كأنه لا يصدّق أنه لا زال قادرًا على لمسه. كانت يداه ترتعشان.

مشاري.. أنا جيتك بابا.

أنا جيتك.

رسائل

21 ذي الحجّة 1432

حضرة الأَخ سعود السَّفار المحترم.

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أتمنى أن تكونوا وجميع أهلكم وأحبابكم بصحةٍ وعافية.

أرسل لكم هذا الإيميل بعد مرور عامٍ على لقائنا في نوفمبر الماضي، هل تصدق يا باش مهندس أن سنة كاملة مرّت على ذلك اللقاء؟

بعد يومين من مغادرتكم العريش قرأنا في الجرائد خبر العثورِ على الطفل الكويتي المفقود في إحدى المزارع في جنوب المملكة العربية السعودية. سُرّت السُّلطات بالخبر لأسباب لا علاقة لها بالعثور على الطفل، وتكاثرت التصريحات في الجرائد والقنوات عن عدم صحّة أنباء وجود عصابات مافيا لتجارة الأعضاء في سيناء. لقد استخدموا قضية الطفل مشاري للتغطية على جرائم التهريب والمتاجرة بالبشر. لقد كنت وهويشل والأستاذ حمدي العزازي في غاية الانزعاج.

أغلق ملفّ التحقيق، رغم وجود أطفالٍ آخرين لم نتحقق من مصيرهم، وألغيت القضيّة. واستمر الصَّمت لعامٍ كامل.

قبل يومين، فجّر المكتب الإعلامي للمباحث الفيدرالية في أمريكا مفاجأة عن تورّط وزير الداخليّة الأسبق في شبكة للمتاجرة بالأعضاء مع حاخام إسرائيلي مقيم في بروكلين اسمه "ليفي اسحق

روزنباؤم" يقول الخبر، كما ورد في صحيفة الوفد وروز اليوسف، بأنه قد ألقي القبض على الحاخام قبل ثلاث سنوات في 2009 بتهمة المتاجرة بالأعضاء، وعقدت المباحث الفيدرالية صفقة قانونية معه تقتضي تخفيض العقوبة إلى الحبس لخمس سنوات نظير إدلائه بمعلومات عن تفاصيل عملية المتاجرة بالأعضاء، وجميع المتورّطين فيها. من بينهم، كما أخبرتك، وزير الداخلية إياه. أربعة آلاف عضو بشريّ تم بيعها من خلال هذه الشبكة، من أفارقة ومصريين.

بعد ثورة 25 يناير الماضي وسقوط النظام في فبراير، لقي "السُّلطان" مصرعه في الصحراء على يدِ قبيلة التياها التي قرَّرَت الانتقام منه لمتاجرته في الأعضاء البشرية وتهريبها إلى أمريكا. يبدو أنه فقد أخيرًا الحماية التي وفرها له الوزير.

إنني أقرأ هذه الأخبار، وأفكّر في سؤالك؛ لماذا أوكلوا لي، وأنا كما ذكرت "عيّل"، مهمة التحقيق في قضيّة كبيرة؟ أعتقدُ بأنهم أرادوا ألا نتوصّل إلى شيء، والمؤسف فعلاً يا باش مهندس أننا لم نفعل.

بقي أَن أعترفَ بأنني لم أرسل أبدًا الكتاب الرسمي الذي يطلب تخصيص فريق من الخبراء في تجارة الأعضاء للتحقيق في قضية اختفاء ابنكم.

ولعلكم تعرفون ذلك مسبقًا، ولعلّكم أيضًا تعرفون السّبب.

أتطلّعُ لمعرفة أخباركم.

المخلص دائمًا،

مصطفى وجدي.

22 ذي الحجّة 1432

صديقي العزيز مصطفى،

سعدتُ كثير برسالتك، وفيصل يبلغك السلام.

نتابع في الكويت أخبار "المحروسة"، ونشارككم الفرح بانتصار ثورة 25 يناير. نتمنى أن تكون هذه ولادة جديدة لمصر، فلو حصلت "أم الدنيا" على ولادة ثانية، ماذا يحصلُ للدنيا؟ قلوبنا معكم، وقلبي كلُّه في العريش. لا يمرّ يومٌ دون أفكّر بما رأيتهُ وما سمعته هناك.

بعد مضيٍّ أربعة أيّام على التَّحقيق، انتابتني الشُّكوك بشأنِ كتاب طلب الخبراء. كنتُ قد حدستُ بأنَّكَ لم تُرسِله، ولكنَّ ذلك طمأنني قليلاً، إذ خشيت أن يتولى التَّحقيق شخصٌ متنفذ في شبكة الجريمة التي اتضح أنها أكبر بكثيرٍ مما ظننا.

قبل أسبوعين اتّصل صديقي مازن من جدة وأبلغني خبر إقامة حدّ الحرابة على نساء العصابة؛ روينا، أدانيا وبهاتي. قيل بأنهنّ قد عُلّقن في الهواء من رافعة سيّارة ضخمة في ساحة القصاص بجازان. سألته إن كانت الشرطة قد توصَّلت إلى ما يخص جرجس، قال لا شيء، كأنّه لم يوجد قط.

عثرنا على مشاري في مزرعة شيخٍ جنوبيّ في جازان. تبيَّن من الفحص تعرّضه لاغتصاباتٍ متكرّرة، وقد امتلأ جسده بآثار الجَلدِ وكثيرٍ من الكدمات. كان شاحبًا ونحيلاً وجاحظًا، ولم يتعرّف على أيٍّ منا.

استغرقه الأمرُ ثمانية أشهر حتى نطق بكلمته الأولى.

ما زال يرفض النوم وحيدًا، يخاف من الظلام، وهو يقضي معظم لياليه معي. كل ليلة أراه يرفس ويصرخُ بكلماتٍ لا تبدو عربيّة. أوقظه، أقبض على ساعديه وأخبره بأن الأمور ستكونُ على ما يرام، ولكنني غير متأكّد من صِحَّة مزاعمي هذه.

إنَّه لا يتحدث عما حدث له، ولكنَّ تصرُّفاته تقول الكثير. قبل أيّام بدأ جيراننا في ترميم بيتهم، تشنّج مشاري في مكانه يراقب البنّاء الأفغاني الذي يرصفُ الطوب، ثمّ بلّل نفسه.

حاولتُ مرّة أن أذكّره بالأشياء التي يحبّها. أحضرت له سطلاً من الفشار وجلسنا نتفرّج على فيلم باتمان. في المشهدِ الذي بدأت فيه الوطاويطُ تصفق بأجنحتها فوق رأْسِ البطل، أَخفى رأسه تحت الوسادة وأخذ يصرخ.

رغم كل شيء، سوفَ يستأنفُ دراسته في العام الدراسي القادم. إنه يستعيد طبيعته ببطء، وأنا آخذه إلى البحرِ كثيرًا. أعتقدُ بأن ساعات الصَّمت الطويلة أمام البحر ساعدته. ولكنَّ الأمر ليس سهلاً أبدًا، لاسيّما في ظلِّ انفصال والديه، وإصابة أبيه بالباركنسون..

لقد أصبنا، يا صاحبي، بإصاباتٍ بليغة جدًا.

تعليقًا على رسالتك، أودّ أن أخبرك بأنني ذهبتُ قبل أشهر إلى الجمعية الكويتية لزراعة الأعضاء وسجَّلت اسمي كمتبرّعٍ بعد الوفاة. لا يمرُّ يومٌ دون أن أفكّر بكل تلك الجثامين التي قمتُ بغسلها وتكفينها ودفنها والصلاة عليها، إن وجوههم السَّوداء البائسة تملؤني.

أتساءل أحيانًا عن معنى ما حدث. هل ثمة معنى لما حدث؟

في الوقتِ الذي كنا فيه في سيناء كان مشاري في جازان. وفي الوقت الذي كنا فيه في مكّة، كان مشاري في عسير. يبدو الأمر بلا معنى، ثم يلمع خاطرٌ غريبٌ في داخلي، وأفكّر؛ ربما نحن من يصنع المعنى؟

الأكيد أن أيّنا لم يعد كما كان قبل الواقعة. كأن في داخلِ كلٍّ منا ندبة أكبر من قلبه.

سمية، أم مشاري، تدروشت تمامًا. صارت ترى الله في كلّ مكان، وهي تتكلم باسمه، وتتكلم معه، وتتكلم عنه طوال الوقت. سمية تعتقد بأن كل ما حدث كان رسالة منه، إلينا.

فيصل، على العكس تمامًا، يعيش في عالمٍ موحشٍ، مفرّغٍ من الألوهة. حيث السماء صامتة تمامًا، وما من معنى لأيّ شيء.

أمّا أنا، يا صاحبي، فما زلتُ تائهًا..

وإذا فكّرتُ في الأمر أكثر،

فكلُّنا في التّيه.

محبّتي دائمًا

سعود

تمّت

أكتوبر 2013 – أبريل 2015

شكر وتقدير

شكرًا لكل من ساعدني في كتابة ومراجعة وتحرير هذا العمل.

الأستاذ **حمدي العزازي** من جمعية الجيل الجديد لحقوق الإنسان في شمال سيناء، الصحفي **محمد صبري** والأستاذ **خالد أيّوب** من العريش، والأخ **مسلم سويلم بن جازي** من جنوب سيناء، الذين زودوني بالمعلومات والتفاصيل اللازمة لكتابة فصول سيناء.

الروائي الإرتري **حجّي جابر**، الذي قدّم لي جملة من الاقتراحات القيّمة، ولجهده الكبير في التحقيق والمراجعة.

شكرًا لكل من ساعدني في عملية التدقيق والتحقيق والمراجعة. من المملكة العربية السعودية؛ **أروى خميّس، طارق الخواجي، د. مصطفى الحسن، محمد حسن علوان**. من اليمن؛ **محمد الضّبع**. من الكويت؛ **كوثر المسلم، سارة الشمّري، هدى الدخيل**. والشاعر السوري **المغيرة الهويدي**.

هذا العمل مدين أيضًا لآخرين اعتذروا عن ذكر أسمائهم.

شكرًا لهم جميعًا.



نبيع كل شيء، ولا مال لدينا لنشتري أنفسنا.

ماذا لو كانت قيمة الإنسان ميتاً أعلى منه حياً؟

مضيق هرمز. خليج فارس، أو الخليج العربي. بئر برقان. بئر زمزم. الهلال الخصيب.

فلسطين المحتلة. دلتا سيناء. البحر الأحمر. مضيق باب المندب.

من مضيق إلى مضيق، نبحث عن معنى.

إذا لم يكن هناك ما يقال، فلنقل ما لا يقال.



